

الغریبان

عبد الحمید وشفونہ

الغريبان

الجزء الاول

عبد الحميد وشفون

رواية

الكتاب: الغريبان.. الجزء الأول
تأليف: عبد الحميد وشفون
النوعية: رواية
صدر عن كتوباتي: 2024م
التنسيق والتصميم: مكتبة كتوباتي
النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.
وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

الفهرس

5	الإهداء:
7	حلم
17	ظهور
21	قضبان خشبية
26	نافذة صغيرة
34	ليل ثقيل
38	سوق المدينة
47	القصر الأبيض
61	ضيف
69	أغلال
86	الأسود
91	كوكب
96	على مضض
115	اعتذار
135	عوض
143	شجرة التفاح
148	غرق
153	القصر الأزرق
161	يقين

193	تبع
237	في العالم الأكبر
266	اجتماع
282	شؤم
309	أوراق
318	اعتزال
377	فراق

الإهداء:

إلى أجمل طفل عاش في البلدة... أخي الصغير أنس (عليه رحمة الله)
لأنني كنت بخيلا عليه بقصص ما قبل النوم

مثلما تبدأ الأشجار الكبيرة من الشتلات الصغيرة
فهذه الرواية قد بدأت من هذه القصة

حدث وأن أسر القائد العربي المسلم العظيم خالد ابن الوليد المرتد عن دفع الزكاة
مالك ابن نويرة وأسرته، وفي تلك الليلة أصدر خالد أمراً بتدفئة الأسرى لكنه عندما
عاد بعد ذلك وجد رجاله وقد قاموا بقتل الأسرى.
لم يكن هذا الأمر مخالفة للأوامر.
بل لأن كلمة (ادفئوهم) عند بعض القبائل كانت تعني اقتلوهم.

حلم

وسط غابة كثيفة الأشجار ظهرت قرية صغيرة مبنية بأكواخ من طين وقصب، كان صمت رهيب يرتد من كل زاوية فيها، وكانت الأشياء فيها تبدو ميتة، ميتة بشكل بارع، حتى الجرار الخزفية المعروضة للبيع على الأرصفة، كانت تبدو بغير نفس، كان هنالك فتاة تقف في ساحة القرية تحديق شاخصة فيما حولها، وراحت تسير تائهة مترنحة بعد لحظة، توشك أن تخر على الأرض بعد كل خطوة، قبل أن تعمل جل طاقتها التي يحتويها جسدها الأثوي في استعادة توازنها، سارت تتحامل على نفسها إلى أن وصلت إلى حيث كانت تقودها قدمها، وضعت يدها على صدرها بينما تبتلع ريقها، خائفة... وقفت أمام جسد متيبس وراحت تطالعه بعينين واسعتين، وقناع من هلع قد ترسم على وجهها، وكان جسد الرجل الواقف أمامها فاغر الفاه متخشبا ينظر نحو الفراغ بعينين يبدو أنهما لم تعودا قادرتين على الاتساع أكثر، في وضعية من يهيم بالهروب من شيء مرعب ظل يلاحقه.

رفعت الفتاة يدها نحوه ببطء وحذر حتى لامست أصابع يدها وجهه، وكانت وهي تفعل ذلك تشبه إلى حد بعيد من أوقف أمام الجنة والنار ولديه ورقة واحدة عليه أن يفتحها ويقرأ ما بداخلها، كان في يدها رعشة، وما إن مررت أصابعها على ملامحه الجامدة حتى راحت حبات الرمل تتساقط من وجهه، كان الرجل ليس أكثر من مجرد تمثال من الرمل منتصباً وسط القرية.

سال الوجه الرملي عند قدمي الفتاة وتشتت ملامحه، وبينما هي تبعد يدها عنه فزعة، إذ بالرأس يسقط على الأرض بكامله، وتلاشى وسط التراب وتفتت، ثم لم تمضي غير لحظة حتى انفلت الجسد بكامله على الأرض وتطايرت أجزائه كقطرة ماء حطت على صخرة.

عندما أدركت الفتاة ما حدث أمامها واسترجعت نفسها بعد ذلك، فإنها رفعت وجهها حيث أمكنها أن ترى الأرض وهي تتحرك، كانت القرية بكل ما فيها قد بدأت تدور حولها، عشرات من التماثيل الواقفة، رجال و نساء مع أطفالهن بخوف يعتري وجوههم يحاولون الهرب من شيء ما، لكن كل قد تيبس في وضع معين، توقفت الأرض عن الدوران بعدها، ووقفت الفتاة تحديق نحو السماء شاخصة البصر، ورأت سحابة من الغربان السوداء تهبط نحوها في سرعة هائلة، محدثة بنعيقها الجماعي ضجة صاخبة كانت لتبث هلعاً حتى في الأكواخ الجامدة لو كانت لها أعين لترى بها ذلك المشهد، غير أن الفتاة وقفت تراقبها بعينين مفتحتين وذراعان مرخيتان للأسفل، فكأنما هي ترى سرّياً من الفراش يطير فوقها، وصلت الغربان إلى وجهها وتلاشت مثل دخان داكن، وغطى الفتاة ظلام خانق، حاولت أن تصرخ معه، لكنها كانت صيحة مخنوقة تلك التي أطلقتها في جوف الليل وهي ترفع رأسها عن الوسادة.

بفكر شارد، جلست خولة أمام المرأة تمسّد شعرها، كان في يدها مشط أسود ذو أسنان دقيقة متقاربة، وراحت تمرره على خصلات حريرية بحركات الية عمودية، مرت دقائق، ثم توقفت يدها فجأة، ركزت نظرها في المرأة وراحت تسترجع مقاطع من حلمها المزعج.

كانت أشعة الشمس تسقط على زجاج البنائات المقابلة وترتد عنها في شكل نجوم ذهبية ساطعة، هب نسيم عليل لامس الأسطح، استنشقت منه خولة ما استطاعت في شهقة واحدة وابتسمت لأعلى، أعادت الستارة إلى مكانها وراحت تقطع أرضية الغرفة بخطوات حافية نحو المطبخ.

وقفت تنقل عينيها في زوايا المطبخ ويدها على خصرها، قالت في تدمر بالغ

اللطافة :

- “ آه منك يا أبي “

ذلك أن والدها العجوز كان قد ترك لها فطورا لطيفا على كابينة المطبخ، تناولت كأس العصير بكلتى يديها وأفرغت بعضه في جوفها بشربة واحدة، بينا بقيت قطع البسكويت على الصحن غاضبة لما لم تلمسهما يدها اللتان تشبهان أوراق البنفسج.

كان عطرها يبقى حيثما وقفت في أرجاء المنزل، والان عادت إلى غرفتها وجلست أمام مرآتها مرة أخرى، حدقت طويلا دون أن يكون على وجهها أي تعبير واضح، كانت عينها في وضوحهما تشبهان الأسود على الأبيض، والأبيض على الأسود، ظاهرتان مثل بريق شهابين في ليل صامت، تمنت لو أنها تستطيع أن تنظر إليهما في وقت واحد، وضحكت على نفسها، وحينما عادت شفتها لالتقاء مجددا، واختفت غمازتيها، كان لها ذلك الوجه اللطيف الذي لا تمل رؤيته، أدت بعض الطقوس النسائية، أتمتها بأن مررت وردي شفاه على شفتيها ثم قالت تحدث نفسها.

- “ هيا يا خولة، بضعة أشهر أخرى... فقط بضعة أشهر أخرى.”

قالت ذلك وفي اللحظة التالية كانت تجر حقيبة سفر صغيرة خلفها بينما تخرج من غرفتها، أعادت الباب الخارجية إلى إطارها وأدارت المفتاح في مكانه. ثم لم تمضي غير دقيقة وكانت تقف بداخل المصعد لتنزل المبنى.

لم تكن الوجهة بعيدة بالنسبة إلى خولة، فحتى مع بعض الاكتظاظ في الطريق كانت نصف ساعة فقط كافية لكي تصل إلى وجهتها عبر سيارة أجرة، كانت محطة خروبة تعج بالمسافرين كعادتها، جموع من الناس تصطف خلف شبائك التذاكر، والوجهات مختلفة ومتعددة، و مضت تجر حقيبتها في صمت نحو واحد منها.

كان الوقت الآن يشير إلى العاشرة ليلا، وكان قد بقي نصف ساعة على انطلاق رحلتها، ولكي تخفي نفسها عن الأعين فإنها جلست خلف إحدى العائلات على مقاعد الانتظار وراحت تراقب طرائدها في مكر وترقب.

إنّ والد خولة عالم آثار فذ، وقد اعتادت على مرافقته في بعض رحلاته القريبة منذ طفولتها، وكان بודהا لو أنها درست ذات التخصص، بيد أنه أصرّ عليها كي تسير على خطى والدتها الراحلة، ربما لتذكره بزوجته العزيزة، أن يرى مئزرها الأبيض وحقبة يدها يعودان إلى الحياة مرة أخرى.

سنة واحدة لا تزال تفصل خولة عن إتمام دراستها، حتى أن هذا اليوم كان ليكون مجرد يوم آخر ممل من أيام الدراسة، لولا أن طارئاً حل فجأة وحال دون ذلك. فقد نشب حريق مفاجئ في القاعة التي كانت تتربص فيها، وهو ما تزامن مع رحلة إلى الجنوب ظل والدها يخطط لها منذ أيام عديدة، وظلت هي تراقبه في حسرة، لكن حظها كان بديعا هذه المرة فأتاح لها الفرصة لتحقيق رغبتها.

فإذن أفادت خولة من سهوها على صياح رجل راح ينادي في الناس بصوت متكرر، كان يقف على أحد المخارج، وجرت خولة حقيبتها ومشّت نحوه، هناك حيث كان المخرج يفضي إلى الحافلة التي كانت قد حجزت فيها.

في الحافلة، كان لا يزال هنالك أماكن فارغة، كان الناس يصعدون لتوهم، بوجوه متجهمة، ما يدل على تعب الرحلة المنتظر، جاءت خولة بخطى خفيفة من خلف المقاعد واختارت آخرها لتختفي عن الأنظار وتراقب طرائدها دون أن يكشف أمرها. بعد بعض الوقت انطلقت الحافلة تدوس الظلام لتغادر العاصمة متجهة نحو ولاية الأغواط عبر الطريق الوطني R1 في رحلة من المفترض أن تدوم لست ساعات كاملة.

بعد مرور ثلاث ساعات تقريبا توقفت الحافلة عند إحدى المحطات بولاية الجلفة ليأخذ الركاب قسطا من الراحة أو يتناولوا طعاما أو ليقضوا حاجياتهم، نزل معظم الركاب من الحافلة وبقي عدد قليل منهم فقط على متنها، بعضهم كان يغط في نوم عميق جدا، فيما انزوت خولة عند النافذة لتراقب والدها، بعد عشر دقائق عاد جميع الركاب فانطلقت الحافلة مرة أخرى.

بعد ساعتين من السير ظهرت لافتة تشير إلى وصولهم إلى مدينة الأغواط الكبيرة وبعد بضعة دقائق كانت الحافلة قد أنهت رحلتها في محطتها الأخيرة. عندما راح باحث الآثار العجوز يخرج حقائبه من الحافلة رفقة طلابه الأربعة لاحظ شخصا يقف خلفه بطريقة غريبة فاستدار ليجد ابنته تطالعه بابتسامة فيها من المكر ما جعله يهز رأسه يمنا ويسرة دون أن يقدر على كبح ابتسامته التي غلبته في تلك اللحظة.

قضى الجميع ليلتهم في فندق صغير قريب من المحطة وفي الصباح الباكر خرج سليم وهو الطالب لأكثر نشاطا من بينهم والأقرب إلى العجوز رفقة شخص آخر من الفريق وعادا بعد نصف ساعة بعدما تمكنا من تأجير سيارتين ذواتا دفع رباعي بحيث تناسب مناطق الصحراء الوعرة.

عندما تم حمل الأمتعة من أدوات تنقيب وبحث تفرق الجميع بين السيارتين فركبت خولة خلف مقعد والدها فيما استلم سليم المقود بينما يغمره شعور بالسعادة وهو يرى خولة برفقتهم.

انتهت الاستعدادات تماما، وراح محركا السيارتان يزئران بشدة في مكانيهما، وأعطى العجوز عمران الإشارة بانطلاق الرحلة، فخرجت السيارتان المكشوفتان نحو الصحراء ولم يمضي وقت طويل حتى كانوا وسط الريف الصحراوي المقفر فقال العجوز وهو يراقب الفراغ الواسع:

- "توخ الحذريا سليم أثناء القيادة. احذر الحفر والربضات الرملية. فإن هذا الجزء من الصحراء غير مأهول تقريبا. وهنا لا تعود للهواتف أي فائدة إلا في التقاط الصور.. وإن وقع للسيارة مكروه فلن يعلم بأمرنا إلا الله تعالى... ثم الغربان. ثم الغربان من بعده."

على الطريق لاحظت خولة أن سليم كان يؤدي محاولات سيئة ليسترق بعض النظرات إليها عبر المرآة المثبة، فكانت تشيح بوجهها مطلقا، ولم ترد أن تخرجه، وأرادت أن تستمتع بالرحلة قدر ما أمكن، وراحت تمد ذراعها خارج السيارة لتصافح رايات الهواء القادمة في الاتجاه المعاكس، فيما أعملت يدها الأخرى في إبعاد خصلات شعرها المتطايرة عن وجهها من وقت لآخر، أما العجوز فقد غلبته حبات الرمل التي كانت تصطدم بعينيها فأسرع يخرج نظارته من جيب سترته وجعلها تعتلي

أنفه الكبير. وأخرج بعدها خارطة صغيرة من جيب سترته الثاني وأفرشها فوق فخذيته النحيفين وأرسل بصره المتعب فيها وقال:

- مادنة... ها نحن ذا. إذا كانت أثار النيزك لا تزال بارزة فلا بد أننا سنقدر على ملاحظتها بالعين المجردة بعد فترة قصيرة.

هكذا اندفعت بهم المركبة صعودا وهبوطا على التلال الرملية إلا أن صاح سليم فجأة قائلاً:

- سيد عمران.. انظر هناك...

واندفعت المركبتان بسرعة أكبر في هذه اللحظة لتصعدا تلاً رملياً صغيراً، وبالرغم من أنه لم يكن تلاً عالياً جداً، فإن الأمر لم يكن بتلك السهولة، فلقد قام السائق الآخر وكان يتقدم بمسافة بالكثير من الحيل حتى استطاع أن يوصل مقدمة سيارته لتطل من أعلى ذلك التل على الجهة الأخرى، وظل بعدها يمسك المقود ويدها مرخيتان بالكامل بعدما أدرك أن عجلتي السيارة لم تتوقفا عن الدوران أبداً، وسأله السيد عمران من الخف إن كان ينوي الإقلاع في أي لحظة، وعندما نظر إليه فقد وجد أن وجهه تجهم بالكامل، وقال سليم بهلع.

- أعتقد أنهم قد وقعوا في مشكلة.

وردد العجوز من خلفه.

- أجل... إنهم واقعون في مشكلة.

أوقف سليم سيارته بعيدا عن ذلك التل الرملي ونزل منها رفقة العجوز وراحوا نحو السيارة الأولى لتقديم المساعدة وبيننا بقي السائق في مكانه فقد راح الآخرون يدفعونها بجد كبير لكن دون نتيجة تذكر.

بعد بعض الوقت تركت خولة السيارة بدورها وذهبت نحوهم فلم تعثر على والدها، لكن أخبرها سليم بأنه قد سبقهم مشيا على الأقدام ولذلك قررت أن تتبعه ريثما ينتهي الآخرون من تحرير السيارة العالقة فراحت تكمل صعود المنحدر على قدميها وواجهت في ذلك صعوبة شديدة لكنها تمكنت في النهاية من بلوغ القمة وكان مشهدا عظيما ذلك الذي وقع بصرها عليه. بل بالغ العظمة، صفحتان بلونين مختلفين تطبقان على بعضهما، إحداهما باللون الأزرق في الأعلى والأخرى بلونها الأصفر والأسود في الأسفل، السماء والصحراء والرياح بينهما، كانت خولة تضع يدها على جبينها لتظلل عينيها الجميلتين من حر الشمس الساطعة، حين لمحت والدها يقف على بعد ثمانين مترا عند بقعة دائرية تقع وسط أرض صخرية مميزة عما حولها.

غمغم السيد عمران بصوت فيه حكمة بعد أن تقدم إلى وسط الحلقة :

- ما الذي فعله بك أولئك الغريبيون الأشرار يا صغيري لقد سرقوا كل أعضائك الصغيرة.

لكنه سمع في تلك اللحظة نداء لم يرغب في أن يلتفت نحوه. وأثنى ركبتيه على الأرض وجعل يمرر راحة يده على الصخور الصغيرة الناتئة.

بعد لحظات قام السيد عمران واقفا ليلتفت نحو النداء لما رآه قد اشتد وتعاضم، ورأى حينها ابنته خولة تحاول هبوط المنحدر بينما تطلق نحوه صرخات مرعوبة، ثم رأى من فوق التل رؤوس طلابه تظهر تواليا وعليها سيماء الخوف والهلع، التفت بعدها نحو التل المقابل وكان أعظم وأكثر ارتفاعا، واتسعت عيناه فجأة، وعاد فضيقهما مجددا، وكان يحاول أن يتبين ما يراه بشكل أوضح، لكن عيناه كانتا عتيقتين بما يكفي، أما خولة فكانت قد أدركت جيدا ما الذي تراه أمامها، واذ تسلل خوف عظيم إلى صدرها فلأن جدارا من الرمل عظيم كان يسد الأفق يقدم في سرعة بالغة نحوهم، وانطلقت صيحات كثيرة من أعلى التل الصغير نحو العجوز تحذره، وحينما أدرك أخيرا الأمر فإن قدميه لم تتمكن من حمله لأبعد من عشر خطوات حتى أحاطته به الرمال وغمرته بالكامل، وغابت صرخاته في الداخل واختفت، ولم يعد بإمكان الواقفين في الخارج تمييز مكانه، وقبل أن تستوعب خولة ما وقع لوالدها فإن العاصفة الرملية كانت بالفعل قد بدأت تحرك خصلات شعرها وأطراف ثوبها في غير ما اتجاه محدد، وبينما ظلت تقف متجمدة الأطراف والدمع يطفح في عينها أدركت أن في الأمر غرابة، وأنها ليست بالعاصفة المعتادة، ذلك أنها حبات الرمل لم تكن تقرص أطرافها ولا كان الريح يخنق أنفاسها، ثم إنها لم تشعر إلا وقد أظلمت الدنيا من حولها والتقمها الرمل كما تلتقم يد اللص ساعة فضية.

ظهور

وسط غابة كثيفة، كان هنالك بقعة صغيرة خالية من الأشجار تبرز منها ستة مسلات حجرية من عمق الأرض وترتفع لسبعة أمتار نحو الأعلى، وفوق المسلات كان هناك ستة رجال في عباة سوداء يحلقون فوقها، كل فوق مسلة خاصة به. مثل خرق بالية معلقة، فلم يكن يتحرك منهم شيء سوى أطراف عباةاتهم بفعل الرياح، ولم تكن أياديهم تظهر من تحت الأكمام ولا الوجوه كانت تظهر من تحت القلنسوات المخيفة، ولا شيء سوى السواد يطغى على مظاهرهم المرعبة.

وأمام المسلات وقف خمسة أمراء بثياب مميزة يرفعون وجوههم نحو المسلات الواقفة، لم يكن أحد من الأمراء الخمسة يعلم سبب استدعائه إلى هنا، كانوا ينتظرون بصمت مطبق لكن مر من الوقت ما يُفقد المرء صبره دون أن تصدر أمامهم إشارة واحدة، كان الأمراء يسمعون بين لحظة وأخرى ما يشبه الحشرجات تصدر من وجوه السحرة ثم لا تلبث أن تختفي وتنقطع أصواتهم.

أحد الأمراء كان يبدو عليه الغضب ونفاد الصبر أكثر من البقية، كان يرتدي عباة قصيرة خلف ظهره، ولما لم يكن مسموحاً للأمراء بالتحدث قبل أن يؤذن لهم، فأن هذا الأمير كتم صرخته في نفسه واضطر لأن يبتلعها على مضض إلى أن شق الهواء في الأعلى هزيم رعد هد أرجاء الغابة ووثبت على إثره الغربان القريبة وغادرت الأشجار

الساكنة، فيما تحركت الشجيرات من كل ناحية وبدا وكأن حيوانات الغابة تغادر مخابئها وتهرب نحو كل الجهات قدر ما أمكنها ذلك.

الآن تلى صوت الرعد المخيف وميض برق ساطع شق الفراغ وحجب الرؤية للحظة، وحينما فتح الأمراء أعينهم ورفعوا أبصارهم نحو السماء فقد كان هنالك ساحر ذو هيبة ظهر يحلق في أعلى المشهد بنظرات حمراء غاضبة تبرز من ظلمة وجهه المدفون تحت قلنسوة عريضة بينما يتصاعد من فتحات عباءته دخان أسود وكأنما أوقد نارا بداخله. وراح بعدها ينزل بهدوء بالغ عن مكانه إلى مستوى باقي السحرة، وما إن ثبت مكانه حتى ضرب الفراغ عند أسفل عباءته بصولجانه الأسود فأحدث صلصلة مرعبة وكان برقًا حط في ذلك الموضع، وكان لهذا الساحر صوت ثقيل مشبع بالجبروت حين دمدم في الأمراء قائلاً.

- "مرحبا بكم أيها الخدم."

وحينها هدأت همهمات الأمراء وجعلوا ينصتون إليه باهتمام بالغ، وإنهم قبل ذلك حينما رأوه يظهر على تلك الصورة جعل بعضهم يتهايمسون بينهم ويشتمونه بأبشع الصفات لكن ظهوره فض همسهم. أردف الساحر مدمداً.

-: "إنما استدعيتكم اليوم لنضع حدا لسلسلة الهجمات التي باتت تتكرر في السنوات الأخيرة.. موت القرى.. أيبدو لكم هذا مألوفاً.. ألا تعرفون خطر ما يحدث؟ ثم أنني لم أرى أحدا منكم يبذل مجهودا في سبيل تحري هذا الأمر".

أتم الساحر كلامه وتغيرت نبرت صوته فجأة، وراحت تعلو شيئاً فشيئاً حتى أصبح للكلمات التي تأتي من تحت قلنسوته صدى مخيف غاضب وكأن رعداً يخرج من فمه.

-: "أعلم أن الفاعل واحد منكم..أيها الملعونون الطفيليون على هذه الغابة، وإن لم تجدوا المتسبب في كل هذا من بينكم وتحضروه لي فسوف تضطرون لأن تقتسموا ثمن ذلك بينكم جميعاً.. لن أمهلمكم طويلاً، لكنني سأكون حريصاً على مكافأة أول من يأتيني برأس هذا الملعون المتمرد... لقد كان الهدف دائماً من ترسيمكم هو أن تحفظوا سلامة أراضيكم وأمنها. لكن يبدو أن منكم من مل هذا السلام وبات يريدها حرباً وقتلاً وتهجيراً كما كان الأمر قبل أكثر من ألف سنة... لكنني لن أسمح بحدوث شيء كهذا. أنا الساحر شالو.. فلتذهبوا الآن وليكن هذا آخر تحذير لكم".

قال ذلك وعاد فضرب الهواء بصولجانه مثل الأول وحينها تقدم أحد الأمراء نحو الأمام خطوتين وصاح في الساحر بأعلى صوته: "انتظر لحظة أيها الساحر".

لكنه صاح دون جدوى، لك أن الساحر لم تكن لديه نية في إقامة أي حوار مع الأمراء مهما كان نوعه، وإذ ذاك فقد انكمشت عليه عباءته مثل دخان يتقلص وغاب بداخلها واختفى عن الوجود تماماً، فكأنما قد امتصه ثقب أسود، ولعن ذلك الأمير الساحر ثم جثى على ركبتيه وضرب الأرض بقبضة غاضبة، فيما استدار باقي الأمراء في هدوء بالغ ومضى كل واحد منهم ينزل أدراجاً طويلة نحو الأسفل، فيما بقي ذلك الأمير جاثياً على الأرض لفترة طويلة ثم قام بعدها عن الأرض وجعل يحدق في

العباءات التي تطوف فوق المسلات بعينين دامعتان ثم صاح صيحة جعلت ما تبقى من الطيور في الغابة تقفز من أعشاشها، كما دفعت صيحته تلك باقي الأمراء وهم قد هموا بمغادرة المكان على صهوات جيادهم لأن يلتفتوا نحو ذلك المكان لبرهة. فضحك بعضهم في سره.

هدأت نفس ذلك الأمير الغاضب وخف سخطه فكأنما لم يكن، واستدار بهدوء بعدها وراح يهبط السلالم الحجرية نحو الأسفل حيث كان مربوط جابره عند بحيرة صغيرة يقوم أمامها صرح عظيم الطول في أرض بطحاء واسعة. ووثب بخفة على ظهره ونكزه فانطلق الجابر كالسهم العربي يشق الريح أمامه.

قضان خشبية

ظلام دامس، اهتزازات متتالية، ضجيج عجلات خشبية وصداع رأس كاد يقسم جبهتها، وإنه لشعور مزعج ذلك الذي استيقظت عليه خولة وهي تئن من الألم، كان مبيض أبيض ينبثق أمام عينيها ثم ما يلبث أن يختفي، كان الأمر وهي ترفع رأسها الثقيل يبدو كما لو أنه يتم اقتيادها بداخل عربة مسيجة بسقف وجدران من عوارض خشبية، وأيقظها صهيل خيول بعد ذلك ففتحت عينيها فزعة ونظرت فيما حولها لترى مجموعة من الفتيات في ثياب غريبة يحدفن فيها بشفقة.

ما يقارب العشر فتيات فانات، كن يرتدين ملابس فضفاضة غريبة ويجلسن بهدوء يضممن ركابهن إلى صدورهن وهن مقيدات بحبال متينة تشد أقدامهن إلى جدران العربة الخشبية، والحزن ينضح من وجوههن بشدة، كعصافير يافعة تم الإمساك بها لأول مرة.

وعدلت خولة من جلستها ونظرت إلى مقدمة العربة فرأت رجلا يجلس أربعة جياد قوية كانت تمشي في زهو تجر العربة. وتراجعت بعد ذلك خائفة حتى اصطدم ظهرها بالعوارض الخشبية العمودية فضمت ركبتها إلى صدرها ونقلت بصرها بين عيون الفتيات باضطراب وسرعة.

كانت الجياد الأربعة تجر العربة عبر طريق ترابي تحت ظلال أشجار متعانقة، وعاد الصداع ينقر رأس خولة حتى قبل أن تقول أي كلمة فأمسكت جيبتها وطأطأت رأسها

من شدة الألم، لكنها رفعته بعد ذلك وبكلمات ذات أئين أنشأت تسأل الفتيات دون أن تقصد أي واحدة منهن تحديدا.

- “ أين أنا.. وما الذي يحدث هنا !!.. من الذي جاء بي إلى هنا؟. “

لكن الفتيات التزم الصمت وبقين في أماكنهن هادئات دون حركة، فثارت نفس خولة حينها وصاحت فيهن قائلة: “ قلت لكن من الذي جاء بي إلى هنا.. فلتجبنني إحدانك هيا.. وتوقفن عن التحديق نحوي هكذا.. ثم لماذا ترتدين هذه الملابس الغربية !!.. إنني.. إن رأسي “ وعادت تضع يدها على جبينها من شدة الألم، ولم تلقى جوابا لحديثها، إن الفتيات التزم الصمت مرة أخرى، حتى أن بعضهن أخذن بوجوههن بعيدا خلف قضبان العربة، أو بين أرجلهن أو نحو السماء المظلمة، لكن واحدة من الفتيات كانت قد حدقت إلى خولة طويلا دون توقف، وجمعت خلال ذلك في نفسها من الجرأة ما يكفي لتسألها قائلة.

- “ من أي أرض أنت؟. “

وأبعدت خولة يدها عن وجهها بهدوء ونظرت إلى الفتاة باستغراب بالغ.

- “ ما الذي قلته؟

فكررت الفتاة سؤالها: “ هل أنت من أرض الرياح؟.. ملابسك تبدو غريبة جدا.. في الواقع أنا لم أقابل فتاة من أرض الريح قبل هذا.. وأعتقد أن الفتيات هناك ترتدين ثيابا غريبة عن أي أرض أخرى.”

وعنها نظرت خولة إلى نفسها وتفقدت ملابسها لبرهة، قميص وردي وبنطال أزرق وحذاء طويل ترابي اللون، إنها حتما نفس الملابس التي ارتدتها قبل خروجها من الشقة، قالت في نفسها، ثم عادت بوجهها المتعب لتلقي نظرة أخرى على ملابس الفتاة التي تحدثت إليها، وكانت تلك فتاة جميلة ذات بشرة خميرية ترتدي عباءة خضراء اللون بينا سمرت عينيها الجميلتين فيها، ونقلت خولة نظراتها نحو باقي الفتيات مرة أخرى وكن جميعهن يرتدين عباءات متشابهة في التطريز لكن بألوان مختلفة، بعضهن كن يرتدين صنادل من الجلد وبعضهن كن حافيات الأقدام تماما وعليهن سيماء العنت والمشقة، وعادت تحديق في نفس الفتاة مرة أخرى، فقالت وهي تقطب جبينها.

- " عن أي أرض تتحدثين أنت !!.. وهل أنا التي أرتدي ملابس غريبة ؟.. والآن أرجوكم توقفوا عن فعل هذا بي، وأخبروني أين والدي، وسليم." ثم إنها لاحظت كيف ازدادت نظرات الفتيات نحوها حدة وغرابة، وحينما حاولت إحداهن أن تخبرها بأن أفضل شيء يمكن لها أن تفعله الآن هو أن تهدأ قليلا وتخفف صوتها، فإن خولة هاجت بعد ذلك مباشرة وجعلت تمسك بالعوارض الخشبية وراحت ترجها بقوة فيما تصيح بأعلى صوتها " فليوقف أحدكم هذه العربة اللعينة... هيا.. فلتتوقف."

وحينها وما كادت خولة تسترجع أنفاسها من أثر الصراخ حتى أخذت سرعة العربة تخف شيئا فشيئا، ثم ما لبثت أن سكنت تماما عن الحركة، وما إن التفتت خولة نحو الفتيات حتى رأت كيف أن تعبيرات وجوههن تحولت من الاستغراب إلى خوف بالغ

وهلع، فبدأ شك مريب يتسرب إلى صدرها حين أخذت الفتيات القريبات منها يزحفن بأرجلهن وبيتعد عنها إلى الزوايا البعيدة.

أما الفتاة التي كانت تحدث إليها سابقا فبقيت إلى جانبها وأخبرتها بأن تهدأ قليلا وتخفف من صوتها، ونظرت إليها خولة بعينين تائهتان في الغضب، بعد ذلك كان ضجيج خفيف يصدر من مقدمة العربة، وظهر الرجل الذي كان ظل يهتز فوق مقعد خفيض في المقدمة دون أن يقول شيئا، ظهر وهو يجذب أعناق الجياد وراح ينزل بعدها في هدوء بالغ يبدل خطواته مثل بطريق يتحرك عن جانب بسبب من كبر حجم بطنه وقصر ساقيه وجاء نحو جانب من جوانب العربة، وارتمت خولة أمامه وراحت تترجاه والدمع يطفح في عينيها:

- " أرجوك أخبرني ما الذي يحدث هنا.. لقد بدأت أخاف حقا " قالت خولة ذلك بوداعة مطلقة، وشعرت وهي تتفقد مظهر الرجل بأن تصوير فيلم وثائقي عن حياة العرب أيام الجاهلية لا يمكن أن يكون أكثر إتقانا من هذا لكن الرجل القصير ببدانة جسمه العريض لم يمهلها وقتا لتخلق لنفسها فكرة أخرى عما هي واقعة فيه وما يحدث حولها غير التي خلقتها فأخرج ذراعيه من خلف ظهره وفي لحظة رفع سوطا كان بيده وأنزله على أطراف أصابع يديها المتشبثة بالقضبان الخشبية، وشعرت خولة بأن ناراً لاذعة قد سقطت على يديها فأسرعت تسحبهما إلى صدرها وهما تنبضان من شدة الألم، وما إن أدركت الأمر حتى غلبتها عينها ففاضتا بالدمع وأجهت تبكي وهي تفرك أصابعها بحرقه، نظرت إلى الرجل من بين الضبابات المتشكلة في مجال بصرها

فكان الرجل القصير البدين بوجهه الوحشي المشعر ينظر إليها مثلما قد ينظر إلى فأرة داسها حاف، كان فمه مغلقا لكن عيناه تبتعدان عن بعضهما بشريط كثيف من الشعر الأسود، وصاح فيها قائلاً بعد ذلك.

- " اهدئي أيتها الفأرة الصغيرة... انك تتحدثين منذ ساعة، وقد مللت من سماع صوتك، فلا تضطريني لضربك مجددا... عليك أن تهدئي قليلا، هيا " والتفت بعدها عائدا نحو مقدمة العربة.

تابعت خولة الرجل بعينيها الدامعتان وكان ذيل سوطه الحارق ينسحب على الأرض خلف ساقيه البعيدتين عن بعضهما، ثم عادت فعدلت جلستها ووضعت رأسها بين ركبتيها وانهارت على نفسها تشهق باكية دون أن تدري ما الذي أوقعت نفسها فيه، وراحت تقلب عشرات الأسئلة في رأسها، وبينما كانت آثار السوط لا تزال بادية على يديها والألم يقرض أطراف أصابعها اقتربت منها يد ما وحطت على كتفها بمنتهى اللطافة، لكن خولة رفضتها وأبعدتها بضراوة وأغلقت عينيها في حجرها وأصغت لقطقات العجلات الخشبية وغاصت في دوامة من الأفكار المظلمة.

نافذة صغيرة

بعد ساعة من المسير بدأت الأشجار تبتعد عن بعضها وتقل أعدادها، وراح ضوء الشمس يسقط على أرض الشجر بكميات أكبر، ولم يعد منظرها موحشا ومخيفا مثل السابق، ذلك ما رأته خولة وهي ترفع رأسها عن ركبتها بعد أن توقفت نحيبها، لكن رغم ذلك فإنها لم ترد أن تفتح عينها. وتمنت لو أنها تنام قليلا، لكن اهتزاز العربة حال دون تمكنها من فعل ذلك.

أتى صوت رفيع من جانبها:

“هل أنت بخير؟”

فردت دون أن تحرك ساكنا.

- أجل، أنا بخير...

وظهرت على وجه الفتاة التي حدثتها ابتسامة صغيرة وقالت بنبرة فيها من الاهتمام والشفقة: “أنا رشا.. هذا اسمي.. والآن أخبريني فقط من أي أرض أنت، وسوف يكون كل شيء على ما يرام، أعدك بهذا”

وأغلقت خولة عينها بعمق لتبدي لرشا مدى استيائها من تكرار هذا الحديث، وعندما فتحتها نظرت إلى الفتاة لبرهة وقالت بصرامة.

- “أنا من الجزائر.. العاصمة”

وهنا رفعت رشا يدها فوضعتها على جبين خولة وقالت: “ قد يكون رأسك تعرض لصدمة قوية، فقد وجدناك ملقاة على الطريق أمام العربية... على أية حال، إنني لم أسمع عن بلدة بهذا الاسم من قبل الآن أبداً” قالت ذلك والتفتت نحو الفتيات في الزاوية: “ هل منكن من تعرف لأي أرض تعود هذه البلدة؟ “ لكن مرت لحظات ولم تلقى جواباً.

وأبعدت خولة يد الفتاة عن جبينها بعد ذلك وصاحت في وجهها غاضبة: “ توقفي عن قول هذا.. أنا لم أصب بأي صدمة، لقد كنت مع والدي في.. عندما “ ثم إنها صمتت فجأة، مسحت دمعاً تجمع في عينيها وعادت تقول بشفاه مرتجفة: “ أين قلت أنكم وجدتموني تحديداً؟ “
فردت الفتاة مبتسمة:

- “ ملقاة في طريق الغابة.

ولما اجترت خولة ما سمعته في نفسها عاد صداع شديد يهاجم رأسها فجأة، فوضعت يدها على جبينها للحظة ثم نظرت إلى الفتيات اللواتي كن يراقبنها وعادت نحو رشا.

- “ حسناً.. سأحاول أن أجاريك في هذا “ قالت وقد تغيرت نبرة صوتها وأصبحت أقل حدة: “ لكن عليك أولاً أن تجيبيني.. لما نحن بداخل هذه العربية، ولما نبدو وكأننا مسجونات بداخلها؟ “

- " ذلك لأننا مجرد جواري نباع ونشترى... نحن هنا بداخل هذه العربة لأننا مجرد بضاعة، وهذا الرجل الفظيع متوجه بنا إلى أرض الشجر ليقوم ببيعنا، سوف نعرض في السوق غدا صباحا."

اتكأت خولة على القضبان الخشبية وأمالت رأسها إلى الخلف قليلا وأغمضت عينيها متنهدة تحاول استيعاب ما تسمع.

- " هل أنت بخير !! " سألتها رشا بقلق.

فردت خولة في استياء بالغ وهي لا تزال تغمض عينيها: " ومتى سنصل إلى أرض الشجر.. أو مهما كان اسمها. "

- " سوف تستطيعين رؤيتها إن أنت فتحت عينيك قليلا. "

وحينها رفعت خولة رأسها بخفة ونظرت أمام رؤوس الجياد التي كانت تهبط أرضا منحدره فرأت مدينة بكاملها مخبئة وسط غابة واسعة، قمم بنايات عالية تظهر واقفة، وقبب صغيرة بألوان زاهية، ورأت قصرا مهيب أبيض اللون يرتفع عند أقصى و أعلى نقطة من المدينة، فيما تحيط بكل ذلك المشهد سلسلة من الجبال الشاهقة، إلا من جهة واحدة حيث كانت العربة تشق طريقها نحوها.

ظلت خولة تشاهد منظر المدينة بذهول ودهشة، بعينين واسعتين راحتا تتلقفان المشهد بخوف وانبهار بالغين، وإن انتقالها وبمثل تلك السرعة من وسط صحراء واسعة إلى غابة خضراء ممدودة الأطراف دون أن تكون لديها أدنى فكرة عن كيفية حدوث ذلك لهو أمر انهك دماغها في لحظة، وكاد يحطم أعصابها. ولذلك حاولت

الوقوف فأحكمت قبضتها حول عمودين خشبيين ووضعت وجهها بينهما، كانت رياح الغابة تطير خصلات شعرها خلف رأسها، وكانت رشا تجثو على ركبتها إلى جانبها فيما تراقبان منظر المدينة معا .

خرجت العربة من الغابة وراحت عجالاتها الخشبية تتحرج عبر منحدر ترابي طويل يتصل بدوره بجزء الغابة المحيط بالمدينة، وظهرت طيور صغيرة تحلق فوق العربة بمرح وكأنها ترحب بقدوم الفتيات الجميلات إلى المدينة، كذلك اقتربت فراشة حمراء وحطت على عمود خشبي قريب حيث كانت تجلس خولة، فمدت يدها نحوها، لكن الفراشة فرعت لذلك وطارت بعيدا جهة السحب، لكن خولة رأت شيئا غريبا لما كانت تتبع الفراشة بعينها، شيء أسود عظيم الهيئة بدى وكأنه طائر عملاق يحلق في كبد السماء في شكل حلقات دائرية، وسكنت جوارحها في خشوع بالغ وهي تتأمل ذلك المشهد بعينين شاخصتين.

- " ترينه لأول مرة !! " سألتها رشا، فالتفتت إليها خولة وعلامات صعق بادية على وجهها، وقالت.

- " ما هو ذلك الشيء. " !!

وأجابتها رشا في هدوء بالغ: " غراب عملاق يظب محلقا في كبد السماء طوال الوقت. "!

وحتى بعد أن مرت سبعة ثواني منذ جعلت خولة تتفرس عيني رشا بعينيها الواسعتين كان فكرها لا يزال مصعوقا ومخدرا، ولم تستطع أن تقول شيئا، فعادت رشا تقول وعلى شفيتها شبح ابتسامة باهتة: “إنه وحش أرض الشجر، وهو لا يحط على الأرض إلا في حالات نادرة.”

عادت خولة بصمتها ووجهها المصعوق نحو السماء وجعلت تراقب الغراب العظيم وهو يفرد جناحيه الواسعين يمنة ويسرة وينزلق على الهواء في راحة تامة، ويقدر ما كانت تطوف أمام عينيها رغبة كبيرة في أن تصرخ عاليا، كان في صدرها ضيق وظلام عميق ليست ترى نهايته من غرابة ما ترى وتسمع. وإنها أوشكت أن تصدق بجوننها لولا أنها تعرف بأنه ليس للمجنون أن يفتاظ لضربة سوط أو أن يفهم الغاية منها.

تدحرجت عجلات العربة لدقائق أخرى، وقصرت المسافة بحيث بات للفتيات أن يبصرن بوضوح بالغ مدخل المدينة بعيونهن الحزينة، وخفت أعداد الأشجار على جانبي الطريق الواسع بشكل ملحوظ جدا، كان يحيط بالمدينة سور من الحجارالبيضاء تتوسطه بوابة خشبية عظيمة، وكانت الفتيات تكالع ارتفاع السور وضيق ينمو في صدورهن المخنوقة، ذلك حينما سمعن فجأة صرخة علت من حيث كانت خولة جالسة فتقدمن نحوها لما رأيته من الحالة التي وصلت إليها فقد كانت

يذاها وساقاها ترتعشان بشدة، وقالت تبكي متوسلة: “ بالله عليكن فلتخبرنني أين أنا.. أرجوكن لا تفعلن بي هذا... أين أنا”.

بعد ذلك وضعت رشا راحة يدها على وجه خولة ومسحت دموعها وضممتها إلى صدرها، وأحست الواحدة منهما بضربات قلب الأخرى، لكن فجأة على صوت الحوذي من مقدمة العربة بنبرة ضاحكة: “ لا عليك أيتها ال*** الصغيرة.. أنا سأبيعك لأول شخص يقدم عرضه دون أن أناقشه في الثمن.. في النهاية أنا لم أدفع لقاء الحصول عليك ديناراً واحداً “ قال ذلك وصدر من جوفه الواسع قهقهة عالية. وضرب بسوطه على ظهور الجياد وهز أجمتها بحماسة، وفتحت بوابة المدينة على مصراعيتها، وبينما تشق العربة طريقها إلى الداخل لم تستطع خولة أن ترفع رأسها عن ركبتيها من شدة البكاء.

توقفت العربة أمام بيت صغير مبني من الطوب والحجارة، وكان رثا عفنا جدرانها ممزقة، به نافذة صغيرة على جانب الباب الأيسر يجد الضوء صعوبة ليحشر نفسه عبرها، وكان يقف أمام الباب ثلاثة رجال أشداء يرمقون الفتيات بعيون متلهفة، وتقدم الحوذي يجر سوطه خلف ظهره نحو مؤخرة العربة وجعل يقف أمام الفتيات وسرور عظيم يغطي وجهه السمين المدور، التفت بعد ذلك نحو الرجال الثلاثة وأوماً برأسه فتحرك الرجال لفتح باب القفص الخشبي وإنزال الفتيات عنها.

وترجلت الفتيات عن العربة واحدة بعد الأخرى تدفعهن أيدي الرجال إلى داخل البيت مباشرة، وعندما لم يبقى في القفص سوى خولة وقد حشرت نفسها في الزاوية البعيدة ورأسها بين ركبتيها فقد صاح فيها الحوزي بأعلى صوته.

- " أيتها ال *** إنزلي إلي هنا، هيا... ولا تجعليني أجرح قلبك الصغير أكثر من هذا " قال ذلك وانتظرها قليلا وهم أحد الرجال بالوثوب إلى داخل القفص لكن الحوزي نهاه عن فعل ذلك بأن هز رأسه وعاد ينتظر من خولة أن تفعل شيئا لتخلص نفسها من غضب عارم راح يشدد بداخله.

لكن وفي لحظة ما، رفعت خولة وجهها قليلا ونظرت إلى الحوزي نظرات ناقمة، وبهدوء غريب قامت عن مكانها بخطوات جابرة ومشت نحو مخرج القفص، وضعت يديها على إطاري الباب وأدارت بصرها فيما حولها فكان كأنما دبابيس عميقة تغرس في عينيها.

كانت شوارع المدينة تعج بأشخاص بسطاء يرتدون ثيابا غريبة، هي في مجملها عباات وأردية وجبب ملونة واسعة الأكمام وعمائم ثقيلة على الرؤوس ونعال من الجلد وصنادلة بسيطة، ويربطون خصورهم بأحزمة عريضة، وكان صخب وصراخ ونداءات تعلو من كل جانب، وأطفال صغار يظهرون ويركضون في كل زاوية، ونظرت بعدها إلى البيوت الطينية المتراسة على جوانب الشوارع يمنة ويسرة. رأت كل ذلك خلال ثواني معدودة، ولشدة غرابة ما رآته حولها فقد أغمضت عينيها بعمق وفتحتهما

في هدوء شديد لكي يختفي كل ذلك لكن يد أحد الرجال جرتها عن باب العربة في شدة فجأة.

في الداخل تم اقتياد الفتيات إلى إحدى الغرف المفروشة أرضيتها بزرابي واسعة من الصوف الملون، فجلسن بعد أن تم إغلاق الباب عليهن بإحكام وتفرقن في زوايا الغرفة، أما خولة فانسحبت إلى مكان قريب من النافذة وجلست لوحدها، دست وجهها فوق ذراعيها وأغمضت عينيها.

بعد بعض الوقت اقتربت رشا من خولة بهدوء فلاحظت بأنه لا تزال تخرج من فمها شهقات صغيرة تكاد لا تسمع، وهمت بأن تلمسها، لكنها كفت عن ذلك وتراجعت وبعد لحظات عادت بخطوات غير مسموعة فغطتها بإزار كان في ملقى في الزاوية وعادت إلى مكانها.

ليل ثقيل

مر المساء ثقيلًا وموحشًا وأتى الظلام بعدها فسد فتحة النافذة وألقى بالنعاس في جفون الفتيات المتعبات فبقين تتهامسن بأحاديث ضعيفة حتى أتى رجل يطرق باب الغرفة بعنف شديد ثم راح يدفعها بركلة من قدمه ودلف يحمل بين يديه شيئًا من الطعام الرديء ألقى به وسط الغرفة والتف حول نفسه وأقفل الباب خلفه دون أن ينطق بكلمة واحدة، وأتت رشا فأخذت حصة من الطعام وقربتها إلى خولة.

- "الآن انتهى دور هذا السجن، وسوف لن يطرق علينا هذه الباب أي شخص غيره حتى تطلع الشمس صباحًا، وعلينا بما قدمه لنا أن نتجاوز هذه الليلة معًا.. هيا، خذي تناولي طعامك".

نظرت خولة إلى الطعام عند قدميها فكان ليس أكثر من مجرد قطعة خبز تحوي بداخلها شيئًا من الشريد البارد، وظلت تنظر إليه بوجه حزين متحجر، وبعد فترة توقفت رشا عن تناول طعامها ورفعت بعضها منه فقربته إلى فم خولة، ولم يكن من خولة بعد ذلك سوى أنها أدارت وجهها بعيدًا وهي تكاد تبكي.

قالت: "لست جائعة"

فقلت رشا: "قد لا يكون منظره جيدًا، وقد لا يكون مذاقه يشبه مذاق أي طعام تناولته قبلاً، لكنه يفي بالغرض.. ثم إنه لا أحد يدري كم من الوقت نمت في تلك الغابة، لذا توقفي عن العناد وتناولي طعامك، أنا متأكدة من أنك تتضورين جوعاً"

ولم تستجب لها خولة ولم تبدي رد فعل أيضا، لكن بعد لحظات صمت قالت:

”- اسمك رشا.“

- “أجل.“

- “إسم جميل جدا“

وابتسمت رشا وهي تسمع ذلك من خولة، والواقع أنه قد فاجأها أن خولة تستطيع أن تسأل الآخرين سؤالاً كهذا، وتوقعت أنها سوف تكون قادرة على أن تستعيد ذكرياتها لو أنها فقط تحصل على بعض المساعدة، وأن تتحدث عن موطنها وتصف لهم الأرض التي جاءت منها، وحينئذ قالت تحدث نفسها بين تطالع خولة بأمل.. لا بد وأنها من أرض الرياح أو أرض الرمال ولن يخرج الأمر عن الأمرين نظرا للملابس الغريبة التي عليها والتي لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون من أرض الرماد أو أرض الماء أو أرض الشجر.

وأنشأت خولة تقول بعد فترة وعيناها تنظران في الفراغ أمامها: “لماذا تحاولين مساعدتي!!.. أم أنني لا أبدو لك كالمجنونة أنت الأخرى؟.“

ونظرت رشا إلى وجوه الفتيات حولها وعادت نحو خولة: “أنا حقا لا أدري.. لكنني أنظر إلى عينيك فأرى أنهما لا تكذبان أبدا.. أنت تتحدثين بغرابة، لكنني أستطيع تقبل ما تقولينه“

- “لكن لماذا. لماذا أنت من بينهن؟.“

- “ بهذا ” قالت رشا وهي تخرج قارورة سوداء صغيرة من صدرها، ثم أردفت تقول بهمس: “ كحل خاص مصنوع من حجر الإثمد الأرجواني النادر ”

... -

- “ حسنا.. بالتأكيد لم تريه قبل هذا، ولا رأته أي واحدة من الفتيات هنا أيضا، ولا أنا كنت أعرف بوجوده قبل أن أسرقه من قصر أمير الرمال خفية ”

وما كادت رشا تنهي كلامها حتى رأت كيف تغير وجه خولة في لحظة، وعلت نظرتها حسرة، فحز في نفس رشا أن تحزن صديقتها هذا الحزن كله بلا سبب، وبحسن نية عادت تقول مجددا: “ أقسم لك أنني لا أكذب، لقد عشت لأكثر من سنتين أخدم أمير الرمال في قصره، وأعتقد أن أخته حصلت عليه من أرض الرماد كهدية.. ومن حسن الحظ أنها ماتت بعد أن سرقته منها مباشرة.. أرجوك لا تنزعجي من كثرة حديثي، وسوف أعطيك إياها كهدية.. اقبلها مني ”

ورفعت خولة وجهها نحو عيني رشا مباشرة فأومأت رشا برأسها فكان من خولة أن تناولت القارورة في يدها وجعلت تتفقدتها وقالت بحيرة كبيرة.

- “ لكن كيف لهذا الكحل أن يمنحك القدرة على معرفة من يكذب ممن يقول الحقيقة ”

- “ لا أدري كيف له أن يفعل، لكنه يفعل.. وأستطيع الآن من مكاني ورغم هذه الظلمة أن أميز لون عينيك بشكل واضح ”

وحينها انتبهت خولة كم أن الغرفة قد امتلأت بظلام دامس، إلا من خيوط ضوء باهتة ونحيفة كانت تهبط من قصعة القمر البيضاء عبر النافذة وتنغرس في وسط أرضية الغرفة،

ومجددا لم تستطع خولة أن تصدق ما كانت رشا تقوله لها، وفي المقابل كانت رشا تقدر على أن ترى ذلك في عينيها.

قالت: “ أنت لم تصدقيني في أي كلمة اقلته.. أستطيع أن أرى هذا في عينيك، أستطيع أن أرى كيف تهتز عينك اهتزازا دقيقا جدا، لكنك لن تصدقي هذا أيضا.. على أية حال إنك لم تخبريني حتى الآن باسمك! ”
- “ خولة ”

- “ خولة !!.. اسم بديع حقا... وأود لو نصبح صديقتين من الآن فصاعدا، هل توافقين؟.. ” قالت رشا وابتهاج يطفح على عينيها، لكن خولة لم ترد جوابا وظلت صامتة، ثم راقبت رشا وهي تعود إلى مكانها بعد ذلك لتضع رأسها على وسادتها، إنها لم تستطع أن تخبرها بأنها اكتفت من الحديث لهذه اليوم وضاعت ذرعا من ذلك، وشيء واحد فعلته بعد ذلك، انزلت على الفرش تحتها، أسقطت رأسها على وسادة صغيرة ورفعت ذراعها نحو الأعلى لتفقد بريق زجاج الكحل على ضوء النافذة، إلى أن تعبت ذراعها وعيناها ونامت من الحزن والإرهاق والتعب.

سوق المدينة

مع بزوغ شمس اليوم التالي، رفعت خولة رأسها واستندت على جدار الغرفة تفرك عينيها وإن كانت لم تجد طوال الليل للنوم طعما يذكر، لكن رشا كانت بالفعل قد أفاقت منذ بعض الوقت وراحت تقف على أطراف أصابع قدميها تطل من النافذة الصغيرة.

وسألتها خولة بصوت متعب :

- " ما الذي تفعلينه ؟ " .

- " أقوم بمراقبته.. لكن تحدثي بصوت خافت، وإلا فسوف تستيقظ الفتيات أيضا وقد لا يعجبهن ذلك " ردت رشا بهمس وهي تخرج وجهها من فتحة النافذة.

فسألتها خولة مرة أخرى بصوت خفيض جدا:

- " تراقبين ماذا ؟ " .

- " أراقب ذلك الأمير المتعجرف... هذا ما أفعل، إنه يقف على شرفة القصر، تعالي

إلى هنا إذا أردت " .

وقامت خولة صوب النافذة فوقفت على أطراف أصابع قدميها تزاحم رشا ثم قالت

بعد لحظة:

- “ لست أرى سوى طلائع القصر العالية!.. أبراج بيضاء وأسقف حمراء تغطي الأسطح.. ثم هذه الأتربة في الخارج، يستحيل أن تري أي شخص يمكن أن يكون واقفا هناك من هذه المسافة.. حتى أنني يصعب علي أن أحدد موضع أي شرفة!! “
 وابتسمت رشا وهي تسمع كلام خولة، قالت بعدها وهي تركز بصرها أكثر: “ أقسم لك أنني أستطيع رؤيته.. وأرى قناعه بشكل واضح أيضا “
 - “ قناع!! “

- “ أجل، أستطيع رؤيته “ ولم تكدرشا تلفظ كلماتها حتى أطرقت ببصرها لما تذكرت أنها تتحدث إلى فتاة لا تزال آثار العبرات على وجهها بسبب من كونها خائفة من هذا العالم. ثم مضت تحاول أن تشرح لخولة الأمر بأسهل طريقة ممكنة:
 - “ أمير هذه الأرض يضع قناعا خشبيا على وجهه بشكل دائم، ولا أحد يدري سبب قيامه بذلك... إنه يعود الآن إلى الداخل، لقد كان يعدل درعه على صدره... أعتقد أنه سينزل إلى السوق حتما.. هذا رائع.. “. وظهر على وجهها ما بدا وكأنه البشارة السارة، حتى لقد اتسعت عيناها فرحا، ومضت خولة تسألها على مضض.

- “ وما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟ “
 والتفتت إليها رشا بحماس بالغ:

- “ هذا يعني أن الأمير سينزل إلى السوق هذا اليوم... وسيكون من حسن حظ أي واحدة منا أن تنجح في أن تلفت انتباهه.. هل تتخيلين هذا، ماذا إن اختارني أنا!!! “

ذلك وعادت تنظر بعيدا نحو القصر حيث كان شيء ما يلفت انتباهها فضيقت عينيها للحظة واستتلت قائلة:

- " غراب صغير على صدره ريش أبيض !! "

- " ماذا ؟ "

- " إنه يحب السواد في كل شيء.. حتى في حيوانه المفضل " وسألتها خولة.

- " أمتأكدة أنك بخير ؟ "

- " جدا " ردت رشا وهي تلتفت نحو باب الغرفة، إذ ظهر شخص ما في الجهة الأخرى يعالج قفلها، ثم لم تمضي غير لحظة وكانت صفحة الباب تندفع عن مكانها محدثة جلبة عنيفة فظهر من خلفها رجلان أحدهما يحمل طبقا فيه طعام وماء والآخر كان يحمل لوحا خشبيا عليه أدوات للزينة فوضعاها على الأرض ثم صاح أحدهما بكلمات تردد صداها في أركان الغرفة قبل أن يختفيا خلف الباب مرة أخرى:

- " قمن يا قطع النقود الجميلة.. هيا.. تناولن طعامكن وتجملن كأحسن ما يكون... فسنخرج إلى السوق بعد عشرين دقيقة".

وقامت الفتيات بعد ذلك نعسات على عجل فغسلن وجوههن وتناولن فطورهن وأسرعن لتعديل مظاهرن بأدوات بسيطة، هذ فيما كانت خولة قد انسحبت إلى الزاوية وظلت تراقبهن في كمد وحيرة.

هذا وما كادت الفتيات تنتهين من استعداداتهن حتى ظهر ذلك الرجل القصير صاحب السوط اللاذع ومساعداه فقاموا باقتيادهن جميعا نحو الخارج. مشت خولة في اخر الصف مقيدة اليدين مطأطئة الرأس تتبع خطوات الفتيات في صمت وقهر بالغين، فكانت لا ترفع رأسها إلا لترى نافذة خشبية مهترئة أو جدارا مسلوخا أو زقاقا ضيقا أو طفلا صغيرا يرتدي عباءة قصيرة ويركب عصا خشبية بين ساقيه العاريتين متوجها بها نحو ما يبدو أنه الطريق الذي سيمرون خلاله بعد ذلك، فعبروا شارعاً واسعاً والتفوا حول عدد من البيوت الخفيضة المبنية من الطوب حتى قدتهم اليد التي تحمل السوط إلى ساحة واسعة تعج بأشخاص يرتدون ملابس مسدلة عريضة ومتشابهة ويطوفون حول بعضهم في تداخل كسرب نحل يملأ صياحهم الأركان ويلون الغبار هوائهم بسبب من كثرة الأتربة المتطايرة من تحت صناديلهم الجلدية، وكان ذلك إلا سوق المدينة الكبير الذي يحج إليه الناس من كل القرى والقبائل القريبة وحتى من الأراضي الأخرى البعيدة، كان السوق مقسماً إلى أجزاء كثيرة ولكل سلعة ركنها، وكانت أصوات السائلين تعلوا فتعلوا أصوات التجار خلفها، كانت العمائم والأخمرة تطوف حول بعضها عبر حوانيت التوابل والأقمشة والأطعمة والأواني الفخارية، وكانت بعض الأصابع تمر على أنصال السيوف اللامعة والخناجر الحادة تفحص حذتها، وكان الأطفال يمشون خلف الكبار وبعضهم يطارد بعضه الآخر في ضجة بالغة، لكن السوق هدأ فجأة وخفت الأصوات عندما اقترب الرجل صاحب السوط وخلفه الفتيات في زينتهن نحو الركن المخصص لبيع الخاديات، واستولى

خوف رهيب واستعظم في نفس خولة وهي تتقدم مكسورة الروح نحو مصطبة خشبية عملاقة كانت تعرض عليها عدد من النساء وكان يقف أمامها جمع من الرجال في ثياب أنيقة قد وقفوا يطالعونهم بعيون مشتعلة.

الآن وقد أوصل الرجل صاحب السوط بضاعته إلى المصطبة وأخرج سوطه من خلف ظهره وجعل يظهر للفتيات مدى رغبته في التعامل معهن بقسوة بالغة إن هن قمن بأي حركات لا تمد لأدب الخاديات بصفة وصاح في الناس بعد ذلك :

- "هلموا... هلموا إلى هنا أيها الناس... اقتربوا..."

ومضى في خطاب أطنب فيه وزاد في مدح بضاعته بينما تقف الفتيات بعد أن فك الرجال قيودهن بهدوء منتصبات في زينتهن تنظرن إلى الفراغ بنظرات تبسم مصطنعة.

وأما خولة فكان قلبها يعتصر ألماً، وكان خوف شديد يعصف بصدرها، وأوشكت ساقاها ألا تحملها أكثر، بينما تقف مغتاظة كمدة كمن يتنفس هواء مر وهي لا تتوقف عن التفكير في اللحظة التي سبقت اختفاء والدها وسط العاصفة الرملية دون أن تقدر على تصديقها.

وأخذ بعض الرجال وكان عليهم ثياب نظيفة وهيئة ويجوز للناظر الاعتقاد بأنهم من كرام القوم وأعلامهم شأناً وأملأهم جيها، أخذوا يقتربون من المنصة وبين لحظة وأخرى كان يصعد أحدهم فيتنفد امرأة أعجبه شكلها ليتفدها بيديه عبي مقربة، لكن لاحظت خولة أن كثيراً من الأعين كانت مسلطة عليها الناس مسلطة عليها، بيد أن أحدا لم

يرغب في الاقتراب منها أو السؤال عنها بسبب ملابسها الغريبة، ويبن صخب السوق وحركات الألسن والأقدام. فجأة سُمع صوت صهيل جياذ جاء يرتفع من مدخل السوق فأحدث ذلك اضطراباً في وجوه الناس اللذين راوحوا يُفرغون المكان في هلع ورعب حتى باتت الطريق نحو معرض العبيد خالياً إلا من أثار النعال الهاربة.

وجاءت الجياذ بفوارسها تشق طريقها على أرض السوق المتربة تهز رؤوسها الثقيلة وتشخر بأنوفها الواسعة فيتنحى الناس عنها يمنة ويسرة، وكان يقدم الركب فارس ملفع في ثياب سوداء يغطي وجهه قناع خشبي ويمتطي جابراً بلون الليل ممشط شعره فوق رقبتة نحو الجانب، كانت مشية الجابر من الهدوء والثقة بحيث تخبر كثيراً عن ثقل فارسه الذي كان يشق بصره الفراغ في هيبة ووقار بالغين، لكن رغم ذلك فقد كان الناس يطالعون الفارس بعيون خائفة وكارهة، وتوقف الجابر الأسود وخلفه عشرة آخرون أمام المنصة الخشبية التي تقف عليها الفتيات مباشرة وسكنت حوافرهم عن الطقطقة، وراحت رشا إلى جانب الفتيات الأخريات تتستقبلن الفرسان بعيونهن الجميلة المضطربة، فيما لم ترغب خولة في أن ترفع رأسها نحوهم إلا بعد فترة. لكن حينما فعلت فإنها ابتلعت ريقها وظلت تتطلع إلى الفارس صاحب الجابر الأسود الذي لم يكن يظهر منه سوى عينيه الصافيتان اللتان تشبهان حبات الليل، وكان يرتدي درعا من الجلد الأسود عليه زخارف بارعة، وراحت عيناه الساحرتان تدوران بتثاقل في وجوه الفتيات واحدة بعد الأخرى، وحينئذ مالت رشا برأسها نحو

خولة وقال بصوت خفيض جدا: “ أترينه... إنه الأمير المتعجرف الأسود.. أترين كم أن

عيناه جميلتان جدا.. حتى أن حدقتيهما سوداويتين هل تصدقين هذا. “ !!

ونظرت خولة بعمق إلى قناع الفارس فلم تستطع أن تتبين لون عينيه من تلك المسافة، لكنها فجأة شعرت بشيء غريب يتملكها، شيء ما يمس كيانه من الداخل، كأن الريح تهدأ حولها، رغم أنها لم تكن تعصف، وراح خوفها يزول بشكل غريب آثار دهشتها.

- “ خولة، مابك ؟ “ نادتها رشا لما رأت تيبس وجهها، فتنصلت خولة من شرودها وعادت تحديق في الفارس الأسود بجدية وحذر.

- “ أهذا هو الشخص الذي رأيته من النافذة ؟ ”.

قالت خولة ذلك ثم وفجأة تفتنت لشيء ما يحدث لها، فقد لاحظت كيف أنها باتت تسأل رشا أسئلة جادة عما يحدث، ذلك أنها سألتها هذا السؤال وفي داخلها رغبة بالغة لتعرف الجواب، وحينما أوشكت أن تهيج ثورة غضبها مجددا فإن عيني ذلك الفارس قد دارتا نحو عينيها في تلك اللحظة مباشرة، فجعل ذلك نبضات قلبها تتسارع بشدة.

- “ أجل، هذا هو الأمير يا خولة.. أمير هذه المدينة ”.

لم تتمكن خولة من سماع حديث رشا. لأنها حواسها كانت تتطلع نحو الفارس في صمت وجمود بالغ، إلى أن أدار الفارس وجهه.

قبل لحظات فقط كان هنالك فتى صغير يعتلي قصبه بين ساقيه يجرها مختبئاً بين الحشود يراقب الفارس الأسود ويشق طريقه نحوه حتى خلف ساقين طويلتين في الموضع الذي ارتآه مناسباً لرفع ذراعه ولوح بها نحوه ثم هرولاً هاربا على صهوة جابره.

ونظر الناس إلى وجه الفارس في رعب وخوف بالغين لماً رأوا وجهه الخشبي وقد تلطخ بأمعاء حبة طماطم فاسدة كانت قد ظهرت من بين الجموع وانفجرت عليه فجأة، وظل الفارس ساكناً فوق جابره متخشبا بغير حركة، بينما استل الفرسان العشرة من خليفه سيوفهم وأداروا عيونهم في وجوه الناس الواقفة، فلم يكن شيء يتحرك غير رؤوس الخيول الكبيرة التي كانت تشخر وتهتز أمام أجسادها، ذلك أنه لا يحدث في كل يوم من أيام السوق أن تنفجر حبة طماطم على وجه أمير المدينة، وافترش الصمت فضاء الواسع لفترة.

بدا وكأن الأمير قد أخذ وقته ليستدرك ما وقع، وحينما تنصل من دهشته فذلك لأنه سمع فجأة صوت ضحكات يرتفع من مكان قريب جداً، كانت ضحكة رنانة، ذات نغمة، فأدار بصره في هدوءٍ مرعب نحوها، فوجد أن فتاة من الخاديات المعروضة للبيع كانت تضع يدها على فمها تحاول أن تكبح نفسها عن الضحك دون أن تنجح في فعل ذلك.

كان جسد خولة بكامله يهتز من شدة الضحك وهي تشاهد ذلك الفتى الصغير وهو يهرب من خلف الحشد بعد أن أصاب هدفه بدقة، دون أن تنتبه إلى أن العالم حولها كان يختنق رعباً من فعلتها .

وكانت رشا قد تعجبت من فعلتها ولم تقدر على أن تكلمها. إلى أن توقفت خولة عن الضحك فجأة وخبأ صوتها وجعلت تسترجع أنفاسها بعد أن ذهب عنها الضحك. وحينها كان الحوزي الذي التقمها من الغابة قد اشتد به الغضب وشعت عيناه من سوء فعلتها. وأراد أن يعاقبها بالسوط لكنه لم يجرأ على أن يقدم على خطوة واحدة في حضور الفارس الأسود ودون إذنه أملاً في ألا يتذكر وجوده .

وحيثما ظن الجميع أن الفرسان سينقضون على الحوزي أو الفتاة التي كانت تضحك بسبب الإهانة التي تعرض لها أميرهم فإنّ الأخير قد رفع يده فجأة فمسح قناعه بهدوء وتحدث إلى أقرب رجاله بكلام غير مسموع ثم جذب لجام جابره وانطلق يكمل طريقه وكأن شيئاً لم يكن.

القصر الأبيض

كان وداعا شبحيا ذلك الذي ودعت به رشا صديقتها خولة بعينين دامعتين وهي تراها تقاد بعيدا على ظهر أحد الخيول الكبيرة قبل أن تعود فتعدل وقفتها على سطح المنصة الخشبية وتدعو لها بأن يطيب لها مسكنها أبدا في ذلك القصر الأبيض.

ومشت الخيول بخطوات ثقيلة تجر أذيالها عبر طرقات المدينة الحجرية وصوت الطقطقات يفرقع تحت كل حافر، كانت رؤوسا مطأطئة وكأن بها غما، وكان الفرسان يركبونها بصدور منفوخة كأنما يعودون من معركة رابحة، وجلست خولة على ظهر واحد منها تجمع ساقها في جهة واحدة وهي تطالع الفراغ بوجه شاحب، وكان يسير بجانب رأس الحصان الذي تركبه جندي متوسط القامة مدرع بلباس حربي تغطي رأسه خوذة حديدية وقد علق ذراعه بلجام الحصان حتى لا يفوته أو يتأخر، وعندما لاحت بوابة القصر أخيرا في الأعلى فقد كان هنالك حارسان يقفان أمامها سرعان ما اندفعا نحو بعضيهما فقاما بتفرقة صفحتين الباب الخشبيتان الكبيرتان عن بعضيهما، قبل أن يعود كل واحد منهما إلى مكانه منتصبا بجانب رمحه كما كان أول مرة.

مسحت خولة ماء عينيها وتحسست قلبها ثم أخذت نفسا عميقا من هواء الأشجار المنتشرة عند مدخل القصر وألقت ببصرها نحو أبراجه المرتفعة، بينما تدلف الخيول المتقدمة عبر البوابة إلى ساحة واسعة.

دلقت قافلة الفرسان إلى ساحة القصر، وكانت تملأها عن يمين وشمال جنتان من أشجار مثمرة تتدلى من أغصانها فواكه ملونة، ونزلت خولة من على ظهر الحصان بامتعاض بالغ ووقفت تحت ظل شجرة، فمد الفارس الذي رافقها يده أمامها مشيراً لها بأن تسير قبله، فما كان من خولة إلا أن تطلعت فيما حولها بحزن ثم أحكمت قبضتيها وراحت تسبقه عبر صف من الأحجار البيضاء التي راحت ترتفع في سلم طويل لأعلى. إلى أن ألفت بهما الأحجار عند باب مزخرفة بالذهب والفضة يقف عليها حارسان يطالعان الفراغ بعيون صلدة تنظر بهدوء من تحت خوذة حديدية .

استدارت خولة خلفها، وكان لها أن ترى شوارع المدينة وبيوتها الخفيضة والأشجار التي تطل برؤوسها الخضراء من ساحات المنازل والغابة التي تحيط بالمدينة بأكملها، وأفاقها من دهشتها أن صفحتي الباب أخذتا تتزحزحان من مكانيهما وراحتا تحدثان أزيزاً خفيفاً أيقظها، وظهرت من خلف الباب فتاتان كانتا تسحبان شديهما واستقبلتا خولة بود وقادتاها إلى الداخل.

وبقدر ما حاولت إخفاء دهشتها بروعة المكان فإنها لم تقدر، وراحت ساقاها تحملاها بتردد في ردهة القصر البديعة، وهي تدوس بثقل على بلاطات رخامية بيضاء كبيرة مرسومة عليها طيور بديعة وأزهار ونباتات متشعبة، وكان هنالك في وسط الردهة سلم عليه بساط أبيض يقود لطابق أعلى. ومدت خولة بصرها بعد ذلك

إلى لوحة كبيرة معلقة على الجدار المقابل، وكانت لفرسان يمتطون جيادهم يخوضون معركة وسط غابة، ثم قادتها عينها نحو السقف وكان مزينا بزخاريف وتماثيل بارزة لطيور وأحصنة. ثم صدح صوت فجأة من أعلى السلم.

- تعالي إلى هنا.

ورأت خولة امرأة تقف في أعلى السلم تراقبها بحزم وأبهة، ربما في الستين من عمرها. كما قدرت خولة من تجاعيد وجهها.

- ألا تسمعينني؟

أفاقت خولة من شرودها وراحت تصعد الأدراج نحوها، وقادتها المرأة العجوز جهة اليمين نحو صف من الغرف التي تحدها أبواب من الخشب الأحمر وفتحت لها باب إحداها ونظرت في عينيها مباشرة، وقالت لها بنبرة حادة:

- عليك أن تغيري الآن من مظهرك... اخلعي ما عليك وارتي ثيابا لاثقة، فلم تعودي في أرضك”.

لم يكن لدى خولة من طاقة لتجادلها في أمر الأرض كما فعلت مع رشا، كما أن العجوز بدت صعبة الطبع تحمل في فمها كلمات لاذعة لن يكون أسير عليها من إخراجها في أي لحظة، إن هي وجدت لذلك من سبب، خاصة مع جارية جديدة، ومن ثم فقد رأتها خولة تعود أدراجها فراحت تنزل الأدراج في وقار بالغ، كأنما ولدت لتمشي بتلك الطريقة، حيث يكون رأسها جابرا في مكانه وعيناها اللتان تحفهما التجاعيد لا تزيغان إلا عند الحاجة، وأخيرا اختفى معها شالها الحريري الذي ينزل من شعرها

المعقود على كتفيها في اخر درجات السلم وغابت في الردهة فتنهدت خولة عميقا وألقت نظرة فيما حولها ثم دلفت مغتاضة إلى الغرفة.

مالت شمس المغيب خلف الجبال عالية، ووقف مكانها القمر، جبال تغلفها الظلمة والوحشة، جاهنالك كعملاق يحني رأسه من التعب، فكأنما تدفع بظهرها شرور العالم عن هذه المدينة.

نقلت خولة نظرها تبحث عن ذلك الشيء الذي كان يحلق في الأعلى، ولا أثر، أسندت يديها على جدار الشرفة ومالت نحو الأمام أكثر، وأخذت تحلم، لكن السماء لم تتغير، لم تنطفئ شهابة واحدة، ولم تسمع صوت والدها، ولم تختفي الغابة، ولا سكت الأنين الذي كان يأتي من غرفة قريبة، بل صار يرتفع أكثر من ذي قبل أفسد نومها.

مدت عنقها لتسمع أكثر، وقد كان الصوت لا يشبه شيئا غير أنين رجل تُقطع أوصاله بصخرة حادة، صوتا يلفه الوجد، والغضب، وإن ذلك أخافها بقدر ما شجعها على فتح باب غرفتها والخروج منها.

وقفت ترفع يدها بتردد أمام باب سوداء مطلية بالفضة، تسترق السمع إلى ذلك الصوت وهي تكتم أنفاسها، لكنه توقف بعد ذلك فجأة. وحينها وضعت يدها بهدوء على الباب وأدنت سمعها، فكاد قلبها ينخلع من مكانه حينما سمعت صوتا يخاطبها من الداخل قائلاً:

- " غادري المكان حالا..."

وثبت خولة في مكانها من شدة الهلع، وسرت قشعريرة في جسدها حتى دخلت قلبها، ولم يكن منها إلا أنها تراجعت إلى الورااء خطوتين وهرولت إلى غرفتها عبر الرواق خائفة، أغلقت على نفسها وارتمت على السرير تبكي، غطت وجهها، لكن ذلك الأنين لم يكن قد توقف، ولقد كان بمقدورها أن تسمعه مجدداً.

عندما أفاقت خولة صباح اليوم التالي، كان رأسها ثقيلًا مثل صخرة، نظرت نحو الستارة طويلاً، ثم قامت عن السرير ومشت نحو النافذة، رأت بعض الفتيات يجلسن في الحديقة على كراسي رخامية ويتبادلن أطراف الحديث بمرح، وحينها طرقت أحدهم باب غرفتها.

- "هل أنت مستيقظة... يجدر بك أن تكوني كذلك. لقد تأخر الوقت كثيراً على أن تبقى فتاة شابة مثلك في فراشها".

قال الصوت ثم بدا أن صاحبه قد تراجعت عن الباب قليلاً، واستدارت خولة تنظر حولها، تأففت ما شاءت، هذبت مظهرها في المرأة قليلاً ثم خرجت إلى الفتاة فرافقتها نحو غرفة قريبة.

- "هذه غرفة الملابس..". قالت العجوز وهي تضع يدها على خصر خولة تدفعها أمامها: "اختاري منها ما يناسبك وضعيها في غرفتك، سأراك بعد نصف ساعة لتبدئي تعليمك".

دون تعنت، أخذت خولة تتلمس الفساتين المعلقة أمامها، تتحسس ملمسها الحريري وتثب عيناها لروعة ألوانها وأشكالها، وبشكل لا إرادي وجدت نفسها وقد أخذت تتناول إلى يدها ما أعجبها فتطرحه على ذراعها وتمشي خطوتين لتختار آخر. أمضت خولة باقي اليوم في سماع السيدة العجوز وهي تشرح لها مبادئ القصر وقوانينه التي يسير عليها، بينما تأخذها من ركن إلى آخر، من زاوية إلى أخرى، من المطبخ إلى القاعة الكبرى، ومن ديوان الأمير إلى الأبواب التي يحرم فتحها من غير إذن مسبق، ومن التعرف على زوايا القصر إلى آداب استقبال ضيوف الأمير وإعداد مائدة الطعام وتنظيف القصر والحفاظ عليه في أبهى صورة، وقد ختمت السيدة العجوز كلامها مساء اليوم وهي تخاطب خولة حين تركتها عند باب غرفتها قائلة:

- "أنتن زينة القصر، مهمتكن تقتصر على خدمته وتزيينه.. لا أكثر، لذا فإن كنت خائفة من أن..."

ونظرت نحو الغرفة ذات الباب السوداء المطلية بالفضة والتي تقع في أقصى الطابق بجانب الغرفة الرئيسية ذات الباب الواسعة المطلية بالذهب.

- "اتفهمين قصدي؟... ما تقدمه الخادمت لأسيادهن في العادة... ليس عليك أن تقلقي بشأن ذلك أبدا..."

لم تفهم خولة معنى الكلام الذي قالته العجوز، وأرادت أن تسألها عن ذلك الآن الذي يأتي من تلك الغرفة كل ليلة، مع أنها لم ترى رجلا يتجول في القصر منذ دخلته

أول مرة، إلا أنها لم تجرؤ على سؤالها عن ذلك أيضا، إنما كانت تكتفي بهز رأسها في كل مرة، فمضت العجوز قائلة:

- "من الآن فصاعدا سترافقين باقي الفتيات لتتعلمي منهن، قلدي ما يفعلنه، ولا تتحدثي عن أشياء لا ينبغي عليك التحدث عنها، قومي بعملك فقط، آه... قبل أن أنسى، أترين هذه الغرف؟"

نظرتو خولة يمنا ويسرة، إلى صف الغرف المتجاورة.

- "كلها فارغة.. أظنك لاحظت هذا، أليس كذلك؟ فمن النساء أنا وأنت فقط من نقيم في هذا الطابق"

هزت خولة رأسها للأسفل وأعلى:

- "أجل..."

وعادت العجوز بعينيها المتعبتين نحو الغرفة التي تقع على يمين الغرفة الرئيسية ذات الباب الواسعة.

- "حتى الآن لم أفهم لم اختارك.."

- "ماذا؟.."

- "لا عليك، اذهبي إلى النوم حالا ولا تتأخري، سوف تنزيلين رفقة بعض الفتيات إلى السوق غدا صباحا.."

غادرت العجوز إلى غرفتها وكانت هي الغرفة التي تقع على يسار الغرفة الكبيرة ذات الباب الواسعة، وكذلك دلفت خولة إلى غرفتها واتكأت بكوعيتها على الشرفة

تطالع الأشجار المحيطة بالقصر في الخارج، تأملت نجوم الليل المتلاثلة، والطيور السوداء التي كانت تحك أجسادها بمناقيرها فوق أغصان الأشجار بينما تلمع عيونها الفضية من خلف الظلمة، إلى أن وثبت فجأة أعداد هائلة من تلك الطيور صاعدة إلى السماء ترفرف بأجنحتها واختفت جميعها في العتمة، خيّل لخولة أن تلك الطيور قد التصقت بالسماء وصارت نجومًا تلمع حول القمر، بدا أن اغصان الأشجار قد خف وزنها، ولذلك فقد راحت تهتز كأن يد الليل تداعبها يمنة ويسرة، بينما تغني الريح بأصوات لم تكن خولة تقدر على فهمها.

حل الصباح أخيرًا. وجلست خولة عند المرأة وأسدلت شعرها الأسود خلف رأسها متنهدة، وكانت فتاة في انتظارها خارج غرفتها، ولما انتهت من تمشيط شعرها فإنها قامت ففتحت الباب وتبعته دون قول كلمة واحدة، فراحت تمشي ساهمة شاردة، تجر ذنب فستانها الأزرق، تنزل الأدراج العريضة نحو ردهة القصر الواسعة دون أن تنتبه إلى أن رجلا كان يصعد الأدراج نحوها حتى كادت تصطدم به لولا أنه تنحى عن طريقها بخفة بالغة.

ورفعت خولة بصرها نحوه متأسفة فإذ بالفارس المقنع الذي اشتراها من السوق بالأمس القريب يقف أمامها، وليس فيه شيء إلا وقد لفه السواد من كل جانب، وبوقفته تلك التي تنبئ بأنه ينتظر منها أن تقدم له اعتذارًا، ظنت أنها أوقعت نفسها في مشكلة، لكن لسانها خانها، وخانتها عينها، إلا كبريائها، فلم تجرؤ على قول

شيء يخلصها من ذلك الموقف، فقط عينا الفارس الرماديتان الجابرتان كانتا هما كل ما قدرت خولة على رؤيته في تلك اللحظة.

- "ألا ترين حولك.. ألا زلت نائمة؟..." قال الفارس مستهزءا.

لكنها لم تفهم ما قاله، حتى لم تسمعه أبدا، غير أنه كان بمقدورها الآن أن ترى عدة ثقوب صغيرة تخترق القناع الخشبي في موضع الفم والأنف لتمكّنه التنفس، ثقوب صغيرة جدا لا يمكن رؤيتها إلا من مقربة، ثم تماكنت نفسها أخيرا وقالت وقد لف الخوف نبرتها:

- "إنني أعتذر".

مشى الفارس بعيدا عنها لأعلى دون أن يضيف شيئا، وإن كان ذلك قد أراحها، فإنه أيضا أشعرها بشيء من الغيظ، فليست هي بالفتاة التي تحب أن يتم تجاهلها بتلك الطريقة، حتى وإن كان الذي تجاهلها هو فارس تنبئ هيئته الغريبة عن شدة بأسه، وظلت جامدة تلوك غيظها في صدرها، وعندما تماكنت نفسها ونظرت إلى مرافقتها، فإنها وجدتها تنظر إليها غير مصدقة، فكأنما ترى ذنبا يرتكب أمامها لأول مرة، بفاهاها الفاجر، وعيناها المتباعدتان، ظنت خولة حين رأتها تنظر إليها بتلك الطريقة أنها إنما قد نجت من ورطة بالغة، وأوشكت أن تسألها عن هوية الفارس إلا أن السيدة العجوز ظهرت فجأة في الأسفل وسط الردهة فقالت الفتاة بعجل:

- "هيا لننزل بسرعة.. إن السيدة نجلاء تطالعنا".

وبهذا عرفت خولة اسم العجوز لأول مرة.

الآن عبر أزقة المدينة البيضاء رافق السيدة نجلاء والفتيات عدد من الجنود إلى سوق المدينة، فكانوا يرافقونهن للحراسة فيسيرون أينما تسرن ويتوقفون أينما تتوقفن.

وفي وقت كانت الفتيات منهنمكات في شراء الحاجيات والتجوال هنا هناك يتفقدن الخضار والفاكهة ويتلمسن بأيديهن الناعمة قطع الحرير المعلقة، ووسط كل ذلك الهرج والمرج، والناس التي تغلي دون توقف، ظلت خولة تسترق السمع من حولها كلما سمعت حديثا يدور حول أمير المدينة، فكانت كلما تأملت جماعة من الناس إلا ووجدتهم يرمقون الجنود المرافقين بنظرات ذات معنى، ثم لا يتوانون عن الالتفات نحو بعضهم البعض ووصف الأمير بأبشع الصفات وأقبحها، أو حتى شتمه في أحيان أخرى، ودعت إحدى الفتيات خولة لما رأتها تقف وسط الطريق شاردة لأن تتبعها ولا تتخلف عنها.

انتهت الفتيات من التبضع فعدن يحملن ما اشترينه نحو الجنود فمشين خلفهم بنفس الترتيب الذي دخلوا به السوق أول مرة، وفي أثناء الطريق وكانت خولة تنظر إلى السماء تراقب ذلك الطائر الكبير سألتها الفتاة التي رافقتها قائلة:

- "أتعرفين لم كل هذا؟".

نظرت خولة إلى الحاجيات بين يديها لوهلة ثم ردت بحيرة:

- "لا.."

- " هو للأمير أكثم، أمير أرض الرمال. .."

- "قلت من؟ وأمير ماذا؟".

واتسع ثغر الفتاة باسمته:

- "الأمير أكثم، هو صديق الأمير جابر، في الحقيقة هو أعز أصدقائه. ..."

بروح منهكة، وعقل متعب، سألت خولة دون أن تظهر للفتاة مدى استيائها من كل

هذا، قالت بصوت هند مؤدب:

- "ومن هو الأمير جابر هذا أيضا؟".

واستغربت الفتاة الأمر وقالت:

- "أمير هذه المدينة، أمير أرض الشجر، أروع الأمراء جميعا... بالمناسبة، لم تخبريني

من أي أرض أنت؟".

ولم تجبها خولة وضلت صامته لشوط كبير من الطريق حتى ظهرت بوابة القصر

وحينها قالت تسألها:

- "قلت أن أمير هذه الأرض هو أروع الأمراء جميعا!... لكن الناس في السوق لم

يكونوا يتحدثون عنه بهذه الطريقة".

وردت الفتاة قائلة:

- "أجل... ذلك رأيهم، لكن رأيي مختلف... لست أنا فقط بل كل شخص عاش بقربه"

م صممت لبرهة وأردفت " الأمير جابر يختلف تماما عما يقوله الناس، صحيح أنه بليد

الطباع وحاد في التعامل... لكن لديه أسبابه... ولا أصدق أبدا بأنه شخص سيء..."

ولا يمكنني حتى أن أتخيل بأن شخصا مثله قد يقتل والديه لينفرد بحكم المدينة، ولا أن يتخلص من قائد جيشه فقط مخافة أن ينقلب عليه ويأخذ منه الإمارة!... لا، لم ولن أصدق هذا.”...

ليتنني لم أسأل، حدثت خولة نفسها بندم، فلم تدري أن سؤالها ذلك عن شخص الأمير سوف يجلب لها سيلا من الأسئلة الجديدة، حتى لم تفهم كيف نسيت نفسها وذهبت تسأل سؤالاً كهذا، عن شخص لم تره حتى، ولا تزال في شك من وجوده، رفعت رأسها بعد ذلك وكانت البوابة الكبيرة تفتح أمامهم.

بهدهوء بالغ، وبخوف يتنامى بعد كل خطوة، تحركت قدمان حافيتان على طول الرواق حتى سكتنا أمام باب الغرفة، كان شدقها مفتوحا، والنور ينضح منه خافتا، وبيننا تهتز العينان بخوف وترقب امتدت اليد نحو الباب ودفعتها إلى الداخل، والآن لم يكن لتلكما القدمان إلا أن تتوقفا وسط الغرفة وتسكنا بلا حركة، ولم يكن لتلكما العينان الجميلتان إلا أن تترشقا في النظر، لقد وقفت خولة بكامل دهشتها وتردها تتأمل الغرفة التي لم تبدو ولم تقترب حتى من الشيء الذي رسمته في مخيلتها، إذ أن لها جدران أربعة ليس عليها لون أو زخرفة، وسرير مزدوج عليه لحاف حريري ووسادة واحدة، وبساط ناعم يفترش الأرضية، نظرت -على ضوء القمر المنبعث من خلف الستارة المقابلة - نحو صندوق غريب يقبع قرب السرير وأوشكت أن تسير نحوه لشدة ما أثار انتباهها، لكنها سمعت صوتا غريبا يشبه الحشرة راح يأتي من خلف الستارة فمشت نحوها ومدت يدها، ولم يكن هنالك سوى غراب ذو جبين أبيض كان يقف على

جدار الشرفة فالتفت نحوها وأمال رأسه يطالعها بعينيه الصغيرتين، لكن خولة صرخت بقوة، وأجفل جسدها، أغمضت عينيها وتمنت لو أن الأرض تنفتح من تحت قدميها في تلك اللحظة، ذلك أن يدا وقعت على كتفها فقال صاحبها في نفس اللحظة:

- "ما الذي تفعلينه هنا؟"

واستدارت خولة ونظرت إلى السيدة نجلاء بخجل وقالت معذرة:

- "كا... لقد كانت باب الغرفة مفتوحة و..."

ولم تقدر على قول أكثر من ذلك، إذ أنها رأت أن المسافة بين حاجبي السيدة نجلاء كانت تضيق بعد كل حرف كانت تنطق به:

- "كنت لأعاقبك بشدة لولا أن الأمير قد..."

- "من؟"

- "ماذا، ألم تنتبهي لوجوده أيضا؟"

- "وهل كان موجودا هنا؟ أقسم أن الغرفة كانت خالية؟"

- "هذه غرفته."

- "أعلم، لكنني متأكدة من أنه لم يأتي أي أحد غيرك إلى هنا.!"

أغمضت السيدة نجلاء عينيها في غضب، ثم تنهدت عميقا وقالت:

- "إلى غرفتك حالا... هيا، انصرفي..."

وعلى هذا، هرولت خولة نحو غرفتها مذعورة، بعدما اعتذرت بشكل لطيف إلى السيدة، ومن ثم فقد قضت الساعة التالية واقفة عند شرفة غرفتها تفكر وتطالع السماء المظلمة، فكرت طويلا في ما قالته السيدة نجلاء، لكن لم تقدر على تصديقها، فكيف إن كان الأمير قد دخل الغرفة خلفها، فكيف به أنه لم يتحدث إليها، لم يسألها عما كانت تفعله هناك، ولم ينهرها، لكنها لم تشعر بدخول السيدة نجلاء أيضا، فكرت حتى تعب دماغها، ثم أوت إلى فراشها وتنهدت طويلا على وسانها قبل أن يأخذها النعاس إلى غياهبه.

ضيف

بعد مرور يوم واحد، كانت الاستعدادات لاستقبال أمير أرمال قد انتهت، وكان حينما تهافت الناس أمامه في حشود ليروه عبر الشارع الكبير في المدينة، قد جاء يركب ظهر جابره في خيلاء عظيمة، فلم ينظر يمنة ولا يسرة، بل كان لا يكف عن التحديق إلى قمة القصر التي تظهر من خلف البيوت العالية تارة وإلى الطائر العظيم المحلق فوق سماء المدينة تارة أخرى.

الآن في ساحة القصر، وتحت ظلال الأشجار ذات الظلال الوارفة، ترجل أمير الرمال وجنوده الثمانية عن أحصنتهم، ووقفوا يطالعون المكان حولهم يتأملون جماله، جنتان عن يمين وشمال وهم قد أتوا من أرض جرداء تكاد لا تنبت زرعاً، إنها أرض الرمال والجبال والحجارة، حيث كل شيء فيها يغلب عليه الصمت والوحشة، ترك الأمير لجام حصانه واستدار بكامل هيئته نحو باب القصر المشرعة وقد انسدل من على ظهره إزار ذهبي يظهر مدى الزهو الذي يغلف قلبه، نظر تارة بعينين نصف مغلقتين ثم تحرك يتبع فتاتين جائتا في زينتهما لتقوداه نحو الداخل، ومشى والسيف يتدلى في خصره حتى حطت قدماه وسط ردهة القصر الواسعة، هناك وفي منظر رهيب تجمع كثير من الوزراء وبعض الخادמות في صفين عن يمين وشمال لاستقباله استقبالا يليق بقدره، ولم يدع أمير أرض الشجر زائره لينتظر كثيرا حتى ظهر ينزل الأدراج وتقدم نحوه فتعانقا طويلا وتبادلا بعض الكلام ثم دعاه إلى قاعة الضيوف مباشرة.

نظر الوزراء ذوا الوجوه المجعدة والعيون الذابلة والجلود الشاحبة إلى بعضهم البعض نظرات ذات معنى ثم تفرقوا مثل حبات العقد المتساقطة ساخطين على ما حدث، ونظرت الفتيات أيضا إلى بعضهن البعض وكن في زينتهن تشبهن الآلئ الملونة في صدر قميص أبيض، وفي تلك اللحظة أيضا، وقفت السيدة نجلاء في أعلى السلم ونظرت إليهن بصرامة فتفرقن يمنة ويسرة، وهكذا انتهت مراسم الاستقبال بسرعة.

في الأعلى كانت خولة تجلس في غرفتها تفكر فيما يحدث حتى أتاها طارق فهولت لتفتح الباب وكانت تلك الفتاة مجددا فنظرت إليها بعينان يسكنهما القلق وقالت لها.

- "هل أنت مستعدة؟"

- "مستعدة لماذا؟"

- "السيدة نجلاء طلبت مني أن."

- "لكن هل انتهت مراسم الاستقبال بهذه السرعة؟"

- "أجل... إنها يعرفان بعضهما جيدا كما أنهما لا يحبان التصنع، ذلك هو السبب... حسنا كنت سأخبرك بأن السيدة نجلاء طلبت مني إخبارك بأن تنزلي لخدمة ضيف سيدنا".

وهنا أجفلت خولة من رأسها حتى أسفل قدميها ثم نظرت إلى نفسها من صدرها نزولا حتى الأسفل:

- "لكن لماذا أنا... إنني حتى لا أعرف ما ينبغي علي فعله."

وصبغت الفتاة على وجهها ابتسامة مصطنعة.

- "لا تقلقي.. سوف أخبرك بما ينبغي عليك فعله أثناء نزولنا، لكن عليك أولاً أن تغيري قليلاً من شكلك".

بعد لحظات، خرجت خولة في كامل زينتها، كأميرة حقيقية، حتى أن الفتاة نفسها

وقف تنظر إليها بدهشة، ووضعت يدها على فمها بعد ذلك:

- "ما بك؟..." قالت خولة.

وردت الفتاة مبتسمة.

- "لا... لا شيء، هيا بنا".

نزلت الفتاتان الأدراج وتوجهتا مباشرة نحو المطبخ، فالتقتي بثلاث فتيات كن

تعدن لتوهن من قاعة الضيوف بسينيات فارغة، ووجدتا السيدة نجلاء في انتظارهما

لما استدارت نحوهما وكان أول ما وقعت عليه عينها الواسعتان هو مظهر خولة،

فتبسمت هي الأخرى... كما أن جميع الفتيات اللواتي كن في المطبخ قد نظرن إلى

خولة بنظرات تملؤها الدهشة، وتلكأت خولة لما أرادت أن تسأل عما يحدث، أما

السيدة نجلاء فحملت سينية كن عليها شيء من الشراب ومشت بها نحوها وقالت

تخاطبها:

- "تعالى معي".

الآن وقد وقفت المرأتان لوحدهما في الردهة، تأملت السيدة نجلاء فستان خولة ذا اللون الأزرق السماوي ثم تأملت وجهها وقرطبيها الذهبيان اللذان يتدليان من أذنيها، وكان لها أن تفهم جيدا لماذا أوصى الأمير على جعلها تقوم بهذه المهمة شخصيا، فناولتها السيئنة بهدوء واعتدلت تقول في وقتها:

- " هذه أول مهمة رسمية تقومين بها يا ابنتي... تذكرني فقط أن تحملها بيد واحدة عندما تدلفين إلى الداخل، ناوليهما الشراب وعودي مباشرة..."

- " هل لي أن؟..."

- " ماذا؟..."

جاهدت خولة نفسها لتسأل المرأة أن تعفيها من هذا الأمر، لكنها لم تقدر، وغلبها فضولها لأن ترى أمير أرض الشجر الذي كان الناس يحدثون عنه طوال الوقت منذ قدومها إلى هنا. غير أن السيدة نجلاء كانت بالفعل قد فهمت ما أرادت خولة قوله، إذ كان بمقدورها - من تلك المسافة - أن ترى دمعا يوشك أن يتجمع في عيني الفتاة المسكينة:

- " حقا لا أدري ما الذي يحدث معك، كل الفتيات يتمنين دخول القصر ولو لمرة واحدة، وها أنت قد حصلت على هذه الفرصة... لكنك تبدين خائفة ومتردة، لكن على أي حال ربما هذا سيقدر مصيرك وقد يرفع شأنك هنا أيضا..."

- "مصيري؟... ماذا تعنين يا سيدتي؟..."

في لمح البصر، سقطت نظرات خولة لأسفل، وحدثت نفسها، سيدتي!!، ها أنا الآن أناديها سيدتي!!، ما الذي يحدث لي؟.

وأيقظها صوت السيدة:

- "هيا يا خولة، لا ينبغي أن تتأخري ولا تنسي أن تناولي الشراب إلى أمير أرض الرمال فقط".

ومشت خولة بسخط وضيق بالغ، مشت حتى باب القاعة التي يتواجد الأميران بداخلها ووقفت ساكنة، اغمضت عينيها مطولا وتنهدت، ثم أنزلت يدها اليمنى عن السينية، وطرقت باب القاعة طرفتين وأمسكت المقبض.

وعلى غير عادة الفتيات الأخريات التي كن يخفضن رؤوسهن عندما يدلفن إلى الداخل، وقفت خولة خلف الباب بخطوتين وأخذت تنظر إلى أمير أرض الشجر بدهشة عظيمة، تماما إلى ذلك الفارس ذو الوجه الخشبي الأسود دون أن ترمش عيناها لحظة، لقد كان هو منذ البداية لكنها لم تنتبه لذلك.

كانت الأطعمة فوق المائدة على حالها، وكان الأميران في حديثهما، لا يأبهان لمن دخل أو خرج، إذ لم يتوقفا عن حديثهما ولو للحظة واحدة عندما دخلت خولة، وإن كان شيء قد ساعدها على الوقوف هناك كل ذلك الوقت، فهو عدم نظر أمير الغابة إليها، فكرت في أنه لو التفت نحوها فسوف يكون الأمر مربكا جدا، لكنه كان منشغلا بضيفه الذي جلس يضع ساقا على أخرى في الجهة المقابلة ولم يهتم لأمرها، فتأملته مليا وهي تتذكر واقعة السوق وواقعة الدرج حينما كادت تصطدم به، ثم إنها

عندما عادت إلى رشدها وقررت أن تشرع في تنفيذ مهمتها والخروج بأقصى سرعة ممكنة فقد ازدرت ريقها ومن شدة ارتباكها نسيت ما أوصتها به السيدة نجلاء ف راحت تسير نحو الأمير المقنع وقربت إليه كأسا بيدها فسكن جسده وصمت عن الحديث فجأة ثم أمسك معصمها للحظة دون أن ينظر نحوها وحينما أدركت الخطأ الذي وقعت فيه فقد خفق قلبها بشدة وشعرت بخوف لا ذع لأن قبضة الأمير كانت تضيق حول معصمها ثم في لحظة رأت وجهه الخشبي يدور نحوها في غرابة ولم تشعر بعد ذلك إلا وقد ضرب الأمير السينية ضربة ألقته من على يدها بعيدا ثم وثب من مكانه مبتعدا في خفة بالغة ووقف غير بعيد عنها مثل الوشق الخائف.

- "احذريا أكثر... إنها الجاسوسة".

صاح الأمير جابريقول بنبرة شديدة بينا لا تكاد عيناه تزيغان عن خولة، وهنا وقف الأمير أكثر مبتهجا ووثب هو الأخير غير بعيد عن خولة وصاح بدوره بلهجة مفتتسة: - "هذا بديع، رائع... رائع حقا، من كان يتصور؟".

هذا وكانت خولة توشك أن تفقد وعيها من شدة الخوف وهي ترى ذالكما الرجلان يحيطان بها يحاصرانها يمنة ويسرة وهما يشهران سلاحيهما في وجهها ويطالعانها بنظرات حذرة، بينا هي قد جمعت يديها إلى صدرها في استسلام وجهل عظيمين لما يحدث.

الآن فتحت باب القاعة فدلقت السيدة نجلاء بعدما سمعت تلك الجلبة فلم تكذ تصدق ما تراه حتى صاح فيها الأمير جابري قائلا:

- "استدعي مقاتلي النخبة حالا، هيا..."

وأصاب السيدة نجلاء ارتباك شديد وهي تطالع عيني خولة اللتان كان يغرقهما الدمع فرقت لحالها ولم تجرأ على السؤال عما يحدث لأن الأمير عاد يصيح فيها مرة أخرى منفعلًا:

- "هيا..."

وهرولت السيدة نجلاء خارج القاعة امتثالا لذلك.

وهكذا ظهر أمل صغير أمام خولة بظهور السيدة نجلاء ثم اختفى مرة أخرى وكانت تأمل منها أن تقول شيئًا يساعدها، لكنها رأتها تغادر المكان دون أن تقوم بأي شيء لأجلها، فتمنت لو أنها تموت في هذه اللحظة وتطلع روحها.

بقيت خولة مرة أخرى لوحدها في مواجهتهما، خولة الفتاة الرقيقة، التي أتت من عالم آخر، والتي حزنت وبكت خلال الأيام القليلة الماضية مالم تحزنه وما لم تبكه طوال حياتها، ها هي الآن تجد نفسها موضع الفريسة الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة، في مواجهة رجلان قويان يحاصرانها بنظرات مفترسة، وقفت بكل الضعف والخوف الذي اعترأها، والحيرة التي نبشت صدرها، ظلت عيناها تدمعان وشحب لون وجهها أكثر بعد ذلك عندما دلف إلى الغرفة اثني عشرة رجلا يرتدون بدلات حربية فأحاطوا بها من كل جانب وهو يشهرون سيوفهم نحوها، الآن وبينما تلتفت حول نفسها لتراهم، كان بمقدورها أن تسمع ضجيج أقدامهم الحذرة، وكان بمقدورها أيضا أن ترى عيونهم تقدح شررا، وسيوفهم تلمع لهفة للانقضاض عليها وتمزيقها، لكن

في اللحظة التالية، لم تعد تقدر حتى على سماع ما قاله أميرهم، لقد كان يخبرهم بشيء ما، كان يصرخ فيهم بأعلى صوته:

- "كونوا حذرين في التعامل معها... قد تكون خطيرة جدا، إن بمقدورها استعمال السحر أيضا".

لكن الآن لم يكن بمقدور خولة أن تشعر بالخوف أكثر مما شعرت به، فلقد نفذت طاقتها، وارتعدت فرائسها بما يكفي، وراحت عيناها تنطفئان تدريجيا، وبيننا يميل رأسها نحو الأرض كان بمقورها أن ترى قناع الأمير جابر وهو يختلط بالصمت والظلام الذي دلف إلى الغرفة.

أغلال

تق...تق...تق...، هكذا ولساعات طويلة ظلت خولة تسمع أصوات ارتطام قطرات الماء بالأرضية الرطبة، دون توقف، ودون أن تقدر على رؤيتها، ومع كل تقفئة، كانت حدة عطشها تجابر أكثر، فتلجأ لتبليل شفيتها المتيبستين بريق لسانها عبر تمريره عليهما يمنا ويسرة، كان الألم الناتج عن الأرضية الباردة يتسلل من قدميها الحافيتان المتسختان صعودا عبر جسمها إلى أعلى نقطة في رأسها رأسها، فيما يهبط ألم آخر يماثله بسبب الأصفاد المعدنية التي عقدت حول معصمها نزولا حتى أصابع قدميها، وألم ثالث تمثل في جروح طويلة شقت ظهرها من ضربات السياط المتكررة، وآخر رابع -أفقدتها في مرحلة ما - المقدرة على الإحساس بأي من تلك الآلام الثلاثة الأولى، لقد كان هنالك في كل أصبع من أصابع يديها التي غطتها قشور من الدماء الجافة، إبرة مغروزة بين لحم الأصبع وظفره، وفي لحظة حاولت أن تفتح عينيها للمرأة الألف، لكن دون جدوى.

لم تكن تعرف في أي ساعة من النهار هي، ولا في أي يوم من أيام الأسبوع غير أن شيئا واحدا كانت تعرفه وتؤمن به، وهو أنها لم تفعل شيئا لتستحق أن يفعل بها كل هذا.

عندما أفاقت في المرة التالية راحت تسمع وقع أقدام تتقدم نحوها، وفتحت عينيها بصعوبة فرأت أقداما على الضوء المتسلل عبر باب القبو المفتوحة، واقترب منها

رجلان وأخذاً يينزعان الإبر من أصابع يديها واحدة بعد الأخرى دون أن تشعر بأي ألم، ثم فكا الأصفاد وجراها نحو الخارج بينما تتسحب قدماها على الأرضية الباردة وما أن تلتطخ وجهها بضوء النهار حتى غابت عن وعيها مرة أخرى.

ومر وقت طويل جدا حتى أحست خولة بالهواء يتسرب إلى حلقها، فتحت عينيها بصعوبة ونظرت بشكل مستقيم وآلي تماما إلى المكان الذي لم يكن بمقدورها أن تنظر لغيره، كان هنالك في الأعلى سقف من الطين والقصب تغطيه طبقة من الدخان الأسود، وتسير عليه سحلية رطبة سرعان ما اختبأت في شق صغير وغابت بين الفجوات الصغيرة.

بعد عدة دقائق راحت تتحامل على نفسها نفسها فرفعت يدها فوق عينيها بصعوبة فرأتها مضمدة بقطعة قماش بيضاء جافة ثم أنزلتها بهدوء وحاولت أن ترفع جسدها عن الفراش لكن رأسها وصدرها كانا ثقيلين مثل جبل وتلة، وفي تلك اللحظة نادتها امرأة عجوز وهي تدلف عبر باب الكوخ وهي تحمل قدر ماء ثم أنزلته على موقد يقبع في الزاوية وقالت بينما تنظر إليها بعينين تأسفان عليها:

- "لا تتعبي نفسك يا ابنتي ولا تحاولي النهوض أبدا، إن هذا من شأنه أن يطيل أمد شفائك..."

وأمالت خولة رأسها نحو العجوز لثراها، ولمحت من بين ضباب عينيها وجهها لطيفا لعجوز قصيرة الهيئة لها عيانان تبدوان مغلقتان تماما وظلت تراقبها لدقيقة كاملة بينما تتجول في أرجاء الغرفة قبل أن تغلبها عيناها ثم حينما فتحتها بعد ذلك رأت العجوز

تقلب ملعقة خشبية بداخل القدر التي شبت تحتها نار هادئة، كانت ترتدي ثوبا من القماش الأخضر وملحفة رقيقة، وتغطي رأسها بقطعة قماش ملونة لتخفي شعرها الرمادي الذي تسللت منه بضعة أذيال صغيرة تحت أذنيها، وهنا بللت خولة شفيتها على مضمض وبصوت ناعس قالت بصعوبة:

- "أين أنا؟... ومن أنت؟".

والتفتت العجوز نحوها وهي تحمل صحنًا خزفيا يفيض منه حساء دافئ بين يديها الجافتين وتقتم إليها حتى جلست عند رأسها وجعلت تحفر منه بملعقة خشبية صغيرة وتدنيها إلى فمها:

- "الآن أنت لست في حاجة لمعرفة كل هذه الأشياء يا ابنتي، وأنا لست لي حاجة في إخبارك أيضا... ما يهمنا الآن هو أن تستعيدي عافيتك، حينها أنت تقفين على قدميك، وأنا أكون قد نفذت وصية الأمير جابر".

ولهذه الكلمة الأخيرة، تملكت خولة رغبة شديدة في الموت، رفضت أن تفتح فمها في البداية، لكن بعد ذلك ترجتها العجوز قليلا، ووجدت نفسها تبتلع شيئا دافئا حلو المذاق بينما تنساب دموع حارة من عينيها المغمضتين على وجنتيها وتسقط على وسادتها.

- "تناوليه يا ابنتي، أعرف أن أيامك القادمة ستكون جميلة جدا، أنا أعرف هذا... أنت لا ينبغي عليك إلا أن تعيشي أياما جميلة مثلك تماما، مثل عينيك هاتين...".

مضت تسعة أيام منذ حلت خولة ضيفة على العجوز في كوخها المتواضع، وخلال الأيام الأخيرة، كانت قد تحسنت حالتها بحيث عادت تقدر على رفع جسدها في الفراش المصنوع من القش وصوف الخراف صباحا وتسند ظهرها إلى الجدار وتقضي وقتها في مراقبة العجوز وهي تقوم على أشغال الكوخ حينما تطبخ وتنظف وتكنس الأرضية مثل نحلة ثقيلة، وتدور حول نفسها بينما تقول أشياء عابرة، وحدث بينهما تعارف بحيث صار للواحدة منهما أن تبتسم لكلام الأخرى إن كان من داع لذلك.

وفي مساء هذا اليوم جلست المرأتان حول موقد الحطب تتبادلان أطراف الحديث بينما يتدفق الظلام في الخارج، كانت كل واحد منهما تلتحف لحافا صوفيا تغطي به ظهرها وتجمع قدميها إلى بعضهما، وكان بيد العجوز عصى قصيرة انشغلت بها في تذكية النار بينما تسعل سعالا خفيفا، نظرت إلى خولة ورأتها تتأمل يديها المعصوبتان بلفائف القماش البيضاء الناعمة:

- "أما زالت تؤلمك؟"

- "قليلًا..."

- "جيد... حسنا يا ابنتي، أين كنا البارحة... سأكتفي بتخيل ما أخبرني به عن عالمك... أو عالمي أيضا إن صح ما أقوله، بما أنه يقع وسط عالمك... والآن أنصتي إلي جيدا، سأخبرك بأشياء تكاد تكون من شدة ندرة من يعرفها، أسرارا مكتومة، فلم يعد أبناء اليوم يعرفون عنها غير خيالات وقصص قصيرة عابرة، ولم يعودوا يبالون

بهذا القفص الكبير الذي نعيش بداخله، أو حتى يعرفون أنه قفص... لكن أنا من القلائل اللذين حكى لهم أجدادهم عن كيف كان العالم واسعا جدا، بل لا يحده شيء، ليس له أطراف أو متاهات، وفيه بلدان كثيرة، وشعوب ولغات مختلفة، يقال أن جدي الأكبر كان يحب السفر كثيرا، وقضى شبابه على هذا، الشام، العراق، مصر، و.”

- ” لكنها لا تزال موجودة؟”.

- ” هذا ما تقولينه”.

- ”أقول الحقيقة...”.

- ” في عالمنا هذا لم يعد أحد يعرف أراضي بهذا الاسم... ” قالت العجوز ذلك ثم سكتت للحظة وعادت تغمغم وعيناها مثبتتان على العصي: ” قبل زمن طويل، كان أسلافنا يعيشون على هذه الأرض في مناطق متفرقة، الكثير من القبائل، والكثير من المشاكل أيضا، كانوا يتداولون السحر كثيرا فيما بينهم، لم يكذبوا بيت من ساحر، ثم انفرد به تدريجيا كبار القوم دون العامة، فقتلوا السحرة الضعاف وقتلوا كل من سولت له نفسه أن يتعلمه... في فترة ما، سادت فيهم طبائع وحشية، بشكل غريب جدا، صاروا ينهبون ويقتلون الناس ويشنون الغارات ليلا ونهارا ويقطعون الطرق ويسلبون القوافل دون توقف، حتى انتشرت الفوضى وانتقلت بين العامة، لأنهم لم يجدوا ما يقتاتون به غير أن يسرقوا بعضهم، فحدثت الاعتداءات وانتقلت خارج القبيلة الواحدة وثار العداء بين القبائل، وكثرت الدماء والمفاسد والمظالم، وبسبب ذلك صار احتمال أن يموت الرجل حينما يخرج من بيته دون أن يحمل سيفا، احتمالا قويا جدا،

كما كان احتمال أن يعود فيجد زوجته ممددة على الأرض فوق دماؤها قائما أيضا،
الذين كانوا لا يتعرضون للأذى هم السحرة فقط...”

- ”السحرة.“!!

- ”نعم، السحرة... هذا العالم مبني على السحر يا ابنتي، انتظري... في إحدى القبائل الكبرى، كان هناك ساحر قوي جدا، هو الآن يعرف بالساحر الأكبر (سيمر).“
- ”قلت أن هذا كان منذ مئات السنين فهل لا يزال حيا؟“

- ”نعم، وربما لا... لا أحد يعرف الحقيقة، لكن تناقلت الأجيال أنه عاش فترة طويلة جدا، ثم إن أحدا لم يقل بوفاته، كان هذا الساحر مختلفا، له هدف آخر غير السرقة والنهب والاعتداء وزيادة القوة من أجل أطماعه الخاصة، لقد أفنى أعواما من عمره يجمع علوم السحر القوية في كتاب واحد، وعندما نجح في ذلك أخيرا، طاف رفقة تلميذه المعروف الآن بالساحر الأصغر (أزار) في أرجاء القبائل كلها وأخذ يقتلان السحرة الواحد تلو الآخر، حتى لم يعد في الأرض ممن يعرف السحر وعلومه إلا قلة قليلة... وعندما خلا القبائل من شرور السحرة الآخرين ذهب إلى قمة جبل كبير وبقي هناك لفترة طويلة، حاول البعض أن يبحث عنهما لكن لم يقدر أي أحد على اختراق الغابة المحيطة بالجبل، كل من كانت تسول له نفسه الدخول إليها، كان ينتهي به الأمر إلى أن يتوه فيها إلى الأبد أو أن تلتهمه الحيوانات المفترسة... غاب الساحران لأعوام طويلة، حتى ظن الناس أنهما ماتا أيضا، وأن السحر قد اختفى بلا رجعة، لكن من جهة أخرى، لم يكن الناس قد توقفوا عن الاعتداء على بعضهم،

فكأن الأمر بات يسري في دمائهم، أبا عن جد... ما اتضح بعدها، هو أن الساحران وخلال غيبتهما كانا يخططان لفعل شيء ما، شيء عظيم جدا، فلقد عادا للظهور مرة أخرى...”

في البداية كانت خولة تغالب الناس لتصغي لحديث المرأة، لكن بعدما أصبح الحديث شيئا أخذت تنصت بكل جوارحها وتأخذ تتفاعل بوجهها مع كل حدث، حتى أنها عدلت جلستها لما وصلت العجوز إلى هذه المرحلة، وجعلت تسمعها بانتباه أكثر، ومضت العجوز قائلة:

- ”الذي حدث حينها، حسب ما حكاه لي جدي هو أنه وفي مساء ذلك اليوم، أعني اليوم الذي عاد فيه السحر إلى الظهور مرة أخرى... رأيت بعض القبائل القريبة من الغابة ضوءا ساطعا يخرج من قمة الجبل الذي قيل أنهما صعدا إليه وراح يخترق السماء حتى شق السحب، ثم سُمع دوي رعد قوي جدا أصمّ آذانهم، وانفجر بعدها سحر عظيم فوق الجبل وامتد وانتشر كالريح الساطع في كل القبائل والقرى حتى بلغ أطراف الأرض... نزل الساحران بعدها من الجبل وأخذا يجران الأرض لينفذا ما كانا يخططان لفعله خلال تلك السنوات الطويلة فجمعا كل القبائل وقسماها إلى خمسة مناطق مختلفة، وعينا لكل منطقة أميرا يحكمها ومداه بقوة وقدرات غريبة تفوق مقدرات البشر الطبيعية.”

وقاطعتها قولة قائلة:

- " وماذا عن ذلك الطائر الغريب الذي يحلق فوق المدينة، هل هو من فعلهما أيضا؟".

وأومأت العجوز برأسها:

- " حينما قسما الأراضي ووضعنا عليها أمراء، وضعنا على رأس كل أرض من الأراضي الخمسة وحشا يحرسها، حتى لا تعتدي أرض على أخرى، ولا يعتدي أبناء الأرض الواحدة على بعضهم... ترين هذا الطائر الكبير الذي يحلق فوق رؤوسنا، إنه غراب أرض الشجر، يستطيع رؤية الحشرات الصغيرة وهي تتحرك في زوايا الأزقة، ويستطيع أن يرى الناس وأن يميزهم وأن يفهم تصرفاتهم لذلك لن تسمعي أبدا أن شخصا جاء يشتكي إلى الأمير عن جريمة قتل أو ظلم أو سرقة... الطائر وحده يستطيع رؤيتهم، ويستطيع أيضا معاقبتهم، بالقتل مباشرة... بهذا فقط حل السلام في هذا العالم، لزمنا طويل جدا، لكن في السنوات القليلة الماضية، عادت الانتهاكات إلى الظهور مجددا في القرى المنتشرة هنا وهناك حول الأراضي الخمسة، وخاصة تلك التي تقع قريبا من أرض الشجر، بات أهلها يقتلون فجأة، من أطراف مجهولة، وكلما كثر القتل في قرية، تأتي الريح وتأخذها بالكامل".

- " قلت ريح؟".

- " ريح محملة بالموت... لا يهم من القاتل، ما يهم هو المكان الذي يحدث فيه القتل، تأتي الريح فتحول الناس إلى تماثيل رملية، ثم تسقطهم في أماكنهم وتذهب".

وانتفضت خولة عند هذا قائلة:

- " رأيت في حلمي شيئاً كهذا، في الليلة التي سبقت قدومي إلى هنا، رأيت نفسي أمشي وسط قرية في غابة، وكان الناس قد تحولوا جميعاً إلى تماثيل كما وصفتهم تماماً، وعندما لمست أحدها... تحطم تماماً عند قدمي... "

- " أصدق كل ما تقولينه... إنني أصدق كل ما تقولينه يا ابنتي.. "

رأت خولة كيف أن العجوز بدت ساهمة في كلماتها الأخيرة، وبدا وكأن العصى ستفلت من بين أصابع يدها:

- " هل تشعرين بالتعب؟ "

- " لا، لا. " ردت العجوز وهي تبعد حاجبيها عن بعضهما: " تعرفين أنني لا أنام في وقت مبكر. "

- " حسناً، قلت أن الساحران قاما بجمع القبائل وتقسيمها إلى خمسة مناطق، هل تخبريني عنها؟ "

وعادت العجوز تحكم قبضتها حول العصى ثم مضت تنظر في النار بعين تلمع.

- " أرض الرمال وأرض الرياح وأرض الماء وأرض الدخان وأرض الشجر التي أنت فيها الآن، ولكل أرض خصائص تميزها عن الأخرى، الأمراء يتميزون عن بعضهم، والوحوش تتميز عن بعضها، والشعوب تتميز عن بعضها، والأراضي نفسها تتميز عن بعضها، يمكنك أن تتخيلي طبيعة كل أرض فقط من اسمها... وكلها تحيط بالأرض الوسطى، حيث الغابة العظمى التي تحيط بالجبل الأكبر... أين يتواجد الساحران، ولا يراهما إلا الأمراء حين يكون هناك من داع لذلك... بالحديث عن الأراضي الخمسة،

أخبرتكَ أن جدي الأكبر كان يحب السفر كثيرا، لكن قيل أنه بعدما قام الساحران بتقسيم القبائل أراد أن يقوم بسفرة إلى بلاد فارس، لكنه لم يستطع...”

وسكنت العجوز عن إتمام كلامها فجأة:

- ”لماذا، ألم تسعفه سنوات عمره؟”

- ”لا، لا يا ابنتي... كل ما هناك أنه جمع رحاله وانطلق في رحلته كما اعتاد دائما، غير أنه لم يصل إلى أي مكان هذه المرة، كانت الطريق إلى بلاد فارس تبدأ من هنا، من أرض الشجر، لكنه لم يقدر حتى على الخروج منها...”

- ”ما الذي حدث؟”

ونظرت العجوز إلى خولة مباشرة، وكان في عينيها ذبول واضح:

- ”أخبرتني أنهم عثروا عليك ملقاة في طريق وسط الغابة، أليس كذلك...”

- ”بلى...”

- ”حسنا، تلك الغابة لا تنتهي أبدا...”

وضيقت خولة عينيها فيما يشبه أنها لم تفهم شيئا.

- ”كان جدي يقطعها في ثلاثة أيام فقط حتى يخرج إلى طريق أخرى، لكنه في تلك

المرّة ظل يسير لشهر كامل، ظن في البداية أنه ظل الطريق، ثم وجد نفسه محقا في ذلك، لقد كان يدور في مكان واحد، يبدأ من طريق ثم يجد نفسه قد وجد بدايتها مجددا، وهكذا، إلى أن عاد فرمى متاعه على الأرض وجلس يفكر فيما يحدث، وعندما تأكد بأنه لم يفقد عقله، خرج إلى السوق وأخبر الناس بما حدث، وللصدفة كان في السوق

تجار من أرض الرمال يبيعون أقمشتهم، قالوا أنهم لم يعودوا يقدرّون على قطع الصحراء التي تقع خلف بلادهم، وإن كل من بات يحاول فعل ذلك أو شك أن يهلك، وبعد أيام فقط وصل خبر أن أهل أرض الماء لم يعودوا يقدرّون على الوصول إلى أي مكان بسفنهم، اختفت البلدان والجزر التي كانوا يبحرون إليها، وأما عن أرض الرياح وأرض الرمال فلا نعلم عنهم خبرا لأن صلّتنا بهم تكاد تكون معدومة، لكن أغلب الظن أن نفس الأمر يحدث معهم أيضا...”

- ”إذن لهذا صدقتني مباشرة عندما أخبرتك أنني لا أنتمي لهذا المكان ولا أعرف عنه شيئا...”

ومجددا هزت العجوز رأسها لأسفل وأعلى بثناقل:

- ”ولأجل أمر آخر أيضا... وأنا لهذا أخبرتك أننا نعيش في صندوق مغلق... لا يمكننا الخروج منه أبدا، وأما كيف دخلت أنت إلى هنا، فهذا أمر لن أستطيع أن أفيدك فيه بشيء... ربما الأمير جابر يعرف شيئا...”

ووضعت خولة ذقنها فوق ركبتيها وأنشأت تقول بصوت غائب:

- ”لم يصدقني، لم يصدق ما قلته، أنا لست جاسوسة، ترجيته كثيرا أن يصدقني، لكنه لم يفعل، كنت أبكي من الألم، وكانوا يستمرون بضربي، كانوا...”

ورمقتها العجوز بحسرة:

- ”أعلم أنهم قد أذاك كثيرا، لكنه مؤخرا بات يمر بظروف صعبة...”

- ”لا يهمني...” قالت خولة بسخط، بينما تتجمع دموع حارة في عينيها.

- "بل يهملك... الأمير جابر لم يخترك هكذا عبثا، قد حدث ما حدث، ولم نعرف حتى الآن سبب ذلك، لكنه أدرك خطأه في النهاية وسوف.".

- "قلت لك لا يهمني أمره..."

وعم أركان الكوخ صمت رهيب بعد هذا، وزفرت الريح في الخارج حتى ضربت صفحتي النافذة بعضها، وحينها عادت العجوز تقول فجأة:

- "عندما يكثر القتل في قرية ما، تأتي الريح وتبيد القرية عن بكرة أبيها، لا يبقى شيء له روح إلا وتبيس مكانه كالصنم..."

- "لكن سيظلم الكثيرون هكذا..."

- "هذه قوانين الساحر، ربما لكي يضطر الجميع لأن يتعاونوا على الإمساك بالمعتدين خوفا على أنفسهم... عندما تموت قرية ما بهذه الطريقة، تسرع الإمارات القريبة بإرسال بعثات لجمع ما يمكن جمعه من الطعام والمؤن، وقد تحدث مناقشات بين جنود الإمارات المختلفة فيصير بهم الأمر إلى الاقتتال للفصل فيمن له الحق في الظفر بالغنائم، قبل أربع سنوات مضت، كان جنودنا بقيادة الأمير جابر يعودون من إحدى تلك القرى الميتة بعدما غنموا ما فيها، كانت القرية تقع على مسافة بعيدة من هنا، وعندما داهمهم الظلام كان عليهم أن يُخيموا وسط الغابة، كانوا قد أسروا بعض الجنود التابعين إلى أرض أخرى، وفي الصباح، وجدوا..."

- "ماذا؟... أكملني."

- "وجدوا الأسرى وقد تم ذبحهم وإلقاء جثثهم بين الشجيرات القريبة... كان والدا جابر من بين القتلى". ..

وهنا ضيقت خولة عينيها وأصغت السمع:

- "لا أحد يعرف ما الذي حدث، لكن في تلك الليلة كان يفترض بهما أن يكونا في أرض الماء لأجل زيارة تدوم لعدة أيام... اختفى الأمير جابر بعد الحادثة مباشرة، وتناقل الجنود الأمر على ألسنتهم حتى وصل إلى العامة بأن جابر هو من دبر لقتل والديه حتى يستلم الإمارة بكاملها... غضب الناس على الأمير جابر وسخطوا عليه طوال فترة غيابه، وعندما ظهر مرة أخرى، هجم الناس على القصر وكادوا يقتحمون البوابة، غير أن الغراب الكبير حال دون ذلك، وإلا كانت حدثت مجزرة كبيرة بين الجنود والناس الذين أعمى الغضب أبصارهم". ..

- "هل صدّهم الغراب عن اقتحام البوابة؟"

ورمقت العجوز خولة عن جانب:

- "هل رأيت سرباً من الغربان يحوم هنا وهناك فوق المدينة؟"

وفكرت خولة للحظة:

- "في الجزء الشرقي من الغابة، رأيتهم من الشرفة في وقت متأخر، الكثير من الغربان الصغيرة خرجت من بين الأغصان وطارت لأعلى". ..

- "ذلك هو وحش أرض الشجر، فالغراب الكبير بمقدوره أن يتحول إلى سرب من الغربان الصغيرة".

- "لكن..."

- "يكفي... لا تسأليني عن هذا، لا أعرف الكثير عن هذا الكائن... ها قد أخذتني بعيدا، كنت أخبرك عن الأمير جابر... عندما عاد كانت تصرفاته قد تغيرت كلياً، وكأنه أصيب بصدمة، عاش وحيداً بعدها، عزل نفسه عن الجميع وبقي لوحده... أعرف أن الحزن ظل يعتصر قلبه لفترة طويلة، كنت أقدر على رؤية ذلك في عينيه..."

- "هل كنت هناك؟"

وتنبهت العجوز لنفسها متأخرة، لكن لم يعد لها بدا من أن تسر إلى خولة بالخبر:

- "لقد كنت طيبة القصر لسنوات طويلة، وإلا فلماذا يرسلك الأمير جابر إلي أنا بعد أن حل بك كل هذا؟!... ها، دعينا من هذا، أصبح المسكين كثير الصمت ويبيد الحزم والجدية في كل تعاملاته، ولم يعد يثق في أي أحد، حتى معاملته للوزراء أصبحت مختلفة، كانت لهم مكانتهم في عهد والده، وكانوا يعاملون بطريقة جيدة، لكن الأمير جابر وضعهم جانبا، لم يعد يستشير أي واحد منهم، ولا يكلفهم بأية مهمة، ولم يبق لهم من القصر إلا أسمائهم، ما أنا متأكدة منه هو أنه يخفي أسراراً ومخاوف بداخل صدره، ولا يرجع هذا سوى لبراءته... حاولت إخبار الجميع لكن أحداً لم يصدقني، حتى..."

وأرسلت عينها نحو النافذة لدقيقة كاملة، ثم عادت تقول بعد برهة لما تملكها حين أرادت إخفائه بحديث آخر:

- "مرت سنوات كثيرة منذ أول مرة." وبان في ثغرها شيخ ابتسامة قديمة: "أشرفت على جابر منذ كان طفلا، ربيته وعلمته، رأيته ينمو، ويكبر ويلعب ويضحك... وسيم جدا، وذكي أيضا، كان مشاغبا، لكن بطريقة بديعة."

وانتبهت العجوز إلى نظرات خولة نحوها، فأبانت عن ابتسامة مآكرة وقالت:

- "أجل، إنه وسيم جدا... خلف قطعة الخشب السوداء تلك يوجد وجه جميل ينظر بذكاء قح، أنت لم تعتقدي أن وحشا مخيفا يختفي خلف ذلك القناع أليس كذلك؟".

وقالت خولة وهي لا تزال تدفن وجهها بين ركبتيها:

- "لم أفكر في الأمر أبدا... أخبرتك أنه لا يهمني أمره، إنني أكرهه".

وعادت الحيرة إلى وجه العجوز فهممت:

- "هممم... لا أحد يعرف السر وراء ذلك، فلم يرى أحد وجهه منذ عاد من تلك الغيبة، لم..."

وقاطعتها خولة:

- "قلت أنك متأكدة من براءته، ما الذي جعلك تعتقدين هذا؟".

وأخذت العجوز نفسا عميقا:

- "لطالما كان بوسعي أن أعرف من يقول الحقيقة ممن يقول غيرها، حينما أنظر في عيني أحد مباشرة، أرى فيهما شيئا خفيا لا يقدر الآخرون على رؤيته، كأن تهتز قدحتا عينيه اهتزازات صغيرة جدا يصعب على أي أحد أن يلاحظها... لهذا أخبرتك أن معرفتي بتاريخ عالمنا ليس السبب الوحيد الذي جعلني أصدقك، لقد رأيت في

عينيك ذلك، كنت صادقة في كل كلمة قلتها... لكنني الآن أكاد أفقد بصري كما ترين، أصبح الدمع يتجمع فيهما من وقت لآخر، أفرح كثيرا عندما أضع قدماي جنب بعضهما دون أن أسقط... هأهأهأ..."

- "أقلت لكنك رأيت ذلك في عيني؟"

- "لقد بذلت مجهودا كبيرا حتى رأيتته، وما كان بوسعك أن تشعرني بي وأنا أتأمل عينيك الجميلتان يا ابنتي..."

بدت خولة مهمومة للحظة، ثم تذكرت شيئا فحشرت يدها في صدرها وأخرجت قارورة سوداء صغيرة، وقالت وهي تناولها المرأة:

- "كانت هدية أعطتني إياها فتاة تعرفت عليها في القفص."

- "ما هذا؟"

- "كحل، قالت أنه مصنوع من الإثمد الخالص."

ولمعت عينا العجوز بسرعة:

- "لم أعد أتذكر آخر مرة تلقيت فيها هدية، أه يا ابنتي..."

وبينا تتفقد العجوز قارورة الكحل راحت خولة تنظر نحو النافذة بعدما سمعت صوت تكسر أغصان يابسة في الخارج، وبعث ذلك في نفسها خوفا رأتته العجوز في وجهها فابتسمت وندت من فمها العجائزي غمغمة ضاحكة:

- "قد تكون تلك نعجتي السوداء المشاغبة، فهي عادة ما تتسلل من منزلها وتأتي

عند النافذة..."

والتفتت إليها خولة وقد ارتاحت نفسها وذهب عنها خوفها:

- "صحيح، كنت أسمع صوت نعاج في الخارج، هل تملكين نعاجا؟".

- "أجل...لدي أربعة، أنت لم تريها لأنك لم تغادري الكوخ منذ أتيت إلى هنا، لكن غدا ينبغي أن تخرجي معي لرؤيتها..." قالت العجوز وقامت تستند على ركبتيها لاهثة: "أرأيت، لقد انتصف الليل دون أن نشعر، علينا أن نخلد إلى النوم حالا..."

- "سأبقى بعد قليلا، لست نعسة..."

- "لك هذا، لك هذا... أنا تنفذ طاقتي بسرعة، أنا عدت مثل إسفنجة قديمة، هل تفهمين كلامي؟".

وغادرت العجوز مكانها، وغادر الحديث أركان الكوخ، وغادرت النار موقدها، ولم يبق سوى خولة حينما وقفت تحديق عبر النافذة، كان هنالك حشرات تنز في الخارج وسط العتمة، وطيور بكماء تحلق في الأعلى، وجاء نسيم بارد يداعب وجنتيها، وظلت تنظر لفترة طويلة لكن لم يكن هنالك أي أثر لأي خروف أسود في الخارج.

الأسود

عندما أطلت الشمس من المشرق وفاضت أشعتها على الكوخ خيوطا ذهبية وأنارت زواياه الرطبة جرّت العجوز خفيها نحو ضلفتي النافذة وجمعتهما إلى بعضهما ومشت على الخارج في نشاط بارع عبر طريق متربة ضيقة تقود إلى حظيرة صغيرة كانت تقوم على مقربة من الكوخ، وقفت ترتكز على عكازة خشبية ونظرت نحو السياج الذي يحيط بها، ثم انحنت إلى الأرض وحملت حجرا صغيرا كان يسقط عند قدمها وألقت به بعيدا، وحيث سقط عند شجرة قريبة، فقد خرج من خلفها الأمير جابر في هيئته السوداء وقال يخاطبها بلهجة مرحة من تحت قناعه:

- "هل أبدو كنعجة سوداء حقا؟".

وضربته بالعصى على كتفه بين تضع يدها الأخرى خلف ظهرها:

- "وماذا كان علي أن أقول لها، لقد أخفتها".

ونقل الأمير بصره نحو الكوخ ونظر ساهما لفترة، فنطقت العجوز قائلة:

- "هل حان الوقت؟".

- "أجل...".

- "يا له من أمر مؤسف، لقد اعتدت عليها... على كل، سوف تستيقظ بعد لحظة، عليك أن تغادر حالا".

- "الآن كيف حالها؟".

- "أؤكد لك أنها ستكون قادرة على أن تضربك بقسوة إن رأتك الآن هنا." ...

... -

وهكذا لزم الأمير الصمت للحظات ثم استدار وغاب خلف الأشجار من حيث ظهر أول مرة، وأما العجوز فعادت أدراجها منشغلة البال تفكر، لكن باب الكوخ انفرجت أمامها في تلك اللحظة، وبانت خولة من خلفها تخلخل شعرها وتنظمه على كتفيها بصعوبة، ورأت العجوز في ما رأت، بعض أسباب اهتمام الأمير بها دون غيرها من الفتيات اللواتي يعملن في القصر ويفقنها جمالا، إنها لم تكن أجمل امرأة حلت على أرض الشجر، لكن كان فيها شيء يبعث الرغبة في المرء لتأملها حتى وهي في أسوء حال لها، وتأملتها وهي تحاول إغلاق الباب خلفها دون أن تنجح في ذلك فقالت لها: - "دعها يا ابنتي، لن يكون بإمكانك أن تجبري لوحا خشبيا على شيء لا تريده."

والتفت خولة نحوها وقالت:

- "إنها عالقة، هل بقيت في الليل مفتوحة؟".

- "وكل ليلة... لكنك لا تلاحظين هذا لأنك تنامين باكرا".

كذلك ردت العجوز وعادت نحو الطريق الضيق الذي يؤدي إلى الحظيرة فيما

تبعثها خولة تقول من خلفها:

- "لماذا لا تطلبين أحدا ليصلحها؟".

- "لأنني لا أريد إصلاحها... سأذهب إلى السوق وأعود بعد ساعتين ولن يكون قد دخل الكوخ أي أحد، سوى الرياح ربما... أنسييت ما أخبرتك به البارحة، لا توجد سرقة عندنا..."

وفتحت بوابة خشبية ودلفت نحو قطيعها الصغير المختبئ تحت سقف من القش اليباس:

- "أوو، هل هذه هي؟... كم هي رائعة". قالت خولة وهي تشني ركبتيها تمد يدها المريضة لتمسح على ظهر خروف صغير أبيض: "لكن ألم تقولي أن لديك خروفا أسود، كلها بيضاء هنا!"

- "بالنسبة لي، في الليل يكون لونه أسود، لأنني لا أقدر على رؤيته..."

وجمدت خولة مكانها للحظات بسبب ما أحدثته كلمات المرأة في نفسها، ثم جمعت قبضتها وقامت نحوها وقد رسمت على وجهها شبح ابتسامة:

- "فقط جربي الكحل الذي أعطيتك، أنا متأكدة من أنه سيفيدك كثيرا".

- "سأفعل، دعك الآن مني... هل تؤلمك أصابعك؟".

ونظرت خولة إلى يدها:

- "قليلا... سيختفي الألم قريبا، على الأقل، لكن ما حفر بذاكرتي في ذلك السجن لن يختفي أبدا".

وطأطأت العجوز رأسها بأسف:

- "آه ماذا فعلت يا ولدي..."

وعادت خولة تقول كأنما تتوعد أحدا:

- "لن أنسى أبدا ما حل بي، لازلت حتى اللحظة أرى كوابيس مرعبة... تلك اللحظة التي صرخ فيها ذلك الظالم نحوي، وكيف جعل جنوده يلقون بي أرضا ويربطون يداي بقسوة... تلك الزنانة العفنة، وكل ذلك التعذيب الذي تلقيته... بت أراها كل ليلة، لن أسامحه أبدا، لن أغفر له ما حيينت".

- "لا تبكي يا ابنتي، أرجوك لا تبكي، يكفي هذا..."
وجفت خولة عينيها بمرفقها وقالت مبتسمة:
- "حسنا..."

ودعتها العجوز إلى الخروج من الحظيرة، فتبعها خولة نحو خم صغير مبني من الطوب والحجارة وله سقف من القصب وجعلت تعلمها كيف تقطف بيض الدجاجة، بينا وقفت هي خلفها تراقبها:

- "اسمعي أيتها الفتاة... لم يكن أبدا من عادتي أن أخفي الأشياء عن أصحابها... ها قد رأيت بنفسك كيف أن الخروف ليس بالأسود، وأنه لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يغادر الحظيرة دون أن أفتح له البوابة."

- "رأيت هذا..."

- "كان ذلك الأمير جابر..."

...

وسرت رعشة شديدة في جسد خولة فسكتت مطولا كأنما تجمدت أوصالها.

- "منذ أن أحضروك إلى هنا وهو يأتي كل ليلة ليتفقد حالك".

ورفعت خولة اخر بيضة عن الأرض وقامت بعدها بهدوء واستدارت نحو العجوز ونظرت في عينيها مباشرة، فواصلت العجوز قائلة:

- "هو يشعر بذنب كبير بسبب ما فعل، لن يخبر أي أحد بهذا، لكنني أعرف، ولن يقدم لك اعتذارا... لكنه سيفعل ما بوسعه ليعوضك دون أن تشعرى بأنه يحاول فعل ذلك".

وقالت خولة بشفاه مرتعشة:

"- لماذا تخبريني بهذا؟".

- "لأنني أعرف أن قلبه طاهر وطيب، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يؤذي أحدا دونما سبب".

- "إذن ما كان السبب في رأيك؟".

استمرت العجوز في النظر إليها دون أن تجد ما تقوله.

- "لا يوجد... ربما هو شخص مجنون عكس ما تعتقدين تماما".

- "لا تقولي عنه هذا يا ابنتي، أنت لا تعرفين عنه شيئا".

- "لا... لكن قد عرفت ما يكفي".

هكذا، بانفعال وغضب، لفضت خولة جملتها الأخيرة بحدة، ومرت أمام العجوز وتجاوزتها وراحت تتجه نحو الكوخ وهي توشك أن تجهش باكية.

كوكب

حينما كانت الشمس تنزوي خلف الأفق وقفت خولة تشاهد العجوز من النافذة وهي تجمع الخضار من حقلها الصغير قرب الغابة، وأعجبها كثيرا ما كانت تفعل فخرجت مسرعة وذهبت عندها وندت من شفيتها نحنحة صغيرة تقول بينا تجمع يديها خلفها:

- "هل أساعدك؟".

وردت العجوز بتلقائية.

- "الحمراء فقط، لكن افعليها برق حتى لا تتأذى يداك..."

وانحنت خولة تقطف رؤوس الفلفل الأحمر بحذر، ثم شاءت أن تسألها ثانية:

- "في أي سنة أنتم هنا؟".

- "ماذا؟".

- "في أي تاريخ أنتم، أعني..."

وتوقفت العجوز فجأة وقامت ترفع ظهرها المتكسر فنظرت إلى خولة بغرابة،

وتلكأت قليلا ثم قالت:

- "في... في الحقيقة نحن لا نعلم".

وحارت خولة لجوابها فقامت بتحريك حاجبيها لأظهار ذلك، وأما العجوز فنزلت

بنظرها نحو الخضار التي في يدها بينا أخذت تتمتم:

- "لم أكن أتمنى أبداً أن يسألني أحدهم سؤالاً كهذا، فمنّ فترة طويلة فقدنا القدرة على مواصلة تأريخ الزمن، وأخذنا نكتفي فقط بقول... حدث هذا بالأمس، أو بالشهر الفائت أو بالسنة الماضية، نصل إلى خمس سنوات أو عشر، ونتوقف، بعدها، نقول قد حدث من زمن... آه، وماذا عنكم، أنتم في أي سنة أنتم؟".

“ 2024 ” -

- "حقاً".

- "لكن ما الذي حدث... كيف أصبحتم لا تعرفون في أي سنة أنتم؟".

وردت العجوز بتنهيد:

- "لا أعرف، أنا لا أعرف، ترينني كبيرة في السن ومع هذا لا أعرف، أجدادنا لم يخبرونا بشيء عن الأمر، ربما تعلق الأمر باليوم الأول، يوم ظهرت الأراضي، ففي ذلك اليوم انفجر سحر عظيم من الجبل ربما يكون قد تسبب في هذا أيضاً".

واحتضنت خولة رؤوس الفلفل بين ذراعيها وبدا عليها أنها تفكر ثم نطقت قائلة:

- "لا بأس، فأينما كان موقع عالمكم هذا فهو لا يزال على نفس الكوكب، فإذن

التاريخ واحد...".

ولم تدري خولة ما الذي قد يفعله كلامها هذا بعقل المرأة، إلا لما رأتها تنظر إليها

شاخصة، وفي وجهها شحوب يظهر أنها لم تفهم شيئاً:

- "ماذا تعنين بالكوكب؟".

وتذكرت خولة ما كانت العجوز قد أخبرتها به قبل ذلك عن أن الجهات في هذه الأرض لا تفضي إلى أي مكان ولا لأي نهاية، فلم ترغب في أن تطيل الحديث أكثر مما ينبغي، كانت تشعر بشيء من الإرهاق ورأت في حركات العجوز أنها ترغب في الجلوس أيضا، فقالت تلخص الأمر ما استطاعت:

- "أترين الشمس..."

ولم يكن قد بقي منها سوى جزء صغير قبل أن تختفي بالكامل فنظرت إليها العجوز وقالت:

- "أراها يا ابنتي..."

- "وما هو شكلها؟"

- "شكلها؟... بالطبع أعرف شكلها."

- "وكيف هو؟"

رمشت العجوز مرتين وقالت مستغربة:

- "قرص، هو قرص الشمس ذلك الذي يغيب أمام أعيننا، ما الذي تحاولين قوله؟"

بقدر ما كانت دهشة العجوز كبيرة، كانت دهشة خولة أكبر منها، ذلك أنها لم تكن لتتوقع كيف أن البشر في هذا العالم لا يزالون يجهلون أمورا كثيرة جدا، وأنهم يعيشون كذبة كبيرة، لكن كان قد بقي في جوفها سؤال آخر لم تقدر على أن تمنع نفسها من طرحه، مضغت شفيتها حتى بللتها والتفتت نحو العجوز مجددا:

- "حسنا، في رأيك أين يذهب قرص الشمس كل ليلة، دوما ما يغيب من نفس المكان، ليعود صباحا، من نفس المكان أيضا؟".

واحتارت العجوز في أمرها، ولم تسعفها الأعشاب وكتب الطب المخزنة في رأسها، فارتبكت ونظرت يمينا وشمالا وقالت كأنما ترجوها:

- "تعرفين أنني سأصدق كل ما تقولينه، أعني أن هذه الأسئلة..."
وتبسمت خولة ضاحكة.

- "لا تضحكي على عجوز مثلي... لكنني سأحب أن أكتشف هذا الأمر في آخر عمري".

- "لا، لن أجيب عنها الآن، ربما في وقت لاحق، دعيني أولا أجد الطريقة المناسبة لأخبرك، لأن كل شيء سأخبرك به سيجعلك تطرحين علي المجابر من الأسئلة..."

- "حسنا، لكن لست متأكدة من أنه سوف يكون لدينا وقت لهذا..."
- "ما الذي تقصدينه؟".

وانحنت العجوز إلى الأرض فنزعت حبة طماطم من شجرتها ووضعتها فوق الخضار الأخرى عند صدرها وتنهدت:

- "اعذريني يا ابنتي لأنني لم أخبرك حتى اللحظة، لكن ينبغي عليك أن تعودي إلى القصر..."

- "أبدا..."

ردت خولة بلهجة حادة فجأة.

- " لكن يا ابنتي. ... "

- " أبدا... أبدا. ... "

وأخذت دموعها تنهمرس، وتقدمت العجوز نحوها فمسحت بإمهاهما المعقوف
خيطة دمع سال على خد خولة.

- " هذا... " غمغمت العجوز وإن كانت توشك أن تغلبها دموعها هي الأخرى حزنا
على الفتاة المسكينة: " هذا... أنت ليس لك أن تقرري هذا الأمر أبدا، أنت لا تزالين
مملوكة... أنت ملك الأمير جابريا ابنتي. ... "

وصاحت خولة وأسقطت الخضار من يديها:

"-لست ملكا لأحد... أنا لست سلعة تبيع وتشتري، وأما ذلك الحقير فلن أنظر في
عينيه مرة أخرى... أم أنه بالفعل قد جاء واخبرك بهذا".

ودون أن تقدر العجوز على إجابتها، حركت رأسها لأسفل وأعلى، بعين دامعة، ثم
راحت تغمغم:

- " عزائي فيك أن جابر ليس كما تتخيلينه، أعلم أنه قد أذاك كثيرا، لكن. "

واستدارت خولة نحو الجهة الأخرى، وظل جيدها يرتعش بشدة بسبب ما هاج في
نفسها من ضيق وغضب، ومشت خطوتين ثم وقفت وأرادت أن تقول شيئا لكنها
انطلقت بعد ذلك تركض نحو الكوخ باكية، وأما العجوز فنظرت بعينين ذابلتين إلى
ذنب الشمس وكان يغرق خلف جابل رمادية بعيدة.

على مضض

بكت خولة طويلا على سريها، قبل أن يغلبها النعاس أخيرا وتغط في نوم مريب تغلفه الكآبة، بينما جلست العجوز تذكي نارا صغيرة عند قدميها وغيظ عظيم يطوف كالغمامة فوق رأسها، ظلت تفكر لساعات طويلة حتى إذا كان منتصف الليل خرجت نحو الزريبة ونظرت بعينين شبه مغلقتين في عمق الغابة، لكن لم يكن هناك أثر لخروفها الأسود هذه الليلة.

مع أول الصباح، وقفت العجوز عند باب الكوخ تودع خولة وغمامة حزن تطوف على وجهها، وقفت تتسائل محتارة عن السبب الذي جعل خولة تنقاد بسهولة وقد كانت بالأمس توشك أن تنهار باكية كلما تذكرت أنه يتحتم عليها أن تعود إلى القصر مرة أخرى، أما الآن وبعدما ودعتها وعانقتها فقد تمننت لها حياة حافلة خلف أسوار القصر ووعدها أنهما سوف تلتقيان مرة أخرى ثم تركتها وعيناها تطفحان دما ونظرت إليها وهي تغادر رفقة فارسان كانا يهتزان على صهوتي جابريهما حتى تواروا خلف الأشجار ثم عادت إلى نحو الزريبة.

الآن أثناء سيرهم إلى القصر كان أحد الفارسيين يمسك بلجام حصان أبيض بديع الخلقة ظل يسير بجانبه، وكان يلقي ببصره من وقت إلى آخر نحو خولة ثم ارتأى أخيرا أن يسألها قائلا:

- "هل أنت بخير يا آنسة؟".

...

- "تبددين متعبة جدا، لو أنك امتطيت هذا الحصان الجميل فقد ابتعثه الأمير جابر خصيصا لأجلك".

...

- "ألن تقولي شيئا؟ حسنا، أتفهم غضبك... فأنت أكثر مخلوق رأيتته يتعرض للظلم في حياتي".

وهنا توقفت خولة عن السير وسكنت حركتها تماما بينما تحديق بعينين حاقدين نحو الأرض المتربة.

وشد الفارس لجام فرسه ونظر إليها بأسف.

- "كيف وجدت الطيبة، ليس من السيء البقاء معها، أليس كذلك؟".

فقال خولة حينئذ:

- "لماذا اتهمت أنا من بين كل الفتيات بأنني جاسوسة؟".

وفاجأ سؤالها الفارسان فنظرا في عيني بعضهما وقال الذي كان يحدثها:

- "لا أعرف".

- "وهل أمر بإطلاق سراحي من تلقاء نفسه؟".

- "لا".

...

- "إنها السيد مريم..."

وهنا رفعت خولة بصرها نحوه.

" - أم أنك لا تعرفين اسمها، بعد كل الوقت الذي قضيتماه معا..."

- "لم أسألها..."

- "حسنا، لا بأس بذلك... لكن عندما رأى الأمير جابر كل ذلك التعذيب الذي

تعرضت له دون أن تفصحي عن كلمة واحدة قرر أن يحضر الطيبة، فهي تعرف الكاذب من الصادق عبر سماعه والنظر في عينيه فقط، أم أنك لا تعرفين هذا أيضا؟"

- "لم تخبرني، أعني... أخبرتني عن مقدرتها، لكنها لم تخبرني بأنها هي من أنقذتني..."

- "بلى، كانت هي السبب الرئيسي في إنقاذك من ذلك المأزق".

بعد نصف ساعة رفعت خولة ناظريها إلى الأمام قليلا فرأت بوابة القصر تطل من مقربة، فهالها الأمر وتسارعت نبضات قلبها وعاد يجري غيظ شديد في عروقها لمجرد أن تخيلت ذلك القناع الخشبي ماثلا أمامها.

انفصل الفارسان عن خولة عند البوابة الخارجية، فمشت لوحدها بين البساتين حتى أتت السلالم فوقفت هناك لحظات تتأمل القصر حتى رأت السيدة نجلاء تظهر في الأعلى تنظر إليها باتسامة خالطها حزن عميق كان باديا مثل الجلد على وجهها.

عندما عبرت المرأتان باب القصر لمحتا الأمير جابر ينزل الأدراج مسرعا فأبطأتا في السير حتى وصل الأمير إليهما وأوشك أن يتجاوزهما لكنه توقف فجأة أمام خولة وخاطبها قائلاً:

- "أنت".

وبينا أحنّت السيدة نجلاء رأسها لتحتيته فإن خولة وقفت مثل تمثال من مرمر وقد غرست عيناها عند قدميها دون أن تقول شيئاً، وعاد الأمير يخاطبها مرة أخرى:

- "هل أنت بخير؟".

ولم ترد له جواباً، إنما ظلت تعبت بأصابع يديها فجعلت ظفر سبابتها اليسرى وظفر إبهامها الأيمن يتصارعان وينكشان بعضهما عند بطنها في توتر.

- "هل ذهب سمعك يا ترى".

كذلك هتف الأمير بصوت أعلى من سابقه، فأبعدت خولة يديها عن بعضهما ونظرت إليه بعينان يسكنهما الغضب، لكن الأمير مد يده نحو يدها اليسرى وتناولها فجأة، وما إن أدركت خولة الأمر وأفافت من دوامة أفكارها السوداء التي هاجت في رأسها حتى أسرعت تبعد يدها في حدة ثم أوشكت أن تغلبها الدموع فقالت بصعوبة قبل أن تنطلق راكضة نحو الأعلى.

- "إياك أن تلمسني مرة أخرى..."

التفت الأمير بعدها نحو السيدة نجلاء بعد ذلك فرأى غمامة حزن تطوف على وجهها فلم ينبس ببنت شفة وسار نحو المخرج وغاب في ضوء النهار الساطع. أسرع السيدة نجلاء تصعد الأدراج ثم دلفت إلى غرفة خولة فوجدتها تغمم باكية وهي تقف عند المرأة تحاول أن تجفف أهداب عينيها بأصابعها يدها الصغيرة.

- "هل أنت بخير، هل أنت بخير... غبي، ماذا يحسب نفسه، ويسألني إن كنت بخير!! غبي... غبي... غبي وأحمق".

وأنت المرأة العجوز من خلفها وقالت:

- "أرجوك ألا تتحدثي بمثل هذه الطريقة عن جابريا ابنتي، إنما أراد أن..."

- "لست آبه لما أراد فعله، لا أريد منه أي شفقة..."

- "أيتها الحمقاء العنيدة... أتعين ماذا يعني أن يقوم الأمير جابر باستقبالك شخصيا؟ هو لم يفعل هذا من قبل أبدا، أبدا... لم يسبق له أن اعتذر من جارية، أم أنك لم تعي بعد ما الذي كان يفعله في الأسفل؟".

- "لو أنه يسمح لنفسه بأن لا يقف أمامي مجددا، وللاأبد... سيكون هذا اعتذارا جيدا مناسبا سأقبله".

- "آه منك، آه منك حقا".

وتنهدت السيدة نجلاء طويلا وهي تقول هذا، ثم إنها مشت نحو الباب ثم التفتت:

- " ليس لي أن أقف في صفك ولا في صفه، أعلم حجم المعاناة التي مررت بها، لكن في المقابل... أعلم أيضا أن لجابر عذره، قد لا نعلمه الآن، وقد لا نعلمه أبدا، لكن... على أي حال، سأتركك الآن لترتاحي قليلا".

وغاردت السيدة نجلاء الغرفة، لكن عطرها النقي بقي خلفها، تنسمت خولة منه وتمددت على الفرش الناعم على ظهرها وظلت تراقب السقف حتى مال رأسها نحو النافذة.

بعد الغداء مباشرة، طلب الأمير خولة إلى ديوانه، وأمر بأن لا يدخل عليهما أحد، وحينما وقفت أمامه لوحدها، كانت لا ترجوا شيئا أكثر من أن لا يتقدم نحوها، كانت عيناها مثبتتان عند قدميها، وكانت أصابع يديها العشرة متشابكة، وكان الأمير قد جلس كعادته على عرشه يسند ذقنه على يده كأنما يفكر في أمر جلل، ولم ينظر إليها حينما دخلت، ثم قام فجأة وراح ينزل الدرجات التي ترفع عرشه عن الأرض يتجه نحوها في خطوات ثقيلة.

وارتبكت خولة وسرت قشعريرة في جسدها حتى أطراف اصابع يديها، فقد كان بمقدورها حتى وهي لا تنظر نحوه مباشرة، أن ترى ظلامه يدنو منها، فكرزت على أسنانها وارتعشت عيناها وانطفأتا، لكنها سمعت صوته يأتي خافتا من مقربة:

- " لا أدري لما يحصل هذا كل مرة، لماذا يلتقي الناس ولماذا يفترون، دون أن يجني العالم من ذلك أي فائدة... لو كان الأمر بيدي لأبقيت الجميع بعيدين عن بعضهم... لكن، ما أعرفه الآن هو أنني بالفعل قد ظلمتك وأذيتك. "

فتحت خولة عينيها ببطء لتستدير خلفها وتتأكد من أن الأمير قد غادر القاعة حقا، وكان لها ما أرادت، لكن بدى وكأن كلامه لم يغادرها وظل قابعا أمام وجهها، ذلك أنها فهمت حديثه وكان ما معناه أن:

- "بإمكانك أن تعودى إلى عالمك، أنت الآن حرة..."

بعد ساعة من الوقوف هناك لوحدها أدركت خولة أن كلام الأمير لم يسعدها بحق كما كانت ترجو، لقد أعطها حريتها، لكن إلى أين كان يمكن أن تذهب بها، فهذا العالم صغير وخطير جدا، ولم تعرف ما الذي كان ينبغي عليه أن تفعله بعد ذلك، ولذلك فقد انهارت وسقطت على ركبتيها وسط القاعة واستسلمت لموجة بكاء هستيرية، وفي تلك اللحظة تماما ظهرت السيدة نجلاء تفتح الباب فدلقت مسرعة وركضت نحو الفتاة المسكينة.

مع انتصاف الليل كان الأمير جابر يعود إلى قصره متأخرا كعادته، راح يذلف بخطوات بطيئة ولا ينظر إلى غير موضع قدميه، كان قد عبر البساتين ووصل عند أدراج الحديقة حينما لمح خولة تجلس على آخر درجة تسند ظهرها ورأسها على العمود الرخامي الأيسر الذي يحمل الشرفة الرئيسة.

ووصل عندها فأفاقت من غمرة فكرها وطفقت تدخل طرف إصبعها في ركن عينيها تواليها، وقال الأمير يخاطبها:

- "أنت بخير؟"

...

وصعد الأمير آخر درجتين كأنما يهم بالدخول غير أنه توقف مجددا ونظر فوق كتفه الأيسر وقال بنبرة من يستفسر أمرا هو في الأصل يعرف جوابه:
- " ألم أمنحك حريتك وحق الرحيل عن هنا؟... ظننت أن هذا أكثر ما كنت ترغبين في فعله..."

وانكمشت خولة على نفسها وحاولت إخفاء وجهها فوق ركبتيها.
وانتظر الأمير قليلا، وممر الوقت ولم يأت من خولة صوت، كانت تحدد في الباستين تطالع الأشجار السوداء بوجه شاحب، وهنا عاد الأمير أدراجه نحوها ووقف هناك يطالع الفراغ بدوره.
- " ألن تجيبي؟"

وردت خولة بصوت خافت مرهق:

- " ألم تقل أنني حرة، وبإمكاني أن أذهب إلى أي مكان أريده؟"
ولم يقل الأمير شيئا، وفضل أن يراقب غرابا صغيرا ظل يحلق فوق البستان في حلقة دائرية، ثم عاد فنطق بصوت نقي أثار مسمعا بشكل غريب جدا، ليس لصفاء الأحرف فقط، لكن للشكل الذي اتخذته حينما اجتمعت مع بعضها:
- " هل تشاقين إليهما كثيرا؟ أعني والدك، وسليم أيضا."

...

وهنا نزل الأمير فجلس بجوارها فاطربت دقات قلب خولة أكثر فابتعدت عنه قليلا وقالت بشراسة:

- "إياك أن تلمسني مجددا".

لكن الأمير تبسم من تحت القناع وقال بعد لحظة:

- "ألن تطلبي مني أي شيء كتعويض على ما حدث؟".

وقالت خولة بنفس تلك النبرة الشرسة:

- "لا أريد أي تعويض منك... ولن أسامحك على ما فعلته بي مهما حييت".

قالت ذلك وصمتت لبعض الوقت ثم عادت تقول بعد أن بدا لها أنها قد آذته ولو

قدرا يسيرا بكلامها:

- "أريد الخروج من هنا".

- "لكنني لا أمنعك، أخبرتك صباحا".

- "لا أقصد هذا، لست مولعة بقصرك... أريد أن...".

ووجد الأمير أن يرد عليها بشيء من التعجرف أيضا فقاطعتها:

- "أتمنى أن تجدي طريقة لذلك".

وتنهدت خولة بغضب:

- "قالت الطيبة أنكم تعرفون الكثير من الأشياء التي لا يعرفها العامة".

- "نعم، الكثير من الأشياء التي لن تساعدك في الخروج من هذا العالم".

- "طبعاً، في الأصل حتى أنتم، الأمراء كما تلقبون أنفسكم، لا تعرفون شيئاً عن

عالمكم".

- "وأفقتك الرأي".

- "ماذا؟".

قالت خولة ذلك ثم شعرت بأنها ارتكبت خطأ لما اهتمت لجواب ففي رأيها أنه كان ينبغي عليها أن تغير الحديث وتقاطع فكره مثلما فعل معها قبل لحظة، لكنه فاجأها بأن راح يتم جوابه.

- "أوافقك... نحن حتى لا نعرف أنفسنا، ليس لنا هوية، ولا تاريخ حتى، أمراء وشعوب، وموت غامض يخطف الأحياء من وقت لآخر... أخبرتك الطيبة بكل، هذا أليس كذلك".

نظرت خولة إليه مجدداً، وكان يتطلع إلى القمر بعينيه الباردتين كأنما يرى ملكاً، أو كأنما دماغه لم يكن في رأسه، ذلك أنه بدا شارداً جداً حين عاد يحدثها بنبرة فيها برودة غريبة:

- "لا تسامحيني، وأتمنى أن تعيشي طويلاً... لكنني لست رجلاً يسعد بإظهار قوته على من هو أشد منه ضعفاً، واعلمي بأنني لو وجدت طريقة لأعوضك فما كنت لأستشيرتك..."

قال الأمير ذلك وقام واقفاً، ومشى فعبر باب القصر تاركاً إياها تمشط السماء بعينيهما الحزبتين بينما تطالع القمر الذي قرر الكاتب أن يقول أنه كان تقريباً يبادلها نفس النظرة.

مرت بضعة أيام هادئة بعد تلك الليلة، وخلال ذلك واصلت خولة القيام بأعمال القصر مع باقي الفتيات مثل السابق، وحدث خلالها أن التقى الإثنان مرات كثيرة على الأدراج أو عند مائدة الطعام أو عندما كان يصادف أن يفتحا بابي غرفتيهما في وقت واحد، وكانا يكتفيان دائما بأن يسرعا لإبعاد وجهيهما عن بعضهما البعض من أول لحظة، وكانا كلما حل الظلام إلا ويقفان كل على شرفته فينصبان أعينهما في السماء لساعات طويلة، في الواقع لم تكن خولة تعلم بأنه كان يفعل ذلك، لكنه كان يعلم بأمرها، غير أنه لم يحدث أن ابتسم لذلك مرة، إنما كان كثيرا ما يخرج زفيرا حارا عبر فتحات القناع التي تقع فوق فمه مباشرة ويغمض عينه مطولا، حتى أتى صباح ذلك اليوم أين كانت خولة ترتب قطع الثياب لتنقلها إلى الغسيل حينما سمعت جلبة عالية راحت تدلف عبر النافذة فألقت ما في يدها وخرجت مسعرة.

وحينما وقفت بين عمودي المدخل بجانب السيدة نجلاء فقد رأت على وجهها أمارات القلق وهي تشاهد جمهرة من الناس كانوا يقفون خلف البوابة الخارجية بينما قد أخذوا يلهجون صارخين بأعلى أصواتهم:

- "ليث... ليث... عاش القائد ليث."

وقف عدد من الجنود يحرسون البوابة الخارجية بينما أتى آخرا برجل يتهادى بينهما وكانت تغطيه أسمال بالية من أعلى رأسه حتى قدميه وعبرا به البساتين وأتيا به حتى وصلا قريبا من السلالم الرخامية، وفي تلك اللحظة نظرت خولة والسيدة

نجلاء وكان الأمير جابر يخرج من خلفهما حتى أتى أمامهما ووقف يطالع المشهد في ثبات وهيبة.

أما وخلف البوابة الخارجية، وحيث كان بعض الأشخاص قد سعدوا فوق أكتاف أصحابهم ليراقبوا ما يحدث، فإنهم راحوا يعوون ويطلقون صافرات استهجان ضد الأمير جابر بينما ما انفك اللذين في الأسفل عن شتمه بعبارات لاذعة، ولم يكن الجنود اللذين يدفعون يخالفونهم في ذلك، فكانت قلوبهم ومشاعرهم تكاد توافق ما كنت تنضح به أفواه تلك الجمهرة، عدا أنه لم تكن لهم حيلة لإظهار ذلك.

الآن وقد اقترب الرجل المهدهد بين كتفي الجنديين من الأمير جابر فإن صمته ثقيلًا حط مثل الطبق الكبير بين أفواه الناس وعم المكان هدوء غريب فجأة ترقبا لما سوف يحدث، لكن الأمير وبمجرد أن صار الرجل في متناول يديه إلا وانقض عليه بكلى ذراعيه فعانقه وحمله بنفسه، ورفع الرجل رأسه بصعوبة فنظر في عيني الأمير نظرة فيها تعب، ثم مال عليه فبادلته العناق في غرابة ملأت أفواه الناظرين حتى السيدة نجلاء التي فغر فاهها من الدهشة.

عاد المحتجون أدرأجهم مثقلين بالغضب والحيرة بعدما خابت أمالهم في رؤية الأمير وهو يجهز على ما تبقى من قائد جنده، وراحوا يقصون الواقعة على الناس حتى انتشرت كالنار في الهشيم وسمع بها كل من في المدينة خلال ساعة، وانتقل المشهد إلى داخل القصر، وتحديدًا بين جدران القاعة الكبيرة حيث يبسط الأمير جابر عرشه أمام وزراءه ذوي الوجوه الناعسة المشرببة، وجواريه من الفتيات المقربات

وبعض القادة، وكان ذلك الرجل الملقب في الأسمال قد انتصب واقفا بوهن وسط القاعة بعدما أطمع وأشرب وعولجت جراحه، وبعد ساعة من الصمت قام الأمير جابر عن عرشه فجمع يديه خلف ظهره وقال موجها كلامه إلى الرجل:

- "تفضل يا ليث، أخبرنا أين اختفيت كل هذا الوقت عنا".

- "سيدي..."

قالها الرجل كأنما خائفا، ثم نظر يمنة نحو الوزراء ونظر يسرة نحو قادة الكتائب والخادمت وعاد فأسقط بصره عند قدميه وقال بصوت مرتعش:

- "سيدي... إنني أنا القائد ليث، قائد جنك المخلص، قد كنت في مهمة كلفتني بها منذ أشهر... وقد طلبت مني أن أؤدي أمرا عند بوابة أرض الرياح المعادية، لكنني فشلت في أدائه فشلا ذريعا يا سيدي، ولست أملك عذرا أود طرحه، غير أنني كان ينبغي علي ألا أعود أبدا، لكن السيدة..."

وسكت القائد ليث عن الحديث لما شعر بالأمير وقد خطى خطوتين بعيدا عن عرشه، وقال الأمير جابر بعدما أصبح على حافة أول درج من الأدراج التي ترفع عرشه:

- "ولماذا فشلت يا ليث؟"

واهتزت عينا القائد في محجريهما، لكنه رفع بصره نحو الأمير ونظر في عينيه مباشرة وانطلق يسرد الأمر كما كان يذكر، قال مغمغما:

- "قبل أشهر، كنت قد طلبت مني أن أؤدي دورا في مهمة الغزو الكبير، ولأفعل ذلك كان على الطبيبة أن تقوم بتخدير جسدي تخديرا كليا لثلاثة أسابيع كاملة، نمت

خلالها دون أن استيقظ، كما أخبرتني الطيبية، ولست أعرف إلى الآن سبب ذلك.. بعدما أفقت بيومين، واستعدت عافيتي، خرجت تحت جناح الظلام متوجها نحو أرض الرياح دون أن يلمحني أحد، حاولت أن أتسلل مع بعض التجار لأعبر البوابة، لكن الحراس أمسكوا بي وقاموا بضربي حتى أفقدوني وعيي، وعندما أفقت خلف قضبان سجن ضيق، ثم جاء أمير أرض الرياح بنفسه فقراً أفكاري، ورأيت في وجهه غضبا شديدا بعدما علم بالذي كنت أنوي فعله...”

- ” وما الذي كنت تنوي فعله؟”

- ” سيدي... ” دهش القائد ليث لما قد يسأله الأمير سؤالاً كهذا، فيما قد كان هو الذي أملى عليه ما يفعل: ” كانت الخطة تقضي أن أتسلل خلف البوابة وأقتل الحراس وأفتحها لجنودنا اللذين كانوا مختبئين في الغابة في انتظار...”

هنا أشار الأمير بيده فسكت القائد دون أن تكف الحيرة عن التضخم داخل صدره، وكذلك الأمر بالنسبة لباقي الحاضرين اللذين كانوا متعطشين لمعرفة الحقيقة، والتفت الأمير بعدها نحو القادة يسألهم:

- ” والان يا قادة الكتائب، هل طلبت إليكم يوماً أن تجمعوا الجيش بغية الهجوم على أرض الرياح؟”

واندهش القادة كلهم وظهرت علامات الحيرة على وجوههم وقالوا جميعاً بصوت واحد.

- ” لا يا سيدي...”

ومن فرط دهشة القائد ليث لرؤيته القادة وهم ينكرون الأمر فقد أراد أن يتحدث لكن الأمير جابر فرقع بأصابع في تلك اللحظة يده فدخل من الباب رجل بسيط من العامة يحمل جرابا تحت إبطه ومن خلفه العجوز المداوية وقد جاءت تمشي ببطئى على عكازتها حتى وقفا بجانب القائد ليث تحت دهشة الناظرين المستمرة، وعاد الأمير يقول حينئذ:

- "هل تسمح بأن نحلق شعر رأسك يا ليث؟".

- "م.. ماذا؟".

وصعدت همهمات من كل الجهات ومر وقت قصير حتى صاح القائد ليث مدعنا

لأمر سيده:

- "أمرك يا سيدي، بالتأكيد سأفعل".

وأثنى القائد ركبتيه على الأرض في طاعة وأتى الرجل فأخرج من جرابه أداة حادة وشرع يحلق رأسه تحت أنظار الجميع دون أن يفهم أحد سببا لذلك.

وحيثما ابتعد الحلاق جانبا، ظهر رأس القائد خاليا من الشعر لكن كان قد غطي جلده بأحرف سوداء رقيقة جدا حتى لتكاد ألا تكون ظاهرة، ونظرت خولة إلى الطيبة في اندهاش وهي تقترب من القائد وظلت لأكثر من دقيقتين تدون الكلمات المكتوبة على رأسه في بردي كان في يدها، حتى إذا انتهت من ذلك سلمته إلى الأمير جابر فقرأه في صمت ثم لفه ونزل الأدرج حتى وقف أمام القائد ليث وأمره وبالوقوف ثم سأله:

- "أكمل يا ليث، ما الذي حصل بعدما حاول الأمير شهاب أن يقرأ أفكارك..."

وقال القائد:

- "لقد أبقوني في سجن إنفرادي لأشهر، وكانوا يأتون لتعذيبي واستجوابي من وقت لآخر... حتى أمر الأمير شهاب جنوده بالتخلص مني، لكن جاءت امرأة وأفرغت شرابا غريب المذاق في حلقي ثم أمرت بأن أقتاد إلى مكان بعيد حتى يتم قتلي، لكنني فقدت وعيي في الطريق، وعندما استقظت قبل أربعة أيام وجدت نفسي ملقى على مسافة بعيدة خارج البوابة، فقامت بصعوبة وسرت لليلتين قبل أن أصادف قافلة تجار حملتني معها".

وهنا رفع الأمير يده في وجه القائد مجددا واستهل الكلام من بعده بينا راح

يمشي ذهابا وإيابا على عرض القاعة:

- "قبل أربع سنوات، أي عندما عُينت أمرا جديدا على هذه الأرض، علمت بظهور أوراق سحر ذات أهمية بالغة كانت قد فقدت من كتاب الساحر الأكبر، بل هي تعد من أقوى الأوراق في الكتاب لخطورة التعاويذ المكتوبة فيها" وبهذا شُدت وجوه الناظرين وتفتحت عيونهم أكثر من ذي قبل، وصاروا يستمعون الحديث بهمة أكبر بينا يطاردون الأمير بنظراتهم: "حسنا، لم تُفقد الأوراق من تلقاء نفسها، بل تمت سرقتها... الآن، من بين الأوراق التي فقدت، تهمني واحدة منها تحديدا، ولا داعي لذكر السبب... أنا لا أملك هذه الورقة، والأمير أكثم لا يملكها، كذلك هند أميرة أرض الماء لا تملكها، يتبقى لنا أرض الرماد وأرض الرياح، ولأنه ينذر ويصعب بمكان أن

ينجح أحدهم في دخول أرض الرماد والتجسس عليها فقد كان علي أن أبدأ بأرض الرياح أولاً... ولفعل هذا، أمرت بتدريب إحدى الفتيات تدريباً خاصاً "وأشار بالبردي الذي في يده نحو السيدة نجلاء ثم العجوز المداوية توالياً دون حتى أن ينظر إليهما ودون أن يتوقف عن المشي ولو للحظة: "السيدة نجلاء تعرفها، كذلك الطبيبة تعرفها، فهما من أشرفت على تدريبها سرا تحت وصايتي... تتمتع الفتاة بجمال فائق، بالإضافة إلى معرفتها الجيدة بالكتابة والقراءة، والغناء أيضاً... لقد تم إرسالها مع تاجر أمين كي تباع هناك على أنها جارية، وقد نجح الأمر فعلاً، ووصل بها الأمر إلى أن قدمت كهدية إلى الأمير شهاب، وتقبلها بسعادة غامرة، وخلال السنوات الماضية عاشت بين جدران القصر كجاسوسة تعمل لصالحنا، وشيئاً فشيئاً عززت مكانها عنده عن طريق استغلال مواهبها وابداء قدراتها حتى أصبحت لها كلمتها عند الأمير شهاب وصارت لها يد في إدارة بعض الأمور بداخل القصر، وملخص كل هذا مكتوب في الرسالة التي أرسلتها مكتوبة على رأس قائدنا".

اضطرب الجمع لكلام الأمير، وانطلقت همهمات سريعة وخافتة، وتسمرت العيون فوق رأس القائد مرة أخرى، والذي لم يكن أقل منهم دهشة وحيرة، وتابع الأمير جابر بعد أن توقف عن المشي أخيراً:

- "الآن لا بد أنكم جميعاً قد فهمتم لما اختفى ليث كل هذه المدة، بداية من تخديره وتنويمه من قبل الطبيبة، وكان ذلك إلا لكي لا يكشف أمير أرض الرياح خطتنا الأساسية إذا ما حاول قراءة أفكاره، وأن يكتفي بالخطة التظليلية التي كانت تقضي

بأن يحاول التسلل خلف البوابة ويقوم بفتحها... حُلق شعر القائد وكتبنا رسالتنا إلى خادمتنا هناك على رأسه وهو نائم، وظل فاقدًا للوعي حتى نَمى شعر رأسه مجدداً وغطى الرسالة، وذهب بها إلى أرض الرياح وسجن هناك دون أن يعلم بأمرها، وأما الفتاة التي قلت يا ليث أنها جعلتك تشرب سائلاً غريب المذاق وأمرت بأخذك بعيداً بغية قتلك، فهي فتاتنا التي نتحدث عنها، وقد كانت تراقب وضعك بدقة حتى واتتها الفرصة المناسبة... وبطريقة ما وبعد أن قامت بتخديرك بذلك الشراب الذي علمتها الطيبية كيفية صنعه، أخذتك إلى مكان سري أخفتك فيه وهناك حلقت رأسك وقرأت رسالتنا، ثم كتبت لنا الجواب وظللت في ضيافتها حتى نَمى شعر رأسك مجدداً، ثم حملتك خارج أسوار أرض الرياح، وها أنت هنا...” وسكت الأمير عن الكلام للحظة ثم عاد يقول ناقلاً عينيه بينهم: ”والآن، وبحديثي الطويل هذا، فأعتقد أنني قد أجبته على استفساراتكم المتعلقة ببعض الأمور التي حدثت في هذا القصر منذ أن توليت زمام الإمارة.”...

لم ينطق أي واحد من الحاضرين، واكتفى الوزراء بتدوير أعينهم نحو بعضهم، وتحدثت القادة بكلام خافت ولمعت أعينهم في عجب بالغ ومطت الفتيات شفاهن في حب وفخر بحنكة الأمير وذكائه.

بعد بضعة دقائق فقط غادر الجميع القاعة وبقي الأمير جابر رفقة القائد ليث لوحدهما يتبادلان أطراف الحديث، وكان الأمير يخبر القائد كيف أن تضحيته لم تذهب سدى، بعد أن أدى مهمته بشكل ناجح، وأنه سوف يجزل له العطاء حتماً، وكان القائد

يرد بدوره قائلاً بأنه لا يمكن له أن يتوانى في تأدية نفس المهمة مرة أخرى لو أن الأمير يأمره بذلك، وأنه ليس أسعد له من أن يرضي سيده، ولذلك فقد عاد الأمير جابر فعانق صديقه مرة أخرى وأمره بأن يغدو فيغتسل مما هو فيه ويذهب سريعاً لرؤية زوجته.

اعتذار

مرت بضعة أيام على عودة القائد ليث، وكان وقت المغيب حينما كان يخرج من عند الأمير جابر في ثياب عسكرية أنيقة ووجد خولة تجلس عند باب القصر تراقب البساتين وقد شردت بفكرها، فارتأى أن يجلس إليها ويحدثها، وأذنت له بابتسامة لطيفة، وقال بينا يجلس على الأرض بجانبها:

- "أعتقد أن جمال منظرها في الليل و النهار متقاربان جدا، أليس كذلك؟"

- "بلى"

- "للشمس بهجتها، وللقمر سحره"

- "يقولون أنك مندفع، وهذا يتعارض مع ما تقوله..."

وتبسم القائد ليث ضاحكا:

- "لقد علمت با الذي حصل معك..."

والتفتت إليه خولة لبرهة قصيرة فرأت بريقا في عينيه الحادثين وهدوء في ملامحه الخشنة التي رسمت عليها المعارك بعض الندوب الصغيرة، وعادت تنظر نحو الاسفل.

- "أعتذر بالنيابة عن سيدي"

- "شكرا لك، لكن هل كان يضره لو قالها بنفسه؟"

- "يستحيل أن يفعل هذا..."

- "فإذن لا تفعلها أنت أيضا".

ورد ليث بعد مرور دقيقة كاملة:

- "ذلك العالم الذي أتيت منه، هل تخبريني أين يقع؟".

- "وهل سوف تصدقني؟".

- "نعم، طالما الأمير يفعل".

- "لا، لم يفعل".

- "بلى...".

- "لم يصدقني حينما كنت أصرخ طلبا للرحمة".

- "هل ستخبريني؟".

- وانتظرت خولة حتى سكن الإضطراب الذي هاج في داخلها ثم قالت والحنين

يغلف صوتها:

- "في الخارج، يقع عالمي خارج عالمكم، ببساطة... " ونظرت لأعلى: "أعتقد أنني

الآن عالقة بينهما".

- "هل حقا ليس لعالمك نهاية مثل عالمنا؟".

- "تقريبا، ليس له نهاية، لكننا لن نكف عن إيجاد أشياء جديدة كلما تعمقنا في

السير في اتجاه واحد".

- "آه، هذا لا يشبه أبدا ما يحدث هنا حينما نسير مطولا في اتجاه واحد، لكنه بحق،

يبدو أمرا بديعا جدا".

- "أجل..."

- "الآن هكذا، أنت تجعليني أرغب حقا في رؤيته..."

- "حقا؟"

وأطلق ليث ضحكة طويلة فاجئت خولة، بعد ظنها أن رجلا يحمل في وجهه ملامح حجرية كالتي يحملها القائد لا يمكن أبدا أن يخرج منه شيء كهذا، ثم إنه لملم تفاصيل وجهه وعدل خوذة رأسه وطفق يقول بعدها:

- "في الحقيقة أردت إخبارك بأمر ظننت أنك قد ترغبين في معرفته."

والتفتت إليه خولة بنظرات سائلة.

- "سوء التفاهم ذاك الذي وقع."

- "وتسميه سوء تفاهم."

- "عذرا، لكن مهما كان اسمه، طبعا قد أُخبرتِ أن سبب ما حدث لك هو أنك وُضعتِ موضع تهمة كبيرة... والآن أنت تعلمين بقصة الساحر الأكبر أليس كذلك؟"

- "أجل."

- "وتعلمين بقصة موت والدي الأمير أيضا؟"

- "لقد أخبرتني العجوز شيئا عن ذلك."

- "هذا جيد، فإذا سيكون إخبارك بهذا الأمر شيئا سهلا... حسنا، وكما أرى فأنت وسيدي الأمير جابر لم تعودا ترغبان في الحديث إلى بعضكما، ولهذا ارتأيت أن أطلعك على ما وقع بنفسي..."

- "هل طلب منك هذا؟"

- "ليس تماما، غير أنه أمدني بالمعلومات اللازمة... الآن إن كنت تذكرين فقد أخبرنا الأمير جابر في ذلك اليوم عن ظهور آثار أوراق غريبة كانت قد فقدت من كتاب الساحر الأكبر منذ زمن، وكان الساحر الأكبر قد عين جاسوسة لتبحث عنها قبيل موته، ولم تكن جاسوسة عادية، بل إنه أمدها بقوى خاصة، وظلت تلك الجاسوسة تطوف الأراضي الخمسة بحثا عن الأوراق وقيل أنها قد عثرت على إحداها وظلت تحملها معها بعد موت سيدها، وكان جميع الأمراء يبحثون عنها ويحذرون منها، فهي امرأة بارعة في القتل والتنكر، كما أنه لا يمكن للأمرء أن يقرأوا أفكارها مثلما يفعلون مع الآخرين في العادة، وكان الساحر الأكبر قد أمرها بالتخلص من كل من تجد عنده إحدى تلك الأوراق مباشرة بعد استرجاعها، ولهذا عندما أمسك الأمير جابر بمعصمك في ذلك اليوم وجد صعوبة في معرفة ما كنت تفكرين به بذلك التصرف عندما أدنيت منه الشراب بينما كان يفترض بك ألا تفعلني ذلك."

- "وما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟"

- "حسنا، هذا يعني أنك تمتلكين تلك المقدرة، المقدرة نفسها التي تتمتع بها تلك الجاسوسة والتي تمنع الأمرء من أن يصلوا إلى عقلها".

- "وهل لهذا علاقة بكوني من خارج هذا العالم؟"

- "أغلب الظن هذا، وإلا فليس هناك من تفسير آخر".

وبدت خولة مشغولة البال كثيرا حين نطقت بعد فترة:

- " لكن هل كان من الجائز أن تخبرني بكل بهذا؟".

- " طبعا، وإلا لما أخبرتك... ربما تفهمين الآن حجم الندم الذي يأكل قلب الأمير جابر حتى لو لم يظهره أمامك، ولو أنه لم يكن بحاجة للمجابر من هذا الشعور المؤلم."

قال القائد ذلك وقام واقفا بعدها، ونظر إلى السماء مطولا ثم غادر المكان تاركا خولة تغرق في دوامة من الأفكار المتلاطمة.

قضت خولة نهار اليوم التالي بأكمله في انتظار الأمير جابر لتتحدث إليه لكنه لم يظهر، وعندما كان الليل يحل مرة أخرى وكانت تجلس على سريرها بينا يأكل التفكير الزائد دماغها فقد ارتأت أن تلقي نظرة أخرى على باب باب غرفته، ربما تكون المرة الألف لهذا اليوم، لكنها وجدتها مشرعة هذه المرة، ومشت مباشرة نحوها.

كان المنظر من الشرفة الرئيسية بديعا، وواسعا، ويفضى إلى رؤية المدينة بكاملها، وكذا الغابة المحيطة بها، والجبال المظلمة البعيدة أيضا، تشربت خولة هواء نقيا خالته جدد روحها وعادت تقف أمام الطائر الصغير الذي ظل حتى اللحظة يقف على سور الشرفة بينا يحرك رأسه فكانت حدقتا عينيه الحادتين تتقافزان فيها دون توقف، وعندئذ وضعت خولة يديها على ركبتيها وانحنت لتنظر في عيني الطائر مباشرة، كانت عيناه صافيتان جدا، وكانت تقدر على أن ترى فيهما انعكاس صورتها، ولذلك ابتسمت ونسيت نفسها من شدة ما أدهشها جمال الغراب من مقربة، ولم تفق

إلا لما صاح فجأة في وجهها فأفرعها، وحينئذ تذكرت رشا، وتذكرت وصفها الدقيق للطائر حينما كانتا معا هناك في الأسفل، وقامت فنظرت نحو المدينة حيث ظنت أن يكون بمقدورها أن ترى موضع تلك الغرفة التي سجتنا فيها، وكانت المسافة تبدو أبعد كثيرا من أن تقدر عين إنسان عادي على أن تخترقها، وعادت بعد ذلك إلى الداخل وتوجهت صوب الصندوق الخشبي بعدما غلبها الفضول لرؤية ما بداخله.

أثنت ركبتيها على الأرض أمام الصندوق بهدوء ووضعت أطراف أصابع يديها على الغطاء وجعلت ترفعه عن مكانه بترؤ شديد جدا، وللحظة، ظنت بقلبها أن يخرج من صدرها لشدة خفقانه، ذلك أنه وفجأة، تناهى إلى سمعها صوت خطوات كانت تصعد الأدراج لأعلى.

ولج الأمير المقنع إلى غرفته وأغلق الباب خلفه، وجلس على سريره فأسند مرفقيه على ركبتيه وأسقط رأسه لأسفل كأنما قد ثقل عليه حمله، وبقي على تلك الحال قرابة ربع ساعة، حتى جاءت إحدى الفتيات تطرق الباب وكان من عادتها أن تضع له طعامه وتخرج مباشرة، غير أنه لم يأذن لها هذه المرة، وقد كان اسم الفتاة غزال، وقال لها:

- "لست أرغب في أن أكل شيئا يا غزال، شكرا لك..."

هكذا فقط، وارتدت الفتاة عائدة، ولمست خولة في آخر كلمة قالها بعض الطمأنينة، فلقد صارت تعرف الآن أنه بمقدور الأمير أن يقول شكرا، إن تطلب الأمر ذلك، وكانت خولة قد حشرت نفسها بداخل الخزانة بصعوبة بينا تركت شقا صغيرا

حتى تتمكن من رؤية ما يحدث، كانت تمسك بضلفتي الخزانة بيد واحدة بينما تضع يدها الأخرى على فمها حتى لا يصدر صوت من أنفاسها.

والآن رفع الأمير قطعة قماش كانت مطوية فوق السرير ومشى نحو الستائر فأبعدها يمنة ويسرة ثم أفرش قطعة القماش تحته مباشرة وقرفص عليها، وظل على ذلك الوضع لنصف ساعة، ثم تحرك فجأة ونزع قناعه بكلتي يديه ووضع جانبا ثم جعل ينزع درعه والثياب التي تحتها حتى تعرى نصفه الأعلى من جسده بالكامل، وبالرغم من أن خولة لم تكن تقدر على أن ترى سوى جزء يسير من ظهره الأمير إلا أن ما رآته قد جعل قلبها يخفق بشدة، وودت لو أنها تصير رمادا في تلك اللحظة، وأغمضت عينيها وجعلت تسب نفسها على دخولها الغرفة، ثم إنها سمعت حركة غريبة فعادت تسترق النظر كاتمة أنفاسها فرأت الأمير وقد أخذ ينكمش على نفسه ليغطي بطنه بذراعيه كأنما يعانق حبة هواء صغيرة، وصار يأتي من حلقه أنين موجه تماما كذلك الذي كانت تسمعه من غرفتها.

وتذكرت ما عرفته عن أن الأمراء إنما يفقدون شيئا بمجرد توليهم زمام الأمارة ووصولهم على قوى خاصة، وحينها فقط شعرت أنه ليس عليها أن تقلق لأجله، وهدأت نفسها، بعد أن كانت قد ساورتها رغبة لم تدري لها مصبا في أن تخرج من مخبأها وتهب لتسأله إن كان به خطب قد يشكا خطرا على حياته، لكنها الآن عادت تتنفس بهدوء شديد وراحت تركز النظر في الأمير بحدة أكبر، وبعد لحظات فقط، توقف الأنين وارتخت ذراعا الأمير فسقط مرفقاها على ركبتيه وارتفع وجهه صوب القمر

مباشرة، وظل على تلك الحال ساعة من الزمن، وأغمضت خولة عينيها فترة طويلة دون أن تشعر، وحينما فتحتهما مجددا، كان الأمير لا يزال على تلك الحال يطالع القمر جالسا دون أن يأتي بأدنى حركة، وكأنما روحه قد طلعت وبقي جسده متيبسا مكانه، وحينما مضت نصف ساعة أخرى، لم يكن هنالك ما تغير، لكن بدأ ألم شديد يسري في جسد خولة بسبب الوضعية الصعبة التي كانت عليها، حتى أن عيناها ذبلتا من التعب والنعاس وصارت تعاند جفناها كلما سقطا من تلقاء نفسها، في النهاية، لم يقدر جسدها على التحمل أكثر، فانزلقت بظهرها بهدوء على جدار الخزانة ونامت مرغمة.

عندما أفاقت خولة صباحا، كان أول شيء سمعته هو صوت ارتطام رأسها بباب الخزانة، وعندما تذكرت ما الذي جرى معها في الليلة الماضية، كان ثاني شيء فعلته أنا أعادت غلق الباب بسرعة، وأخذت تنتظر، لكن لم يكن ثمن من أتى نحوها، وحينئذ قامت على وجل ودفعت الباب ونظرت في أرجاء الغرفة، ولم يكن هنالك أحد، فما كان منها إلا أن تسللت مسرعة إلى غرفتها، وبين تغيير ثيابها وترجيل شعرها كانت قد انقضت نصف ساعة، ثم خرجت بعد ذلك وهي تختلس النظر يمينه ويسرة حتى نزلت الأدراج ومضت إلى المطبخ لتسكت جوعها، وبينما كانت تدلف سمعت الفتيات يتحدثن فيما بينهن في أمر فسألتهن بحسن نية:

- "من تكون سمراء هذه؟".

وما كادت تلقي عليهن بسؤالها حتى انتشرت في عيونهن رهبة، وبدون أنهن قد سكتن حتى عن التنفس.

- "هل كانت تعمل جارية هنا؟"

ولما كان في نبرتها ووقفها ما يوحي أنها لن تخوض في شيء آخر حتى تجد جوابا لسؤالها، فإن إحداهن تقدمت لتجيبها بشيء من الخوف والشجاعة:

- "أرجوك ألا تخبري الأمير بهذا، لن نعيدها ثانية، نعدك أننا لن نكررها."

ورددت أخرى خلفها:

- "أجل يا خولة، أبدا لن نعيدها مرة أخرى."

وهكذا، أصاب خولة من العجب الشيء الكثير الذي لم تستطع كتمه فاقتربت

منهن أكثر وقالت:

- "لكن ما الذي تتحدثن بشأنه، لماذا أنتن خائفات مني هكذا، وما الذي سأخبر

الأمير به؟ حقا أنا لا أفهم!!"

- "ألم تصبحي مقربة إلى الأمير جابر؟"

- "ماذا؟!!"

ردت خولة منفعلة، ثم هزت رأسها الآن في ضيق وقالت بنبرة حادة:

- "أخبرني من تكون سمراء هذه، والإلا..."

وأشعر تهديدها المصطنع الفتيات برهبة، فكان أن تقدمت نفس الفتاة التي

تحدثت أول مرة لتقول لها:

- "سمراء كانت خطيبة الأمير جابر، قبل أن..."

- "قبل ماذا يا سلوى، قبل ماذا..."

وكانت إحداهن تدخل سبابتها في ظهر سلوى حتى لا تقول أكثر من ذلك، غير أن سلوى هذه، كانت فتاة يغلبها لسانها.

- "إنها شقيقة الأمير أكثم، أمير أرض الرمال، لكنها غرقت في البحيرة، ولهذا أمرنا الأمير جابر بأن لا نتحدث في امرها حتى لو كان سرا فيما بيننا، لذا أرجوك ألا تخبريه شيئا، لأنه لو علم فسوف يعاقبنا بشدة، وقد يطردنا من القصر بعد ذلك."

- "حسنا، ولماذا فتحتن الموضوع إذا إذا كان قد أمركن بالسكوت عنه؟"

- "لأن الأمير عاد يجلس عند شجرة التفاح الكبيرة، ولم يكن يذهب إلى هناك منذ أن رحلت سمراء عن هذا العالم..."

- "دعي الفتيات وشأنهن يا خولة..."

كذلك دلفت السيدة نجلاء تقول بوجه حازم، وعيناها تشعان صرامة، وكان من نتاج ذلك أن تفرقت الفتيات عن يمينها وشمالها مثل حبات العقد حتى خرجن من الغرفة، وعادت السيدة نجلاء تقول في وجه خولة:

- "هل نمت جيدا البارحة؟"

واهتز داخل خولة لما سمعت هذا السؤال حتى شعرت أن شقا عظيما حدث في صدرها، وكانت قبل ذلك بحديثها المشوق مع الفتيات قد نسيت أمر الخزانة، وهاهي السيدة نجلاء تأتي لتذكرها، وأجابت بصوت رفيع بينا تنكمش نظرتها.

- "نعم، نمت براحة..."

- "لكنك تبتدين متعبة!"

- "لا، أبداً."

- "حسناً، عودي إلى أشغالك، وتوقفي عن الحديث في مثل هذه الأشياء التي كنت الآن تتحدثين عنها، ودعي الأمر لي فسوف أتصرف معهن بما ينبغي".

ظنت خولة في البداية أن السيدة نجلاء إنما صرفت الفتيات بنظراتها ربما لإلا ليخلو لها المكان فتسألها عن فعلتها بالليل وتوبخها، ولذلك فقد سارعت بالفرار من أمامها في أول فرصة سنحت لها ولم ترغب في إطالة الحديث أكثر، ولقد خافت أن تسمع السيدة نجلاء صوت خفقان قلبها المرتفع بينما تمر بجانبها، ووصل بها الأمر أن كتمت أنفاسها وهي تمشي مشية الهارب فكأن أحدهم يحركها بخيوط خفية من أعلى، توجهت صوب الباب مباشرة، ثم كانت تقف خارج القصر تلهث أنفاسها.

مع حلول المساء كانت خولة قد أعدت لنفسها خطة بديلة بعد أن لم تنجح بالليلة السابقة في رؤية ما يوجد بداخل ذلك الصندوق، ولذلك قررت هذه المرة أن تقوم بالأمر بطريقة تشبه أن تكون صحيحة، وكانت خطتها تقضي بأن تقف عند باب غرفتها بعد أن يجن الليل وتترصد غزال حينما تأتي بعشاء الأمير فتأخذه منها، وانتظرتها طويلاً حتى رأتها تصعد الأدراج فاستقبلتها بابتسامة خبيثة، وترددت غزال قليلاً في البداية، لكن نظرات خولة كانت أعند من أن تقدر غزال على غلبها، فناولتها صينية الطعام وعادت أدراجها نحو الأسفل بعدما أخبرتها أنه ينبغي عليها أن تتحمل نتاج نتاج هذا

الأمر في النهاية، غير أن وجه خولة عندما استدارت صوب غرفة الأمير وهي تحميل الصينية بين يديها كانت عليه مسحة انتصار مأكرة.

طرقت خولة الباب طرقتين فأثاها صوت الأمير من الداخل:

- "تفضلي يا غزال..."

ودخلت.

وكان الأمير قد جلس على سريره قبالة الشرفة واضعا قدميه على أرض الغرفة ومنشغلا في ملاعبة الطائر الذي كان يقف على معصمه، وبعد مرور دقيقة كاملة، لم تكن الباب قد أغلقت، وظن الأمير أن شيئا ما كان يمنعها من تفوه ما تود قوله، ولذلك ابتدرها قائلاً:

- "فقط قولي ما الذي تريدينه..."

واقشعر جسد خولة لحديثه، فلم يكن في وسعها - طوال وقفها - أن تتخيل بأنه قد عرفها منذ البداية، وإن ذلك أزعجها بالقدر الذي جعلها ترغب في أن تقلب الصينية على رأسه - ذلك أنها لم تكن قد وضعتها حتى اللحظة - ثم لا تلبث أن تنهال عليه ضربا بها حتى لا يعود قادرا على استعمال لسانه مرة أخرى، غير أنها تذكرت كم أنه ينبغي عليها أن تكون فتاة عاقلة، ولذلك فقد أنزلت الصينية بهدوء في مكانها ومشت حول السرير حتى وقفت منه على مقربة، وكانت قد عقدت يديها خلف ظهرها حين جعلت تنظر إلى الطائر كأنما للمرة الأولى وقالت:

- "هل لديه إسم معين؟"

- "لا".

- "لابد من أن يكون لديه واحد، عليك أن تختار له إسمًا".

- "لم أفكر من قبل في هذا".

- "هل يمكنني أن ألمسه؟".

- "لا...".

وترددت خولة قبل أن تضيف شيئًا، واشتد حنقها بسبب أجوبته السمجة - كما قد خيل إليها - وبدا لها أن تصف له رأيها في الأمر بكلمات صريحة واضحة المدلول والمعنى بحيث لا يمكنه حينما تلقفها أذناه أن لا تجعله يستشيط غضبا بعد ذلك، وحاترت في ما تفعله، لكن ولما كانت فتاة تجهل في كثير من الأحيان كيف ينبغي للمرء أن يُعمل عقله في كيفية التراجع عن أشياء لا يحسن المضي فيها، فإن ما فعلته بعد ذلك هو أنها التفت حول نفسها التفاتة عظيمة كاملة بحيث رأت كل جانب من جوانب الغرفة، وإن ذلك إلا لبيدوا تصرفها التالي الذي عزمت على فعله مقنعا بما يكفي:

- "لا أظنك ستغضب إن أخبرتك عن رأيي في الغرفة؟".

وكان رد الأمير أن قال بثقة بالغة:

- "ولا أظنك تعلمين أنني لم أرغب يوما في أن أسمع رأيا كهذا".

وأضافت خولة بعناد واضح:

- "تبدو سوداء وفارغة...".

ثم إنها سكتت بعد ذلك، ولما لم يُعقَّب الأمير على رأيها فمشت تخرج إلى الشرفة وجعلت تطل نحو المدينة.

بعد دقيقتين فقط عادت إلى الداخل، ووجدت الأمير مازال يحمل الطائر دون أن يمل من مراقبته.

- "ألا تخشى أن يفر عنك بعيداً؟"

- "من أين أتيت؟"

وفاجأها سؤاله بالقدر الذي جعلها تقف ذاهلة، لوقت قصير جيداً، قبل أن تتنصل من دهشتها فتجيبه:

- "هل تريد إجابة قصيرة... أم طويلة جداً؟"

- "يكفي ألا تكون مثل التي قلتها للطيبة."

وفهمت أن كل ما أخبرت به الطيبة خلال الأيام التي قضتها معها، لا بد يكون في رأسه المغلف أيضاً.

- "أصحيح أنه توجد أبنية عالية، قدر ما يعلو الجبل؟"

- "قدر ما يعلو السحاب أيضاً، إن عالمي متطور بحيث لا يمكنني أن أتوقف عن وصفه، كما أنه بمقدوري إخبارك بأشياء لا تقدر حتى على تخيلها، وأنت كما أعرف تعد من أعلم أهل هذا العالم."

ودت خولة بكلمتها الأخيرة أن لو ترى منه ما يثبت علو كعبها عليه في هذه المرة، بيد أنه ظل هادئاً يتأمل الغراب فوق ذراعه، وعندئذٍ مشت حول السرير إلى

الجهة الأخرى فيما يشبه أن شيئاً شد بصرها فجأة، فجعلت تثني ركبتيها عند الصندوق لتضع يديها عليه مثلما أنها تريد فتحه، وكانت قد عقدت عزمها قبل ذلك على ألا تغضب منه حين يبدأ في الصراخ في وجهها، فقط سبيل أن تشفي لهفتها برؤية ما يقبع بداخل ذلك الصندوق.

وبهدوء بالغ، رفعت من داخل الصندوق قوساً جميلاً بين راحتيها وأخذت تطالعه بسهو وعجب لشدة جماله، وقالت تسأله دون أن تبعد ناظريها عن القوس أثناء ذلك: - "هل هو لك؟".

غير أن الأمير لم يجبهها، كان هادئاً بشكل غريب جداً، ونظرت إليه خولة للحظة ثم عادت تتأمل القوس بينما تقلبه بين يديها، وحينها نطق الأمير يقول فجأة: - "هل أعجبك؟".

والتفتت تنظر إليه وفي عينيها ما يجيب سؤاله حتى قبل أن تتحدث: - "إنه جميل جداً، لقد أحببته".

- "هو لك إذن".

- "ماذا؟".

قالت تنظر إليه غير مصدقة لما تسمع فكان أن رأته يخلل ريش الغراب بأصابع يده بينما يبدو مستغرقاً في التفكير في ما يشبه أنه مستمتع بما يفعل، ثم عادت تنظر بداخل الصندوق إلى جراب القوس وكان فيه بعض من السهام ذات الرؤوس الحادة، لكن صوت رفرفة جناحي الغراب وهو يطير بعيداً جعلها تجفل وتكاد تسقط القوس

من يديها، وإذ قامت لتنظر الأمر على عجل فإنها وجدت الأمير وقد جثى على ركبتيه ويديه بينا يئن من الألم فكأنما سهم غرب قد أصابه فجأة، فهرعت نحوه بغير إرادة منها، لكنه صاح بها أن تبقى مكانها فلا تقربه أكثر مما فعلت، وحينما امتثلت لأمره ووقفت والرعب يدب في أوصالها، كان الأمير ينزع عن معصميه تلكما الجهازان اللذان سبق وأن خرج منها سيفان قصيران فرماهما بعيدا ويمم بيديه إلى ثوبه فجعل ينزعه بصعوبة، وفهمت خولة أن الأمر قد بدأ يعاوده، وسمعتة يصيح بعد ذلك نحوها بألم:

- "غادري الآن هيا!!"

وأجفلت خولة لما أحدثته صيحة الأمير في نفسها، فتركت القوس ومشت بعيدا عنه ووقفت عند الباب تتأمله بنظرات ذات شفقة، وكانت أنفاس الأمير تخرج مخنوقة يمكن سماعها، فكان يلهث ويخور مثل من سقط حجر في جوفه، ثم إنه نزع القناع الخشبي وجعل كأنما يريد أن يضع يديه على وجهه دون دون أن يفعل ذلك، فكأنما كان هنالك حائل خفي بين يديه ووجهه، وحينئذ غادرت حول الغرفة وظلت تقف طوال الليل عند شرفة غرفتها تطالع السماء بذهن شارد.

في اليوم التالي وبحلول العاشرة صباحا، كانت خولة عند البستان تقف أمام شجرة التفاح الكبيرة التي تحدثت عنها الفتيات فراحت تطالعها ساهمة، وكانت الفتيات قبل وقت قليل فقط قد نهينها عن أن تفعل ذلك مرات عدة، قبل أن تتركنها هناك لوحدها وتعدن إلى الداخل، ولم تكن خولة تبالي برأيهن في الأمر أبدا، ووقفت

تعصر دماغها لتجد صلة يمكن أن تكون بين شجرة تفاح وبين أميرة جميلة، لك حتى أتاها صوت الأمير جابر فجأة من خلفها:

- "أتريدين بعضا منه؟".

واستدارتخولة تقول فرعة:

- "لم أشعر بقدمك!!".

- "ليس في وسعك هذا".

قال الأمير جابر وأخرج من خلف ظهره القوس الذهبي والكنانة وكان بها بعض

السهم وجعل يرفعهما أمامها:

- "ألم أقل لك أن تأخذيهما؟".

وتذكرت خولة كيف أنها أسقطت القوس على السرير ونسيت أمره تماما لما رأت

ذاك الذي أصاب الأمير جابر في الليلة الماضية، وحينما قدرت أن تقول شيئا فإنها:

- "كنت قد نسيتته على...".

قالت وهي تتناوله إلى يدها بتردد، فرد عليها الأمير قائلاً:

- "إن أردت أن تأكلي من الشجرة فعليك أن تصيبي إحداها".

ثم طلب منها أن تستدير نحو الشجرة وتختار حبة تفاح وتحاول إصابتها، فأخرجت

خولة سهما بعد قليل من التفكير وركبته في موضعه وجذبت الخيط نحو عينها

وأطلقت.

كان جذع إحدى الأشجار البعيدة مسكن ذلك السهم الشارد، فطير عصفير كانت تحط على أغصان مختبئة، وحينما أنزلت خولة القوس محبطة، كان الأمير جابر يقول حينها:

- "لا أظن أنه كان بمقدوره أن يطيش أبعد من هذا، جربي مرة أخرى".

وأخرج خولة سهمًا آخر من الكنانة وجعلته في القوس ونظرت بتركيز شديد نحو الشجرة ثم أفلتت يدها.

والآن تقدم الأمير نحو الشجرة وهزغصنها فتساقطت حبات التفاح فحمل واحدة منها ورفعها بجانب وجهه والتفت نحو خولة قائلاً:

- "جربي الآن هكذا، أعتقد أن هذا سيساعدك".

وقالت خولة بتهكم:

- "وإن أصبتك، أفترض أن عقابي سيكون أشد هذه المرة، وعلى شيء لم أنوي فعله أيضاً!"

وهتف الأمير قائلاً:

- "لن نعرف أبداً ما الذي سيحصل إن لم تتوقفي عن..."

لكنه لم يتم كلامه، لأن السهم كان يشق الهواء متجهاً إلى وجهه في اللحظة التي كان سيقول فيها - عن التحدث - فمنعه من قولها، وبدل ذلك قال بعدما أنهت خولة صرختها وبينما هو ينزل السهم بيده من أمام وجهه:

- "هل أصابك الجوع الآن فقط؟".

- "أعتذر حقاً، أنا آسفة، آسفة..."

كذلك صاحت خولة بصوت مترجرج بعد أن تحول خوفها الذي ترجمته في شكل صرخة عظيمة إلى حرج، لكن رد الأمير جابر بث في نفسها طمأنينة ومسح عن صدرها كل ذلك دفعة واحدة حينما رد قائلاً:

- "حتى لو بقيتي طوال النهار تطلقين في اتجاهي فلن يمكنك إصابتي".

وبالرغم من أن رده قد طمأن قلبها من جهة، فإنه حرك فيه شيئاً من الغيظ أيضاً، حينما أحست من كلامه ذاك أنه يستفزها، ولذلك فقد عمدت بسرعة إلى الكنانة فأخرجت سهماً آخر وأطلقت نحو رأسه مباشرة، والتفت الأمير جابر نحو مسار السهم ليرى أين يمكن أن يكون قد ذهب، وبدا من الأوراق التي كانت تسقط من أعلى إحدى الأشجار القريبة أنه طار أبعد حتى من المرة الأولى، ثم أنه عاد فحرك رأسه يمنة ويسرة، فيما يشبه أن يأسأ أصابه، وأبدت ثم إنه مشى نحوها فأخرج سهماً آخر وجعل يضعه في القوس بينما يمسكه من فوق يديها:

- "ترين أول السهم، وآخره، وموضع الهدف، ثلاثة نقاط ينبغي أن تكون على استقامة واحدة، حاولي أن لا تنظري لأي شيء آخر..."

والحق أن خولة لم تكن تنظر لأي شيء، ولا حتى إلى للنقاط الثلاثة التي أشار إليها، بل إن كل ما كانت تراه حينها هو صوته الرشييق الذي لم تكن قد انتبهت لصفائه قبل هذه اللحظة، فصار بمقدورها أن تسمعه وتراه أيضاً، ودون وعي منها، وكانت

أصاب السهم جذع شجرة تقف خلف شجرة التفاح الكبيرة، وأيقظها صوته حين أتاها من بعد ذلك:

- "كما تشائين إذن، ستظلين طوال النهار هنا، والحال أنك ستبقين بلا طعام أيضا إن لم تقدرى على إصابتها".

وردت فيما تحاول أن تخفي ارتباكها:

- "وهل أن مجبرة على أن أصيبها؟".

- "أجل، أنت مجبرة، لم يكن هذا لمجرد المتعة، سيكون من الصعب عليك مجارة أمير أرض الرياح إن لم تقدرى حتى على إصابة شيء لا يود أن يدافع عن نفسه".

وأذهلها كلام الأمير حتى تبدى لك ظاهرا في عينيها، وحينما همت بأن تسأله،

رأته يستتلي قائلا:

- "لا أسئلة..."

قال ذلك بصرامة، ومشى يغادر المكان تاركا إياها في حيرة من أمرها، وحينما

خرج من البوابة الكبيرة ونظر خلفه، فقد كان هنالك طيور تخرج من فوق البستان تحلق

هاربة.

عوض

بحلول المساء واقترب المغيب راحت خولة تصعد الأدراج بعد أن تمكنت أخيراً من إصابة حبة تفاح من طريق الصدفة، وكانت ما إن تصعد جملة من الأدراج حتى تأخذ بصيدها نحو فمها للحظة ثم تعيده وقد أصبح أقل حجماً، بعدما لم تكن قد أكلت منذ عشاء الليلة الماضية شيئاً، وعندما وصلت لأعلى ووقفت بين العمودين اللذين يرفعان الشرفة الرئيسية فقد وجدت السيدة نجلاء تقف عند المدخل تعقد يديها في خلف ظهرها، وكانت تنظر إليها بصرامة في البداية، قبل أن تمحو تلك النظرة من وجهها وتبدلها بابتسامة لطيفة، وقالت تدعوها إلى الداخل:

- "كيف سار الأمر؟".

وردت خولة بأنفاس متعبة بعد أن:

- "لا أدري، لكنني وجدت شيئاً مسلياً لأفعله".

- "تقولين شيء مسلي، مع أنك تدركين أن..."

- "أنه لم يفعل هذا مع أي جارية من قبل، أجل أعرف..."

- "تعرفين هذا ولا تريدين أن تعرفي أيضاً لماذا يعلمك استعمال قوس خطيبته السابقة!!"

وجمدت دهشة مما تسمع، وطالعت المرأة بعينين واسعتين أكثر:

- "أنت لا تقصدين ما قلته الآن أليس كذلك؟".

غير أن السيدة نجلاء لم تفه بشيء لتجيبها، واكتفت بإطالة النظر في عيناها، وحين نظرت خولة إلى يدها، ليست تلك التي كانت تحمل ربع تفاحة، بل إلى يدها اليسرى، إلى القوس والكنانة، وأغمضت عينيها مطولا، فسمعت السيدة نجلاء تقول لها:

- "إن كنت تذكرين أين رأيتهما أول مرة، فحتمًا ستعرفين أن ما قلته صحيح تماما".

وفتحت خولة عينيها الغاضبتان وعادت تنظر إلى السيدة نجلاء وقالت:

- "لكنها رحلت، أليس كذلك؟".

- "أجل...".

وابتسمت خولة ابتسامة مصطنعة، فكأنما أجبرت على ذلك.

وأخرجت السيدة نجلاء يديها من خلف ظهرها ودنت من خولة وناولتها شيئًا في

يدها، وقالت:

- "ضعي منه غدا صباحا، قبل أن تذهبي إلى التدريب".

وتلقفت خولة كلامها بعينان تشعان حيرة:

- "لكن لماذا، ما حاجتي به؟".

ووضعت العجوز يدها على كتف خولة، وطفقت تقول برقة ظهرت جليا في تعابير

وجهها:

- "لأنك... يا خولة، آه منك يا ابنتي، لكنني سوف تعلمين في وقت لاحق، إنك

سوف تكتسفين الأمر بنفسك".

كان بريق يلمع في عيني السيدة نجلاء وبدا وكأنهما توشكان أن تذرفا دمعاً، ثم إنها عانقتها، ولم تعد خولة تفقه شيئاً، أو أنها لم ترد أن تفقه شيئاً، لكنها في النهاية أخذت هدية السيدة نجلاء وراحت نحو الأعلى فدلقت إلى غرفتها وألقت السهم والكنانة على الفراش وارتمت بجانبهما، ونظرت إليهما بعد لحظ وفكرت طويلاً، ثم شدها سحر السماء عبر النافذة، ولما كان الليل يرخي سدوله في ذلك الوقت وكانت تشعر بإرهاق شديد يسري في جسدها فقد أغمضت عينيها ونامت.

صباحاً، استيقظت خولة بعد أن نامت الليل بطوله، أنهت أشغالها سريعاً ونزلت السلالم مسرعة نحو ميدان البستان وهي تحمل القوس في يدها، ولاح لها الأمير جابر في الأسفل، كان يمسح على رقبة حصانه ساهماً، حين نادته بالأمر الأسود، والتفت نحوها مستغرباً، وكانت لا تزال ترفع ذراعها لأعلى، مثل طفلة صغيرة، فربت الأمير على وجه الحصان وراح يسبقها نحو شجرة التفاح الكبيرة.

وسألته إن كان هنالك شيء ما قد عكر مزاجه، فقال لا، وبعد أن صوبت قوسها نحو تفاحة بعيدة وأفلتت السهم وأخذت تتبّع مساره بعينها، كان هو لا يزال يطالعها، حتى إذا رشق السهم في مكان بعيد جداً عن الهدف والتفتت إليه لتسمع رأيه، فقد كانت عيناه المصلبتان في وجهها، من وراء القناع تبدوان رماديتان أكثر على غير العادة.

- "هل أنت بخير؟"

وأجابها مباشرة، بنبرة الأمير الذي يصدر أمراً:

- "لا تضعيه مجدداً".

وأجابت خولة بمكر خفي:

- "ما الذي لن أضعه مجدداً؟".

- "هذا الذي في عينيك، لا تضعيه مرة أخرى".

وسكن العالم من حولهما، وهبت ريح الصباح على شعرها فحركت أطرافه وحطته على كتفها، وبيننا يتأملان بعضهما بدم بارد، شخر الحصان من مكانه شجرة عظيمة، فنطق الأمير جابر قائلاً:

- "ستفشلين حتماً أمام الأمير شهاب إن لم تقدرى على إصابة تفاحة لا تتحرك".

وردت وهي تعود من شرودها:

- "ماذا؟".

- "إن الأمير شهاب يتخذ من النشاب سلاحه وهو ماهر به، وفي مستواك هذا، لن

تكون لديك أي فرصة".

وبعد أن أنصتت خولة بوقار بالغ، انفلتت تقول فجأة:

- "وما شأنى أنا بهذا الأمير وسلاحه، مهمتي تقضي باصطياد التفاح لا أكثر..."

ثم إنها أخرجت سهماً آخر وأسكنته مكانه، وظل الأمير يراقبها:

- "أرفعي يدك قليلاً..."

وكرر:

- "أكثر..."

- "هكذا؟".

- "لا، أنزليها قليلا...".

وأفلتت الخيوط فاخترت السهم وظهر على جذع شجرة قريبة كانت تقف طوال الوقت خلف الغصن الذي كانت تصوب نحوه، استقر السهم حاملا معه حبة تفاح خضراء صغيرة، ولما كان هذا هو كل ما أراد الأمير جابر من خولة أن تفعله، فإنه أحدث على وجهه المختبئ تحت القناع الأسود ابتسامة كان من يعرفه ليظن أنه قد نسي كيف يفعلها، لكنه أخفاها عن خولة دون أن تعرف أنه قد تبسم، وبعد نصف ساعة، نطقت خولة بعد أن أجهدتها الرمي دون أن تنجح في تحقيق إصابة أخرى:

- "هل لي أن أسأل؟".

- "نعم...".

- "هل يحدث معك ذلك كل ليلة؟".

وانتظر الأمير لبرهة كأنما يفكر، ثم رد قائلا:

- "إذا تأخرت فقط".

أنزلت القوس ببطء واستدارت نحوه:

- "تتأخر عن ماذا؟".

- "لا شيء، دعك...".

- "هل هذه ضريبة أن تكون أميرا؟".

- "ليس تماما...".

- "ماذا تعني؟"

- "قلت دعك... الآن أخبريني أنت، هل الشمس حقا تبدوا ككرة كبيرة، في الخارج؟"

- "هل تخبران بعضكما بكل شيء؟"

- "الطبيبة أمينة سري..."

- "هذا واضح... أخبرتها عن الأمر لكنني لم أجبها، حسنا، هي مثل كرة لهب عملاقة..."

- "إلى أي درجة؟"

- "إلى..."

ولم تجد خولة ما تقوله.

- "القمر؟"

- "هو مثل صخرة كروية كبيرة، بمقدورنا أن نصعد إليه ونسير عليه بأقدامنا..."

- "أنت هل فعلت؟"

وانفلتت خولة ضاحكة.

- "لا، أبدا... لم تتح لي الفرصة..."

- "حسنا، ماذا عن الأرض التي تعيشون عليها، أحقا تستمرون في إيجاد أشياء

جديدة طالما تمشون في اتجاه واحد؟"

- "أمم، لا أدري تحديدا لكن في النهاية سنكون قد عدنا إلى نفس النقطة..."

- "إذن فهي مثل أرضنا، غير أنها أكبر".

- "لا أبدا، سوف نعود لنفس النقطة، لأنها كروية..."

وبدا الأمير مهوما لا يصدق ما يسمع.

- "لا تفكر في الأمر كثيرا، فحتى في عالمي يوجد من لا يصدقون بهذا، حتى لو تم

تعذيبهم".

- "حسنا، ربما هذا يثبت وجهة نظرهم!!"

- "ربما، لكن لا..."

واستلقى صمت ثقيل بينهما، وجعلا يحدقان بنظرات متحدية، وقال الأمير بعد

ذلك:

- "ما هو الجليد إذن؟"

- "ما هو الجليد؟، أحقا لا تعرفه..."

واستمر ينظر في عينيها صامتا، ومسحورا بجمالها، قالت:

- "ألا تسقط الثلوج هنا؟"

- "ثلوج ماذا؟"

- "أتعلم، دعنا من كل هذا، لنعد إلى السهام ما رأيك؟"

- "لا، أجيبني عن هذا أولا!"

...

- "ما بك؟"

- "لا شيء... يأتي الثلج من السحب، مثل المطر أيضا، غير أنه يكون خفيف الوزن وبارد الملمس، مثل الأوراق البيضاء الصغيرة..."

- "مثل الأوراق البيضاء الصغيرة!"

- "أجل."

...

- "أيكفيك هذا؟"

- "لا أقدر على تخيله."

- "ألم يحدث أيضا وأن تجمد الماء هنا؟"

- "ما الذي تعنيه بأن يتجمد؟"

- "أن يصبح صلبا مثل الصخرة!!"

- "أتهزئين بي؟"

- "لا..."

...

- "لهذا أخبرتك بأن نعود إلى القوس، فذلك أحسن..."

قالت خولة وأخذت بقوسها نحو الشجرة، بينما ظل الأمير يراقب عينيها

المكحلتان بارتباك تمكن من إخفائه.

شجرة التفاح

مضى أسبوع كامل على اليوم الذي أسقطت فيه خولة أول حبة تفاح من على الشجرة الكبيرة، ولم تزل على تلك الحال تتدرب نهارا على صيد التفاح تارة وركوب الخيل تارة أخرى حتى يأتي المساء فيأخذ منها التعب مأخذه ثم تعود إلى القصر لتأخذ قسطا من الراحة، فإذا أتى الليل كانت تخرج إلى الشرفة لتستشق الهواء وتطالع المدينة، تحت دجنة السماء المنقطة بالنجوم اللامعة، وكان ذلك أكثر شيء أحبته في هذا العالم، إن السماء هنا تبدو أكثر هدوءا من سماء عالمنا، كما أنها تبدو أكثر صفاء وبراءة، وإن ظلامها يبدو أقل قسوة.

بعد مرور بعض الأيام كان جزء كبير من جبل الجليد الذي بينها وبين الأمير قد ذاب و تكسر، حتى أنهما افترقا ذات مساء عند البستان بعدما تمنيا لبعضهما ليلة طيبة، وهذا لم يكن قد حدث من قبل أبدا، يبقى أن خولة عندما أغلقت باب غرفتها في تلك الليلة فإنها استندت عليها وتحسست موضع قلبها بيدها، ولم تصدق أبدا ما الذي باتت تفعله، وحين كان منتصف نهار اليوم التالي وكانت ترفع القوس نحو أعلى

الشجرة، فإنها تذكرت شيئاً، وكانت عزمت في نفسها على أن تحدث فيه الأمير حتى لو كان ذلك سيغضبه، ولم تغفل السهم وأنزلته نحو الأسفل، وقال الأمير جابر يسألها وكان يقف بجانبها يعقد ذراعيه على صدره يراقب ما تفعل:

- "لماذا توقفت؟"

وحاولت خولة أن تقول ما أرادت، غير أن البياض في عيني الأمير قد شد لسانها، ولم تقدر على أن تنطق بحرف واحد، فعاد يسألها:

- "ما الذي حلّ بك، لماذا تنظرين إلي هكذا؟"

- "لا شيء.."

- "عودي إلى التدريب إذن!!"

وأخذت بالقوس عالياً وساسته نحو الموضع الذي كان قد طلب منها الأمير جابر إصابته، ونفذ السهم من يدها يشق الخواء بينا أغمضت عينها:

- "هل تشتاق إلى الأميرة سمراء؟"

قالت ولم تكن قد فتحتهما، ربما خوفاً من رد فعله، غير أنه قال يرد بصوت ليّن هادئ، وكان ذلك بعد فترة صمت طويلة ظننتها خولة لن تنتهي:

- "لماذا تريدان أن تعرفي؟"

واستدارت تقول بجرأة، أيضاً بلطف بالغ، مخافة أن تفسد الأمر طالما يسير على نسق جيد:

- "لا شيء محدد، فقط أريد أن أعرف، و... إن كان هذا لا يزعجك أو يسبب لك أي حرج فأرجو أن تخبرني كيف فقدتها..."
 - "وتظنين هذا لن يزعجني ولن يسبب أي حرج؟"
 - "ربما..."

بعد أن جلسا إلى جذع شجرة، بدا الأمير مستغرقا في التفكير، ولم تشأ خولة أن تطرح عليه السؤال ذاته مرة أخرى، وظلت تنتظر، وكان قد أمسك عنها القوس فجعل يغرسه في الأرض ويدوره بأصابع يده، وقال بعد لحظة:

- "قريبا من أرض الماء توجد بحيرة صغيرة لكنها جميلة جدا، مائها صاف كما أنه يمكن رؤية الصخور في قعرها فهي ليست عميقة، غير أن مائها مالح بصورة غير طبيعية، ولأن البحر قريب من هناك فإن الناس لا يقصدونها كثيرا... كنا نذهب إليها من وقت لآخر لقضاء وقت ممتع بعيدا عن زحام الناس، ولأنها عاشت وسط الرمال فإنها كانت تحب الماء كثيرا، وكانت تحب أن تسابقني رغم أنها كانت تخسر دائما، لكن في تلك المرة... نظرت خلفي لأرى كم كنت أسبقها لكنها لم تكن موجودة..."
 لاحظت خولة في صوت الأمير رعشة كان يخفيها، ثم أنه توقف عن تحريك القوس بيده، ولم تشعر إلا وعيناها تأخذان في الإمتلاء شيئا فشيئا، فمررت إبهامها على طرفيهما وعادت فحوطت ركبتيها بذراعيها وراحت تسمع:

- "كنت أسبقها بأمطار قليلة، وكانت تصرح نحوي تطالبني بانتظرها وهي تضحك، كان صوتها يختلط بالماء إذا تحدثت، لكن بعد مسافة لم أعد أسمع صوتها، ظننت

أنني سبقتها بمسافة كبيرة، مع أنها كانت تتقن السباحة بشكل بارع، وعندما توقفت ونظرت خلفي لآتفقدتها... لم تكن موجودة، فعدت وبحث عنها، كانت ترقد ميتة في قاع البركة بينما تنظر عيناها نحو الشمس مباشرة...”

الآن فقط سقطت من عين خولة عبدة دافئة وذابت فوق حجرها، فلملمت أنفاسها

خفية وقالت:

”- لكن كان يفترض بك أن تكون قادرا على سماع صرخاتها إن كانت تغرق، أليس

كذلك؟”

- ” كان يفترض...”

- ” أتعرف... ” قالت تعدل جلستها لما تذكرت أمرا ظنت لوهة أنه ينبغي عليها ذكره، وأبعدت خصلات الشعر من على وجهها وأردفت: “ في عالمي يوجد بحر مالح أكثر من غيره، نسميه البحر الميت، لأنه لا توجد حياة بداخله... لا أعرف إن كان في ما سأقوله أي فائدة لكن... يقولون أنه يستحيل على أي شخص أن يغرق فيه، حتى لو أراد ذلك...”

وانتبه الأمير لحديث خولة فجأة، وبدا وكأنما قد أصابه ذهول مما يسمع، فطفق

ينظر في وجهها مباشرة وقال بحدة:

- ” لماذا... لماذا لا يمكن الغرق فيه، أخبريني؟”

ولما كان رد فعل الأمير جابر بتلك الطريقة، فإن خولة أوجست في نفسها خيفة

وهي ترى في عينيه غضبا يصطع:

- "اهدأ، ما الذي أصابك..."

وصاح في وجهها:

- "تحدثي!!"

وتلكأت خولة للحظة ثم نطقت تقول بصعوبة:

- "لأن... لأن ملوحة مائه أكبر، أكبر من ملوحة البحار الأخرى بسبع مرات على

الأقل، أي أن كثافة مائه كبيرة جدا، ولذلك تطوف فيه الأشياء بسهولة..."

- "أنت متأكدة مما تقولينه؟"

وابتلعت خولة ريقها، وودت لو تسأله أن يتراجع إلى الوراء قليلا فردت بسرعة:

- "أجل..."

وهنا ضغط الأمير بقضبته على القوس حتى كاد أن ينكسر، وأجفلت خولة من

ذلك، ولم تشعر إلا والأمير يناديها لتتبعه بينا يذهب نحو القصر والغضب ينفجر من

تحت خطواته.

غرق

بعد بضعة دقائق ظهر الأمير جابر وخلفه كل من خولة والقائد ليث يخرجون من القصر في ثياب حرب وراحوا ينزلون الأدراج حتى إذا كانوا عند مربط الخيول القريب من البستان فإن كل واحد منهم عمد إلى لجام حصان فأخذه بيده وانطلقوا عبر البوابة الكبيرة وخلفهم كتيبة حربية في عشرين فارس يرتدون دروعا سوداء جعلوا يتبعونهم من خلفهم مثل موج مظلم، وكانت خولة تسأل نفسها مثل أولئك الفرسان تماما، عن الذي يحدث، فلم يكن لدى أحد منهم - عدا الأمير جابر - فكرة عما خرجوا لأجله، ونظرت خولة إلى نفسها، وكانت السيدة نجلاء - تحت طلب الأمير جابر - قد ألبستها ثوبا أزرق اللون سماويا، وإلى حزام من الجلد الأحمر يعبر صدرها ويثبت القوس والكنانة على ظهرها، وعادت تنظر إلى الطريق أمامها، ولم تكن تسمع غير شخرات الجياد وطققات حوافرها على حجارة الطريق بينما يقعون شوارع المدينة إلى أن خرجوا إلى طريق كبير يتفرع إلى عدة طرق صغيرة، وتذكرت خولة الطريق التي أتت منها أول مرة، لكن الأمير جابر شد لجام حصانه نحو غير تلك الجهة، وحينئذ قال القائد ليث وقد كان حصانه يركض قريبا منها:

- " طريق الشمال، وجهتنا هي أرض الماء كما يبدو. ..."

وراح الأمير بعد ذلك يشق بهم الطريق عبر الغابات المكتتضة، فكانوا تارة يرون قمم الجبال البعيدة عبر سماء لا تنتهي، وتارة أخرى لا يرون حتى زرققتها بسبب تعانق أغصان الأشجار فوق رؤوسهم.

أثناء المسير صادف الركب شتى أنواع الأراضي والطرق، فمن الدروب الوعرة و الفتحات الضيقة، إلى السهول الواسعة التي تتخللها مزارع وبيوت صغيرة تصعد من أعاليها خيوط أذخنة متعرجة، فكانت خولة تلاحظ أنه كان يظهر أمام تلك الأخواخ من وقت لآخر بعض الأطفال يلوحون بأيديهم، فما يلبث حتى يأتي أحد الكبار نحوه فيمسكه مسكة شديدة من ذراعه ويدفع به إلى الداخل، لكن بعد بضع ساعات ظهرت أمامهم جبال متوسطة الارتفاع فجعل الأمير يخفف من سرعة تقدمهم، وأخذت الخيول تمشي الهوينى بينا تهز أذيالها، وعاد القائد ليث فأخبر خولة بأنهم ما إن يجتازوا هذه الجبال حتى يكونوا قد وصلوا إلى وجهتهم، وراحوا بعد ذلك يشقون طريقهم خلال معتك من الأشجار والصخور الوعرة، وكان عليهم - وفي مرات عدة - أن يعبروا فوق أنهار صغيرة تجري مياهها باردة من تحت حوافر الخيول النشطة.

عندما مالت الشمس عن كبد السماء واشتد حرها، كانوا قد عبروا الجبال إلى الجهة الأخرى حيث وقفوا عند تل واسع واصطفوا جميعا على سفحه يطلون على ما يقع أسفل منهم، فكانوا ينظرون إلى مساحات شاسعة تكتنفها أشجار كثيرة لا تنتهي، ومكثوا على تلك الحال فترة قصيرة حتى صاح القائد ليث في حصانه وانطلق مثل الريح خلف الأمير جابر الذي كان بالفعل قد سبقهم بمسافة كبيرة.

نزلوا إلى ما يبدو وكأنه مدخل لتلك الأجمات المكتظة، ومشت الخيول الخبب على الأرض المفروشة بأوراق الشجر والظلال الباردة، حتى خرجت بعد ذلك إلى سفح يطل على بحيرة صغيرة ذات صفاء هائل كانت تقبع أسفل منهم، وحينئذ دنت خولة بفرسها بقرب الأمير جابر وقالت والدهشة تلف نبرتها:

- "أهذه هي البحيرة؟".

ورد الأمير وكأنما في نفسه ثقل وتعب.

- "إنها هي، أجل...".

كان ثم - رغم الشمس التي كانت تشرق فوق رؤوسهم - هواء بارد ونسيم عليل يمر على وجوه الفرسان اللذين ابتهجت أنفسهم وانشرحت لمراى البحيرة، كانت زرقاء مثل السماء ونظيفة مثل دمعة، وجميلة مثل جنة، وأما خولة فاضطرب قلبها لذلك المنظر، وخُيل إليها للحظة أنه إنما قد أصابتها غيرة، وخزرت الأمير جابر، فكان ينظر شاردة تبدو عليه رشقات حزن عظيمة، مثلما أن فيضا من صور قديمة راح يتدفق ويتدافع في صدره بغير توقف.

بعد مرور بعض وبينما الجميع ساهمون في منظر البحيرة، أتى صوت الأمير ليفظ خلوتهم تلك حين صاح فيهم قائلاً وهو يحاول كبح جماح فرسه:

- "من منكم لا يتقن السباحة؟".

ولم ينطق أي أحد، ولذلك استدار نحو الفرسان يطالعهم لكن وقبل أن ينطق بكلمة أخرى فإن أحد الفرسان ترك حصانه وراح يخرج من بين الجميع وقال بينا يتقدم نحوه:

- "أنا يا سيدي، أنا طوع أمرك..."

ونطقت خولة تخاطب الأمير معترضة لما فهمت ما كان ينوي فعله:

- "أنت لا تنوي أن تطلب منه هذا أليس كذلك، فلسنا متأكدين من أن نفس الأمر ينطبق على هذه البحيرة؟"

ولم يحر لها الأمير جواباً، إنما استرسل في النظر إلى البحيرة لوقت قصير ثم ترجل عن حصانه وتقدم رفقة الفارس نحو الحافة بحيث لو وضع أحقداً أخرى فإذن لهوى نحو الأسفل.

- "هل تثق بي؟"

- "أجل يا سيدي..."

- "أريد منك أن تقفز إلى الأسفل..."

وكان من أثر ما قاله الأمير أن انطلقت همهمات من صفوف الفرسان اللذين كانوا يراقبون الأمر قبل ذلك صامتين مثل الحجارة، ثم إنهم رواحوا يتخازرون فيما بينهم، وجذبوا ألجمة خيولهم التي اضطربت فجأة لمحاولة تهدأتها، كان من وقع كلامه أيضاً أن خولة زمت شفيتها بغضب، وراحت تطالعه بدهشة غير مصدقة، هذا

بينما ظل القائد ليث على وقفته لا يحرك ساكنا، ينظر بعينين متقدتين إلى أميره، وكله ثقة فيما يفعل.

نظر الفارس لأسفل فرأى لوحا زجاجي اللون جميلا يتلألأ عليه قياء الشمس في شكل نقاط ذهبية، بينما ترقد أسفل منه صخور زرقاء وحمراء وبيضاء مرمرية، وبعد قليل من التفكير وضع الفارس قدميه في الهواء وراح ينزل نحو الماء مثل صخرة كبيرة.

كانت خولة قد أغمضت عينيها منذ اللحظة التي رآته يخطوا فيها نحو الحافة وكتمت أنفاسها، وإن راحت الآن تفتحهمت فلأن صياحا قويا راح ينبعث فجأة من الأسفل، وترك ليث حصانه وركض نحو الأسفل، ووجد الفارس يرقد على الماء مثل سلحفاة انقلبت على ظهرها.

عندما دارت الخيول حول التل ووصلت إلى الأسفل كان الفارس قد خرج إلى طرف البحيرة وجلس على الحصى يعصر ثيابه أمام القائد ليث الذي كان قد وقف قبالتة واضعا على وجهه ابتسامة عظيمة.

شرد الأمير جابر في ماء البحيرة لبضع دقائق، وبينما تعصف في قلبه ذكرى الحادثة الأليمة، راقبته خولة بنظرة شفقة، وعندما شعر باقترابها منه قال فجأة:
- "لقد كنت محقة..."

ولم تفهم خولة ما الذي يريد من كل هذا، ولم تكذ تفكر فيما ينبغي أن تقوله حتى صاح الأمير في فرسانه أمرا ثم أسرع إلى حصانه فامتطاه واستدار به نحو خلخلة

الأشجار يهز اللجام بقوة كي يدفعه للعدو بسرعة، وانتفض جيشه الصغير يتبعونه من خلفه، وطلب القائد ليث من خولة ألا تشرد هكذا، وشق الركب بعد ذلك طريقه عبر ظلال الغابة، تحفهم الأغصان الممتدة وخشخشات الحيوان وسيوف الشمس التي ظلت تنزل عليهم منيرة مضيئة من بين أكمام الشجر .

القصر الأزرق

بعد ساعة أخرى دخل الركب أرضا بطحاء مرخية، فبانت لهم بيوت وأكواخ متفرقة، ومزارع وحيوانات ترعى، وأناس يرتدون ملابس رشيقة وينظرون بعيون ماكرة، ثم كان في الطريق أمامهم معسكر صغير لبضعة عشر رجلا يرتدون ملابس الحرب قد وقفوا يشهرون رماحهم الطويلة، ولما كان الأمير جابر هو أول الواصلين عندهم، ولما كانت صورته محفوظة لدى كل من تصله أخبار الحرب بطريقة أو بأخرى، وكان عليهم أمر من أميرتهم، فإنهم قد زحلوا من طريقه مثل فريق نمل نزل أمامه إصبع، ذلك بعد أن أدى قائدهم إشارة صغيرة برأسه.

سار الركب بين الناس والأكواخ التي راح يكثر عددها شيئاً فشيئاً حتى دخلوا قرية عظيمة مترامية الأطراف مكتظة بالناس ومروا عبرها حتى أتوا على شاطئ البحر فتوقفت الخيول عند جسر خشبي كان يقف عليه حارسان قويان وكان ينطلق من اليابسة نحو البحر يشقه إلى مدخل صرح عظيم حارت له الأعين لشدة جماله،

كان قصرًا مشيدًا وسط المياه ذا لون أزرق بديع تعلوه أبراج زجاجية ذات قباب حادة وأعلام عليها مخلوق غريب يشبه التمساح ظلت ترفرف فوقها.

نزل الأمير جابر عن صهوة جابره ومشى يتبعه كل من ليث وخولة وأربعة فرسان من اللذين معه بينما بقي الآخرون على ظهور جيادهم يحكمون قبضاتهم حول الرماح في ترقب.

وكانت خولة قد توقفت للحظات تطالع شيئًا كان قد أثار اهتمامها وكان يقف على مسافة قريبة من الشاطئ ثم لما شعرت أنها بقيت لوحدها راحت تتبعهم، وراحوا يتقدمون نحو الجسر وما إن اقتربوا منه حتى هرع أحد الحارسين يسأل الأمير جابر أن ينتظر قليلاً ريثما يطلب الإذن من سيده لكن ولما كان يتملك هذا الأخير من الغضب ما لم يقدر على كبحه فقد عمد إلى ذلك الحارس فلكمه على وجهه لكمة سريعة أفقدته توازنه فسقط مغشياً قد تعوج فمه، وإلى الثاني وكان قد تحرك لنصرة صاحبه فأخذ عنه رمحه بخفة بالغة ثم ضربه به على رأسه ودفع به من فوق الجسر إلى الماء وأكمل سيره ليقطع الجسر نحو المدخل.

حتى هذه اللحظة كانت بوابة القصر مغلقة، وكان فوق الأسوار جنود ورماة سهام يراقبون ما يحدث، وما إن صل الأمير جابر عند البوابة أسفل السور ونظر لأعلى نحوهم، إلا ودوى صوت البوق عاليًا، وتحرك مصراعي البوابة ليحدثا صوتًا قويًا مثل أزيز بوابة قلعة قديمة.

لم تشيع خولة ناظريةا من رؤية القصر من الخارج، لكنها بدل ذلك رأّت كيف أن اللذين وصفوا لها قوة الأمير جابر قد كانوا صادقين جدا في حديثهم، وبهذا فلم يعد لها من سبب لأن تشكك في قدراته، حتى أنه مر عليها لحظات بعدما ضرب الحارسان مباشرة حيث شعرت فيها برهبة منه لما راحت تطالعه من خلفه بينا تسري في جسدها رعشة.

الآن بمشية سريعة، ونظرات ساحقة، دفع الأمير جابر باب الديوان بغضب وقوة ودلف إلى قاعة فسيحة مزينة جدرانها بالعقيق والمرمر، ولها أرض من زجاج أزرق وسقفها مطرز بأشكال حيوانات بحرية ذات ألوان ساطعة، ثم راح يحث الخطى على بساط حريري أخضر كان يمتد بين صفيين من الفتيات الجميلات اللواتي كن يضعن أيديهن على خناجرهن المعلقة على خصورهن المنحوتة وينتهي عند عرش عظيم مصنوع من الزجاج والياقوت كان يقف في آخر القاعة.

وصل الأمير جابر إلى العرش بنفس الهيجان الذي كان عليه فمد ذراعه نحوه حتى طوقت أصابع يده شيئا في الخفاء لم يكن بالأمكن رؤيته، وضل يضغط عليه حتى انطلقت من ذات الموضوع أصوات هنده لشخص يختنق، ثم صوت لين لامرأة تنطق بأحرف متقطعة، وحينئذ استلت الفتيات خناجرهن بسرعة، وكذلك فعل كل من ليث وخولة والجنود الأربعة، وكانوا جميعا على وشك أن يهاجم بعضهم بعضا غير أنه جاء صوت من عند العرش جعل الفتيات يتراجعن ويعدن خناجرهن إلى خصورهن في غيظ شديد جدا.

لم تفهم خولة ما الذي كان يجري من حولها، فقد كان كل شيء يبدو مبهماً وغير منطقي أبداً، لكن في لحظة عاد الصوت من عند العرش مرة أخرى وراحت تظهر من تحت يد الأمير جابر أشرطة خضراء كاشفة عن فستان زهبي من سندس أخضر بديع تجسد منتصباً أمام العرش تماماً، وبين ذهول خولة وانقباض قلبها مما ترى، صاح الأمير جابر في الشيء الذي أمامه صيحة عظيمة ندت منها رجفة وحزن ساحقين:

- "لما قتلتها أيتها اللعينة؟"

وأتى الصوت المختنق من ذات الفستان مرة أخرى:

- "لأنها كات.. كانت.. تعمل.. كجا.. سوسة.."

كذلك ردت أميرة أرض الماء بصوت ضعيف مختنق، فيما تمسك يداها الخفيتين بذراع الأمير جابر وتحاولان إبعادها وتحرير رقبتها العالقة التي كانت تشعر بأنها سوف تنكسر، ثم أردفت بصعوبة:

- "لقد أرسلها شقيقها لتت.. جسس علينا.. على كلينا.."

وذهل السامعون مما تقوله الأميرة، وكان وقع كلامها على سمع الأمير جابر مثل كذبة صلبة أصابت طبلة أذنه، فاشتد غيظه واشتعلت عيناه، وعاد يصرخ بقوة أكثر من ذي قبل:

- "أيتها الكاذبة، أخبريني الحقيقة والإلا.."

فردت الأميرة هند بصعوبة:

- "لا.. أقول غير.. الحقيقة.. أقسم.. لك.."

وأقلت الأمير جابر رقبتهما وأنزل ذراعه عنها تاركا إياها تتنفس بينما لم يزل يحدق نحو العرش بعينان تتقدتان باللهب.

خلف هذا المشهد كانت خولة في حالة من الذهول لا تحسد عليها وهي ترى فستانا من حرير يقف لوحده ويتحدث، يتحرك تلقائيا كما لو كان بداخله شيطان يلبسه، لكنها قررت في لحظة ما أن تتماسك ولا تدع مجالا للشك في أمرها، وأن تواصل لعب دورها في القصة، نظرت إلى القائد ليث فوجدته يقف بثبات وثقة، فأخذت تنفسا عميقا وعادت تراقب الأمير وكان قد عاد للصراخ مرة أخرى.

- "أخبريني بما تعرفينه حالا وإلا..."

وأجابته الأميرة الخفية:

- "أخطأت حين ظننت أن زيارتك ستكون أكثر رقة، فلم تزني منذ سنوات مضت، على أية حال سوف أخبرك بحقيقة الأمر" قالت ذلك ثم جلست على عرشها وأردفت لتسترد أنفاسها وأردفت: "الأمير أكثر من ليس صديقك المخلص، بل هو من أشد أعدائك، وشقيقته سمراء لم تكن تبادل لك الحب كما كنت تعتقد..."

ضيق الأمير جابر عينيه وركز بصره في العرش أكثر، بينما استتلت الأميرة تقول:

- "لقد كانا يعملان مع الأمير آرون في الخفاء ضدنا."

- "ما الذي تقويله؟"

- "أقول أنني فعلت الصواب ولا شيء آخر، لقد أنقذتك..."

- "أنقذتني مماذا تحديدا؟"

- "من خيانة كبيرة كانت تحاك ضدك، فلقد أمسكت في ذلك الوقت بأربعة جنود تابعين لأرض الرماد بعدما حاولوا التسلل إلى قصري، وأجبرتهم على التحدث..."
- "وإذن؟".

- "اعترفوا تحت التعذيب بأن الأمير آرون أرسلهم للتجسس، ليس هذا فقط، بل إنه متواطئ مع صديقك الأمير أكتهم".

- "متواطئان من أجل ماذا؟".

- "لا أعرف بشأن أمير أرض الرماد، لكن أكتهم سعى لأذيتك".

- "أكتهم لا يمكنه أن يفكر في أذيتي".

- "بلى، لقد طلب من سمراء أن تتخلص منك في وقت ما، وبمجرد أن علمت بتواطئهما مع الأمير آرون قمت بالتخلص منها عندما سنحت لي الفرصة".

- "منذ متى تعرفين كل هذا؟".

- "منذ أمسكت برجال آرون وهم يحاولون التسلل إلى قصري قبل ذلك بفترة قصيرة، ثم إنني رأيت في عقولهم أن سيدهم أمسك بالجاسوسة وهي تتجول قريباً من أرضه وقام بقتلها منذ فترة طويلة، كما أنه قد عثر على شيء ثمين جداً كان معها واستخلصه منها..."

- "أي شيء تقصدين بقولك؟".

- "لست متأكدة، لكن أغلب ظني أنها إحدى الأوراق الضائعة، ما أعرفه وأؤمن به

هو أنّ لدى الأمير آرون يدا في ارتفاع ظاهرة موت القرى في السنوات الأخيرة..."

وقاطعها الأمير جابر وقد هدأت نفسه لما دخل حديثها منعرجها آخر:

- " هذا يعني أن الساحر الأصغر عندما طلب منا البحث عن الأوراق فقد كان على يقين من أن واحدا منا على الأقل يمتلك إحداها، لكنه لم يستطع تحديد شخصه بشكل قاطع. "...

- " أجل، صحيح ما تقوله... استدعانا في ذلك اليوم لأنه تأكد من موت جاسوسته، ولذلك كان غاضبا جدا لأنه خسر فرصته الوحيدة للعثور على الأوراق واسترجاعها، في النهاية، لم يكن يفكر سوى في مصلحة الأراضي الخمسة، لمعرفته بما يمكن للأوراق أن تسببه من ضرر إن هي وقعت في الأيدي الخطأ. "...

- " حسنا، لماذا لم تخبريني قبل الآن بكل هذا؟ "

- " لأنني لم أكن مضطرة. "...

قالتها بشيء من العجرفة، مادفع بالأمير جابر لأن يغير من نظرتة إليها، فزادها حدة، غير أنه كان رجلا يملك عقله، ونادرا ما يتصرف تبعا لمشاعره، فكان أن سكت حتى هدأت نفسه ثم نطق بعدها وهو يغمض عينيه بصبر نافذ:

- " ليث، عد إلى أرض الشجر حالا. "...

وهنا ثم قامت الأميرة هند عن عرشها تسأل عن السبب، فأجابها للأمير جابر بحدة:

- " ينبغي علي أن أتأكد من كل كلمة قلتها. "...

فعادت الأميرة هند تقول معترضة:

- " لم أكذب في أي كلمة قلتها. "

- "لا تنتظري مني أن أصدقك بعد كل ما قلته."!!

وجاء صوت القائد ليث من بعده:

- "هل أنطلق يا سيدي؟".

- "اذهب يا ليث وسوف تأتي الغريبان لأصطحباك في منتصف الطريق حتى لا نضيع

الوقت..."

كذلك أجاب الأمير جابر بعزم واضح، وخرج القائد بعد ذلك على صهوة حصانه

يقطع شوارع القرية الكبيرة عائدا لملاقة الغريبان بأقصى سرعة.

يقين

انقضى من الليل الكثير، ولمعت النجوم حتى كادت تنخبأ طاقتها، وبينما كان الجميع لا يزالون جالسين في بلاط أميرة أرض الماء ينتظرون عودة القائد ليث في تقرب، جاء أحد الجنود فوقف بتحية وقال يخاطب سيده:

- "سيدتي، يوجد مخلوق غريب قد ظهر في السماء قبل المشرق، وهو يقترب من أرضنا في سرعة كبيرة، ولقد شعر التمساح بوجوده..."

وهنا اهتز البلاط بهمهمات الحارسات إظهارا لسخطهن وخوفهن من قدوم الغراب فانفطت الأميرة هند واقفة أمام عرشها وراحت ترمق الأمير جابر الذي كان قد اتخذ لنفسه مجلسا في مكان قريب قبالة صف الحارسات كأنما غير عابئ بما يحدث:

- "سيبقى الغراب بعيدا، ولن يتقدم لأكثر مما ينبغي..."

غير بعيد غابة أرض الماء كان خيل قوي البنية يركض في سرعة بالغة لوحده، وكان فوقه في السماء توازيا غراب عظيم الهيئة يحلق مثل شبح يتبع طريقه، وكان يجلس على ظهر الغراب كل من القائد ليث وبجانبه العجوز المداوية بوجهها المجعد الناعس ونظرتها المكتئبة حين قالت تسأله ذات السؤال للمرة العاشرة:

- "أنت، لماذا أحضرتني إلى هنا؟"

ورد القائد:

- "أولم أخبرك أيتها الطيبة أن الأمير جابر هو من أمر بإحضارك؟"

- " هكذا إذن!!" ردت العجوز بتهكّم، وضربته بالعصى على رأسه: " ظننت أنك وجدت لنفسك عروسا، وأتيت بي إلى هنا حتى أجعلها تقبل بك يا ذا الوجه الذي يشبه الصخرة".

- "أوتكون الخطبة في مثل هذا الوقت من الليل يا سيدتي؟..."

وضربته العجوز مرة أخرى في ذات الموضوع:

- "ولم لا، أنت صاحبك لا يمكن توقع ما ستفعلانه..."

ما كان هذا الحوار الصغير من طرف العجوز إلا لتخفف توترها، وتذهب به ما جال في نفسها من هواجس مقلقة، بعد أن لم يكن استدعاء الأمير جابر لها من هذه المسافة بالنسبة لها إلا توكيدا قويا على حدوث أمر جلل، أمر دعت طوال الطريق ألا تكون عقباه سيئة.

هبط الغراب بعد ذلك في مكان بعيد وسط الغابة، ونزل الإثنان من عليه فالتقى القائد بحصانه مرة أخرى فركب هو والعجوز على ظهره وانطلقا يكملان سيرهما فيما حلق الغراب إلى السماء وراح يعود أدراجه نحو أرض الغابة.

رافق القائد فارسان من أصحاب الأرض حتى الجسر العائم فوق الماء ثم تركاه رفقة العجوز ليدلفان وحدهما إلى داخل القصر الأزرق.

وقف الإثنان للحظات حتى فتحت لهما باب الديوان ودخلا، وكانت الأميرة هند تجلس على عرشها في شرود حين دلفا عليها فما إن رأت العجوز حتى انتفت قائمة مرة أخرى:

- "أيها الأمير جابر، لم يكن عليك أبدا أن تحضرها، إن هذه إهانة عظيمة لشخصي، فأنا لم أكذب في أي كلمة قلتها..."

وكان من هذا أن انتقلت العيون إليها مباشرة، ولو كان لإحداها أن ترى وجه الأميرة، لرأته إذن مضرجا بحمرة شديدة بسبب التوتر الذي أصابها، غير أن الأمير جابر نطق يجيها بصوت واثق، قاطع لفورتها:

- "المطلوب منك الآن هو أن تعيدي على مسامعنا، كل الذي قلته..."

- "أقسمت لك أنني قلت الحقيقة!!"

- "مع ذلك يا هند..."

واستسلمت الأميرة في النهاية، دون أن تأتي بمجابر من الاعتراض الذي أدركت سريعا أنه لا طائل منه أبدا، بل إنه قد يستمر فقط في كسر هيبتها أمامها فتياتها، ولذلك لظمت الصمت في انتظار أن ينهي الأمير حديثه، ذلك حينما التفت نحو العجوز قائلا.

- "مرحبا بك يا سيدة ميرم، كما ترين فنحن في خضم حديث مهم جدا مع الأميرة هند، ولذلك أردنا قدومك لمساعدتنا في معرفة صدق ما دار بيننا..."

وتنهدت العجوز وهي ترفع يدها الأخرى إلى عكاذاها.

- "بالطبع، بالطبع يا ولدي، لنرى أولا ما الذي تحدثتما بشأنه..."

وهنا التفت الأمير جابر نحو الفستان الجالس على العرش فأتى منه صوت عنيد

متذمر:

- "أفترض الآن أنه ينبغي علي أن أعيد كل ما قلته..."

قالت الأميرة ذلك باستياء وما هي إلا لحظة وبدأ جسدها في التشكل.

بدأ جسد الأميرة يظهر من تحت الفستان فجأة في غرابة بالغة، فظهرت يداها الناعمتان في حجرها وانطلق لون جلدها الناصع البياض صاعدا نحو ذراعيها وعنقها ثم بدأت ملامحها تتشكل، وبان وجهها المليح الغصّ الذي كانت تسكنه عينيان صافيتان وفم رطب رفيع مثل حواف ملعقة، كانت فتاة في آخر عقدها الثالث، يتدلى من أذنيها قرطان من زمرد، ويطوق رقبتها عقد رقيق من ياقوت أزرق، فقامت على قدميها الحافيتين وتركت عرشها وراحت تمشي مشية غضب النساء نحو العجوز لكنها وقبل أن تصل إليها فإن تنهدت بعمق جسدها ثم عادت للاختفاء مرة ثانية.

كان شعر رأسها المرسل إلى الخلف هو آخر ما اختفى، وكل ما وصل إلى العجوز كان ذات الفستان الذي ظل يجلس على العرش قبل ذلك، وبينما يسود الصمت أرجاء البلاط راحت الأميرة الغاضبة تعيد الحديث أمام العجوز مرة أخرى.

كل واحدة من المرأتين كانت تعرف عن قدرات الأخرى، غير أنهما لم يسبق لهما أن التقتى قبل هذه المرة، استمعت العجوز للأميرة بعينين نصف مغلقتين، ودون أن تتحرك تجاعيد وجهها رغم كل الأخبار الصادمة التي كانت تسمعها، إلى أن انتهى الأمر أخيرا، وحينئذ أخذت الأميرة هند نفسا عميقا وقالت بصوت غاص حائر:

- "هل انتهى هذا الإستجواب الآن؟"

قالت ذلك وعادت للظهور مرة أخرى والتزم ثم الصمت في انتظار ما تقوله العجوز بشأنها:

وظل الصمت يسود المكان لفترة بينا تطالعا العجوز في منتصف عينها بتركيز بالغ، إلى أن قال الأمير جابر بعد فترة بينا يعقد ذراعيه على صدره:

- "أيتها الطيبة!!"

وجاء صوت العجوز ليفض الحيرة التي كانت تطوف مع هواء القاعة:

- "يؤسفني قول هذا يا ولدي، لكنها كانت تقول الحقيقة..."

وهنا شاهد الجميع صدر الفستان يرتفع وينخفض في شهقة عظيمة، وهمت صاحبتة بأن تقول شيئاً، قبل أن تعود العجوز فتستلي حديثها قائلة:

- "غير أنها، ربما تكون واقعة في مشكلة لم ترد إخبارك عنها..."

والتفت الجميع إليها في ذهول بعدما قالت، ثم ما لبثت أعينهم أن انتقلت نحو فستان الأميرة هند مباشرة.

- "أجل يا ولدي... فلديها كلام لم تقله غير هذا..."

ولمحت الأمير هند في نظرة الأمير جابر التي وجهها إليها في تلك اللحظة حريقاً أربعها، فصاحت نحو العجوز بحنق وسخط:

- "ما الذي تكوينينه أنت بحق ال..."

- "دعك منها الآن وتحديثي بالذي تخفينه..."

كذلك جذبها صوت الأمير جابر وأوقفها، قال ذلك جادا في طلبه، بنبرة أمرة، فما كان منها إلا أن عادت فتهاالكت على مقعدها وجعلت تقول صوت متحشرج:

- "قبل شهرين من الآن اكتشفت أنني فقدت المقدرة على قراءة الأفكار، جربت ذلك مع أحد الخدم ولم أقدر، أعتقد أن أفكاري مشوشة، لا أدري ما الذي حدث فعلا..."

- "هل تفقدت زهرك؟"

- "أجل، إنها في مكانها..."

- "وهل حدث أمر ما هنا قبيل فقدانك لمقدرتك؟"

- "وقع شيء أجل، لكن بالتأكيد ليس له أي علاقة"

- "وما الذي وقع؟"

- "لقد تعرضت لهجوم آخر، حاول رجال آرون التسلل إلى قصري مرة أخرى، لكنهم تمكنوا من الفرار جميعا، كانوا أقوىاء جدا هذه المرة، أظنهم من نخبة رجاله..."

- "حسنا، أين هي الزهرة؟"

- "أخبرتكم أنها في مكانها"

- "أريد رؤيتها حالا؟"

حين رأت الأميرة هند إصرار الأمير جابر على طلبه أمرت فتاة كانت تقف بجانبها أن تحضر الزهرة، وغابت الفتاة للحظات ثم عادت تحمل بين يديها مكعبا زجاجيا بديع الصنعة بداخله زهرة زرقاء اللون تشبه أن تكون من زمرد، فناولته سيدتها وعادت إلى

مكانها، ورفعت الأميرة ند المكعب بذراعيها الخفيتين إلى مستوى صدرها وجعلت تطالعه كأنما تطالع بيضة ذهبية، وحينئذ طلب منها الأمير جابر أن تناوله إياه، فنزلت نحوه وفعلت، وأمسكه بيد واحدة لبضع ثوان ثم ألقاه بقوة على الأرض وسط دهشة كل الواقفين في القاعة.

تكسر المكعب الزجاجي إلى قطع صغيرة وفاض الماء الذي بداخله وترامت أجزائه تحت أقدام الأميرة هند والتي وقفت في مكانها متيسبة بعد أن أفلتت منها صيحة دهشة واهلح، تماما وكأن روحها التي سقطت.

وأبدت فتياتها سخطهن من الأمر رغم عدم فهمن لما يجري، حينما رحن يتوعدن الأمير جابر بعيونهن العكرة الجميلة، قبل أن تخر سيدتهن على ركبتيها وسط القاعة، وتسيل من فمها تلك الأحرف مثل نار حمئة، قالت الأميرة هند وفي نبرتها ما يوحي بوقوع مصيبة عظيمة بينا تحدق في شظايا الزهرة:

- "كيف لم أفكر في هذا... كيف لم أنتبه؟".

وقال الأمير جابر متأسيا على حالها:

- "هل فقدت السيطرة على التمساح أيضا؟".

وقالت الأميرة مترجية:

- "لا أدري، لا أدري... فلم أره منذ مدة، عليك أن تساعدني".

شاهد الجميع بعد ذلك بقع دمع راحت تتكون على الأرض بين ركبتي الأميرة،

قبل أن تستلي بصوت باكي.

- "أرجوك أن تساعدني على استرجاعها، أرجوك أن تفعل..."

- "ولم علي أن أفعل؟"

وظهر جزء من وجه الأميرة وهي تقول بعين دامعة:

- "لأنه ينبغي عليك هذا..."

- "هل سأقوم بكل تلك المخاطرة لأجلك؟"

وأتى صوت الطيبة يقطع حديثهما:

- "بل هي تملك المجابر مما تخبرك به بعد كل هذا..."

ونظر جابر إلى الأميرة هند بقسوة:

- "ألن ننتهي من أسرارك لهذا اليوم، ماذا لدينا بعد؟"

فقالت تجيبه بينا تقف على قدميها:

- "إذا قبلت مساعدتي فسوف أخبرك بشيء ستغرب حتما في سماعه..."

- "تحديثي ولا تطيلي الأمر أكثر!!"

- "أعرف من كان السبب في قتل والديك..."

وهنا تبدل المكان والزمان في عيني الأمير جابر، وذهبا حيث وجد والديه يرقدان

خلف شجرة وهما مقتولان بطعنات خنجر، وتزاحمت الصور في رأسه وتداخلت، وعلت

الأصوات البعيدة وألوان الدم أمام وجهه، ودون أن يشعر، وثب مثل الريح نحو الأميرة

هند وأحاط رقبتها بيده بعنف حتى كاد يكسرها.

- "أيتها اللعينة، ما الذي تقولينه؟"

وعادت تترجاه مجددا أن يتركها، غير أنه هذه المرة لم تنتظر الفتيات أمر سيدتهن مثل المرة السابقة، فتحركن في لحظة خاطفة نحو الأمير جابر وجعلن يحطنه بخناجرهن ويشهرنها في أنحاء جسده بينما يأتي صوت سيدتهن مخنوقا ومتقطعا:

- "أك... أكثم... الأمير... أكثم... هو من فعل... ذلك..."

ومضت لحظات حتى حرر الأمير الغاضب رقبتها وتركها تتلوى مثل المرة السابقة إلى استطاعت استرجاع أنفاسها والتحدث:

- "بعدهما رحيل سمراء، أتى شقيقها إلى البحيرة، واكتشف الأمر بدوره... لقد نزل يتفقد الموضع الذي ماتت فيه، وعرف أنه لا يمكن لشخص يتقن السباحة أن يغرق في البحيرة... وحينها فهم أنك أنت من قام بإغراقها، وذهب يدبر خطته ليأخذ بثأره منك..."

- "ما الذي تهذين به الآن أيضا أيتها اللعينة..."

- "بعدهما سمعت بما حدث لوالديك..." قالت هند مستذكرة وهي لا تأمل في شيء أكثر من أن يسمع الأمير جابر كلامها كاملا قبل أن ينفد صبره: "كان هو أول شخص شككت في أمره، لقد عرفت أن له يدا في ذلك، أوليس هو من أخبرك عن موت تلك القرية التي ذهبتما إليها؟"

وضيق الأمير جابر عينيه فيما يرخى سمعه إليها:

- "أعرف أنه هو من أعلمك بها، وطلب رفقتك متحججا بأن محاربي أرض الرماد سيتواجدون هناك أيضا، وسيكون اجتماعكما معا آمنا أكثر..."

- "كيف عرفت هذا؟".

صاح الأمير منفعلًا.

- "بعد الذي حدث لوالديك، شككت في أن للأمير أكثر يد في الأمر، ولذلك ذهبت إلى أرضه وتسلمت إلى قصره، وهناك عرفت الأمر من أحد رجاله المقربين وهو نائم، فعلت هذا دون أن يشعر بي أي أحد... دعني أخبرك أن الصدفة كان لها دور كبير في نجاح خطته، فموت تلك القرية كان في الفترة التي أتى فيها والداك إلى هنا، واستغل الأمير أكثر ذلك لصالحه... لقد أرسل إلى والداك رسالة يخبره فيها بأنك تطلب منه العودة لأمر عاجل عبر غراب مدرب، وصدّق والداك الرسالة، مع أنه لم يكن فيها ختم مملكتك، لكن أكثر كتبها بحيث تبدو وكأنها كتبت على عجل، كان ذلك في نهار اليوم المحدد لخروجكم إلى تلك القرية، وعندما كان والداك يعودان إلى أرضهما، عبر مكان ما في إحدى الغابات التي في الجبل خرج لهما رجل سيئ المظهر كان يرقد وسط الطريق بدا لهما أنه سيسرف على الموت قريبًا، وعندما توقفا لمساعدته، رش عليهما عطرا منوما أفقدهما الوعي مباشرة، بينما خرج من خلف الأشجار جنود ملثمون وأجهزوا على الحرس في لمح البصر، وهكذا أصبح والداك أسرى لدى الأمير أكثر..."

بعد كل كلمة كانت الأميرة هند تقولها، كانت هنالك نار تتأجج في صدر الأمير جابر أكثر، كان هادئ المظهر في وقفته، لكن روحه كانت تحترق من الداخل، رأته خولة يحكم قبضته، وشعرت ببعض ما يدور في خلدته، كل اللذين كانوا هناك شعروا

بالأسى لأجله أيضا، حتى الفتيات المحاربات اللواتي كن على وشك أن تنسبن خناجرهن في جسده قبل لحظة، غير أن حديث الأميرة هند بدأ يأخذ مسارا أكثر رهبة، حين سكنت لبرهة، وعادت لتتم حديثها:

- "مع حلول الليل، وعندما كنتم تعودون من جمع الغنائم من تلك القرية، دس بعض من جنود الأمير أكثم والديك بين الأسرى من جنود أرض الرماد اللذين تم أسرهم في ذلك القتال، كما أن رؤوسهم كانت مغطاة بالكامل... ألم تتسائل عن ذلك؟".

وأمال الأمير جابر رأسه قليلا، فيما يشبه أنه بدأ يفهم القصة، بينا تابعت هند قائلة:

- "حسنا، ركز معي جيدا في هذه النقطة، لأنه... حتى أنا لم أفهمها جيدا، الآن دعني أسألك، أثناء أخذكم وقت استراحة وأنتم تعودون من القرية، أتاك واحد من رجال الأمير أكثم يسألك عما تود فعله بالأسرى، هل تذكر بما أجبتة؟".

وحار الأمير جابر بما يجيبها، وذهب يبحث بداخل عقله عن ذلك المشهد:

- "لا أذكر..."

قالها ببرودة أعصاب عجيبة.

- "أجبتة بقولك، أدفؤوهم..."

- "ما قصدك؟"

- "ليس لي أي قصد، أقول ما أنت قلتة، هكذا كانت إجابتك، لكنك لا تتذكر..."

- " لنقل أنني لا أتذكر، مرت أربع سنوات على ذلك، لكن لم قد أمر بإدفاء الأسرى؟، ما كنت لأفعل. "...

- " وهذا تحديدا ما أريد معرفته، لأن ما سأخبرك به الآن هو أساس كل هذا الأمر... كل الجنود اللذين كانوا مكلفين بحراسة الأسرى كانوا يتبعون للأمير أكثرهم. "...

- " هل أنت متأكدة؟ "

- " أجل، متأكدة... بعدما أخذ منك ذلك الجندي الجواب عاد وأخبر رفاقه اللذين كانوا يحرسون الأسرى بما تأمر... وما فعلوه بعدها أنهم قادوهم خلف الأشجار وقاموا بقتلهم جميعا، أتعرف لِمَا؟... أولئك الرجال كانوا مجندين حديثا في جيش الأمير أكثرهم، وقد اختارهم خصيصا لهذه المهمة، هم رجال من قبيلة خاصة، وهي إحدى القبائل المعزولة التي تسكن الوديان الجافة على أطراف الصحراء، وفي لهجتهم التي تختلف عن لهجات باقي القبائل، فكلمة إدفاء تعني القتل، يعني أن ما فعلوه كان بالنسبة لهم تنفيذ لأوامرك فقط. "...

اضطرب الأمير جابر بشدة، وجرت قطرات الدم باردة في أوصاله، وبدا واضحا أنه لم يعد يقدر على أن يتمالك نفسه.

- " حسنا، توقفي، هذا يكفي. "...

قال بعصبية بينما يضغط قبضتيه بشدة، وهم ليستدير نحو المخرج.

خارج القصر، كانت الخيول مشغولة تلوك طعامها على المربط القريب من الشاطئ، تحرك أذيالها لتطرد الحشرات المزعجة عن مؤخراتها الكبيرة، ثم ترفع

رؤوسها تنظر نحو الفراغ من وقت لآخر وتشخر... لكن فوق أسوار القصر العالية، كان جنود الحراسة بخوذاتهم الفضية اللامعة ورماحهم المدببة يقفون كأكواز الصنوبر يتفرجون عليها، بصمت مطبق، والضجر يجلس على وجوههم، القليل منهم كان يتحرك جيئةً وذهاباً، لكن حين دوى صوت البوق مرة أخرى، ظن الجميع بوجود مشكلة، واستعدوا لأي طارئ، لكن أتى القائم عليهم بخطوات ثقيلة وقال بانزعاج وتأفف:

- "افتحوا البوابة..."

ونقل الجندي الأمر إلى رفاقه اللذين في الأسفل، وخرج الوفد بخطوات سريعة، عبروا الجسر وراحوا يفتقون أربطة الأحصنة، وافتقدوا خولة، فنظروا ووجدوها تقف عند ذلك الشيء الذي سبق ورأته عند وصولهم وكان جسماً مغطى بلحاف يخفيه بالكامل، لكن كان هنالك صوت ظل يخبر خولة أثناء جلسة الإستماع تلك أنه ينبغي عليها أن تتفقد الأمر قبل عودتهم نحو أرض الشجر، وسكن القائد ليث فوق صهوة يتأمل ما تفعل، فيما وقفت العجوز على مقربة وضيق عينها حتى يمكنها الرؤية، وعندما قدرت خولة أخيراً على أن تسحب اللحاف عن ذلك الشيء المرتفع فإنها رأيت أمراً أذهلها، لقد وجدت سيارة والدها رباعية الدفع مركونة بجانب مربط الخيول وقد نمت العشب حول عجلاتها الأربعة، كانت لا تزال في حال جيدة جداً، وكان طلاؤها يلمع تحت ضوء المشاعل القريبة وعلى نور القمر.

دنى الأمير جابر من السيارة وجعل يتلمس غطاءها الأمامي بحذر، بعد أن فترت دهشة بقدر ما أمكن، وقال وهو يعيد نصله الحاد إلى مكانه:

- "أتعرفين ما هذا الشيء؟".

- "سيارة والدي...".

نظر إليها وإذ بها تكاد أن تطير فرحا، كان في وجهها بسمة، وفي عينيها دمعة، وفي صدرها أمل ولوعة، وخفقان قلب تسارع فجأة.

- "وما هي تحديدا؟".

- "يوجد الكثير منها في عالمي... نستعملها في التنقل من مكان لآخر، مثلما تفعلون بالخيول تماما...".

غير أنه وعند هذه النقطة، كان عليها أن تصمت، لما رأت في وجوههم ما ينبو عما تقوله، نقلت عينيها بينهم تواليا، من الأمير إلى القائد ليث ثم إلى العجوز التي أتت نحوهم متأخرة، مرورا بباقي الجنود أيضا، لكنها وجدت فيهم نفس النظرة، لم يكن هنالك ما يمكنهم فهمه، فعادوا يتأملون الشيء العجيب غير أبهين بما قالت، وأنقذها حديث الأميرة هند حينما أتت فجأة تقول من خلفهم:

- "عثر جنودي على هذا الشيء قرب الأراضي الحدودية لأرض الرماد فقاموا بجره إلى هنا بواسطة الخيول القوية... لكن لسوء الحظ فَعُرفائنا لم يقدروا على تحديد طبيعته، أو من أين جاء، لكنهم خلصوا إلى أنه يمكن أن يكون نتاج هندسة بارعة من أرض الرماد، غير أن هذا الاحتمال غير وارد، لأنهم أغبياء جدا فيما يتعلق بصنع الأشياء البديعة...".

ثم انتبهت إلى نظراتهم نحوها.

- "لنرى... إذن ما سوف..."

ثم سكتت دون أن تضيف شيئاً آخر.

انطلقت الخيول بعيداً عن أرض الماء تشق ظلمة الليل في اضطراب وسرعة، وكانت العجوز المداوية تركب خلف الأمير جابر تتمسك بظهره مثل الصرة الصغيرة، حين دنى منهما القائد قائلاً:

- "سيدي، لقد تأخر الوقت كثيراً، ولن نصل إلى أرضنا قبل نهار الغد، ولم نكن قد تناولنا الغداء ولا العشاء أيضاً، وتوجد تلك القرية التي تقع على مقربة من هنا، فهل نمرّ عليها لنستريح باقي الليل، ولعلنا نجد عند أهلها ما نسد به جوعنا..."

ورد الأمير جابر بقوله:

- "هل هو رأي الفرسان أيضاً؟"

- "أجل يا سيدي، كان بمقدوري رؤية هذا في وجوههم، لكنهم يصرون على المقارعة مثلما تفعل..."

- "أنا لست أقارع التعب والجوع يا ليث..."

- "أعلم هذا يا سيدي..."

- "ليكن إذن، سنغير مسارنا إليها..."

وراحت الخيول تأخذ طريقاً فرعياً غير الذي كان عليها قطعه، بعد أن شُدت رقابها، ولُكزت بطونها، ولم يمضي وقت كثير حتى أطلت بمناخيرها الكبيرة وعيونها الواسعة على قرية صغيرة مخبأة في ركن قصي من الغابة، ينبعث من وسطها نور

وضجيج ودخان كان يطلع من بين أكوأها البسيطة، تقدم الركب نحو الداخل تدق حوافر خيولهم مدخل القرية بهدوء وحذر، كانت الأصوات تعلوا شيئاً فشيئاً، وحين وصلوا إلى ساحة القرية فقد كان هنالك جمع من الناس في حال من اللهو والفرح وقد أحاطوا بنار تطلع منها شهب صغيرة ساطعة اللون ترتفع فوق رؤوسهم، كان جزء منهم يرقصون في حلقة دائرية وآخرون يقبضون على صدورهم يتفرجون بوجوه باسمة، ويتراس الجمع عروسان كان يجلسان بوقار على عرشين صغيرين صنعا من القش والخشب وزينا بورد الغابة، كانا يرتديان أحسن ما يمكن لقرويان فقيران أن يرتدياه في حفل زفافهما، لكن بسمتهما، والسعادة في قلبيهما، كانتا تسعان كل الناس من حولهما.

بعد مرور بعض الوقت انتبه أحد الرجال لشخير الخيول من خلفه فلم يدخر جهداً في تنبيه الآخرين لوجودها عبر صرخة قوية أطلقها، وعندما دارت أعين أهل القرية نحو الأمير جابر ومن معه فإنها سرّيعاً ما زالت عنها البهجة والسعادة وتحولت إلى نظرات جافة تنبئ عن سخط عارم وغضب.

بعدها توقف الغناء والرقص وساد الصمت في المكان فإن القائد ليث ترجل عن صهوة جابه وراح يتقدم نحو الجمع فاردا ذراعيه يسألهم:
- "ألنا عندكم ضيفة؟".

ولم يجبه أي أحد، بل قهقر اللذين كانوا على مقربة منه وضافت عيونهم أكثر وازدادت نظراتهم حدة، وأخذت همهمات منفرة تصدر من كل موضع، لكن خرج من

الحشد رجل برفقة زوجته وبينهما طفلة صغيرة فوقفوا أمام حصان الأمير جابر وأبدوا له احتراما وقال الرجل في رحابة صدر كبيرة:

- "سيدي، أرجوك أن تتفضل إلى كوشي، أنت ومن معك، ها هو يقع هنالك على مقربة... إنه لشرف عظيم أن أكون في خدمتكم هذه الليلة، هل لكم أنت تقبلوا دعوتي يا سيدي؟".

وهم يتبعون العائلة الصغيرة نحو كوخ قصي في طرف القرية جاءت خولة نحو القائد ليث تسأله عن الأمر فقال إن الناس هنا حالهم حال أهل مدينة أرض الغابة، قد وصل إلى أسماعهم من يسوءهم عن الأمير جابر، غير أنه لم يتوقع منهم رد الفعل هذا... وسألته عن ذلك الرجل فأجابها بأن الأمير جابر كان قد أنقذ ابنته من أحد باعة العبيد المتجولين حين كان يهيم باختطافها من مكان قريب من القرية، لما صادف تجواله في المكان سماعه لصرخات الفتاة وهي تطلب النجد، وحينئذ تسألت خولة باستياء إن كان ينبغي على الأمير جابر أن يمر على الناس فردا فردا ويحسن إليهم حتى يعرفوا حقيقته وتتغير نظرتهم نحوه، فقال القائد بأن الأمر لا يعني له شيئا البتة، لأن ما يشغل فكره أعمق بكثير من ذلك.

بعد نصف ساعة من ذلك، كان هنالك خروفان يُقربان فوق نار هادئة، بعدما أخرجهما الرجل من قطيعه الصغير وأتى بهما إلى الفرسان اللذين سرتهم مساعدته فلم تمضي دقائق قليلة حتى وكان الخروفان يسحبان عاريان من جلدهما نحو نار أضرموها على مقربة من الكوخ ثم تحلقوا حولها.

انشغل الزوجان بإعداد حساء يناسب الوجبة، فيما نامت العجوز على مقعد صغير قرب المدخل، وأما خولة فأثنت ركبتيها تلاعب جروا صغيرا جميل الشكل بيدها وتربت على رأسه بينما تصغي إلى الفتاة الصغيرة وهي تقف أمامها لتحكي لها بشغف صبياني عظيم كيف أنها تقضي معظم وقتها في مطاردته ونزع أحذية الجيران من فمه.

- "إذن فقد وجدته في الغابة!!"

- "نعم، كنت أجمع الفطر هنالك ورأيتته يختبئ خلف شجرة صغيرة... هل أخبرك ما الذي رأيتته أيضا؟"

- "أجل، أخبريني..."

- "عندما حملت جروي أتى من خلف الأشجار رجل عيناه ملونتان بالأحمر، لقد أخافني جدا..."

- "هل قلت أن عيناه ملونتان بالأحمر؟"

- "أمم، كان يلبس شيئا غريبا، لكن أُمي لم تصدقني، أنت هل تصدقيني؟"

- "أصدقك يا صغيرتي، لكن أين ذهب ذلك الرجل بعدها، هل تعرفين أين ذهب؟"

- "لا أعرف، عاد إلى الورا و اختفى بين الأشجار، هو لا يمشي مثلنا..."

عند هذا، ركب خولة خوف مفاجئ لم تقدر على مقاومته، فما حكته الصغيرة، لم يكن ليتناقض أبدا مع غرائب هذا العالم، بل إنها صدقت أمر العينان الملونتان بالأحمر بحيث راحت تتخيلهما تحت قلنسوة مظلمة يخرج منها فوار مخيف ينبئ عن

شرقاتم، بحيث اضطرت لأن تخفي تأثيرها بالحكاية تحت ابتسامة مصطنعة، فربت على رأس الفتاة وقالت تطمئئنها:

- "لابد أنه خاف منك ولن يعود مرة أخرى..."

- "أجل، لن يعود مرة أخرى، لقد أخاف جروي كثيرا، وإذا رأته مجددا فسوف أضربه بالحجارة على بطنه..."

- "طبعاً ستفعلين يا صغيرتي، لكنك لن تذهبي إلى الغابة وحدك مرة أخرى، أليس كذلك؟"

- "لن أفعل، لكنه إذا أتى إلى هنا فسأضربه، وأبي سيضربه أيضا..."

الآن كان ليث يعود من تفقد العجوز التي كانت تسند رأسها على عصاها وهي تنام جالسة، وافترش الأرض على مقربة من خولة ومد ذراعيه خلفه وراح يطالع رجاله وهم يتسامرون حول الشواء بحماسة، وحينئذ نطقت خولة بصوت تشوبه علة:

- "هل هي نائمة حقاً؟"

والتفت إليها:

- "أجل، نائمة مثل.... أنت ما بك، تبدين غير مرتاحة!!"

مهدت خولة لنفسها مكانا على العشب وجلست إلى جانبه، نظرت نحو الجنود بدورها، بدا أن منظرهم أشغلها، غير أنها فاجتته بسؤالها إياه عن مكان الأمير جابر،

فأجابها قائلاً بأنه لا بد وأن يكون قد ذهب إلى مكان بحيث يتمكن من التفكير بمفرده بعيداً عن أي ضوضاء ممكنة.

- "هل تصدق ما قالته تلك المرأة؟".

- "من، الأميرة هند؟... أجل...".

- "والأمير جابر، هل يفعل؟".

- "لا يمكن لأحد أن يشكك في قدرة تلك العجوز، فكلنا نصدقها، وأرى أنك استصعبت الأمر ليس إلا، لكن في عالمنا، أجل... تصل الوقاحة بأحدهم إلى أن يدفع صاحبه لقتل والديه عبر حيلة قذرة... لا أحد يدري ما الذي يحدث الآن في قلب الأمير جابر، لكن أن يعلم امرؤُ بامرؤ كهذا ويكتم غضبه بمثل تلك الطريقة، بحيث يبدو وكأنه لم يتأثر، فهو أمر سترينه مرة واحدة في حياتك...".

- "لكن كيف يكون قد قال تلك الكلمة، ثم ينسى أنه قالها؟".

- "لا أعلم، لكن أظن أنه يفكر الآن في هذا... في ذلك الوقت كان هو قائد الجيش، بما أن والده كان أمير المدينة، وكنت أنا مساعده الأول، لكنني لم أكن على مقربة منه حين قال هذه الكلمة... ما أعرفه أنه بحث عن الجنود اللذين قتلوا الأسرى بعد ذلك ولم يعثر على أي منهم، يبدو أن الأمير أكثم كان بارعاً في تنفيذ خطته...".

- "تلك المرأة قالت أنهم كانوا يعملون تحت إمرة الأمير أكثم، فكيف لم يسأله جابر عن ذلك...".

- "بلى، سأله، لكنه نفى معرفته بهم، بل كان هو أول من أعلمه بما حدث للأسرى، جاء إليه وسأله بكل ببرودة كيف أمكنه أن يأمر جنوده بقتل الأسرى، دون مشاورة، وقد كان يُفترض أن يتم اقتسامهم مناصفة بينهما، لقد مثل الأمر ببراعة، ببراعة بالغة، متظاهرا بالإنزعاج مما حدث."...

- "وماذا عن تلك القبيلة، هل هي موجودة حقا؟"

- "أسمع عنها... يقال أن سكانها متمسكون بعزلتهم، على كل، أعتقد أن الأمير جابر سيتأكد من الأمر بنفسه حالما نعود إلى أرضنا."...

- "وإذا ثبت كلام تلك المرأة؟"

- "إذا ثبت كلامها فسوف نذهب للبحث عن لغز تلك الكلمة، فلا أحد كان سيرأف برجال قساة قتلة مثل رجال أرض الرماد بحيث يطلب إدفائهم في ليلة باردة، ناهيك عن استعمال هذه الكلمة."...

- "وما الذي سيفعله الآن مع ذلك الرجل؟، اعذرني على طرحي كل هذه الأسئلة."

- "الأمير أكثم؟... على الأرجح سيقنتله."...

وطأطأت خولة رأسها مهمومة، كأن طيرا على رأسها، غير أن ليث واصل يقول

من تلقاء نفسه:

- "إختفى الأمير جابر بعد تلك الواقعة مباشرة، ولم يظهر إلا بمرور شهرين من ذلك... لقد ظهر في القصر فجأة وهو يضع ذلك القناع المشؤوم على وجهه، عاد بصورة مختلفة، وبطباع تختلف تماما عن التي كان عليها، وحينما سمع الناس

بعودته، فإنه جن جنونهم، وثارت ضغائنهم، وأرادوا طرده من المدينة أو قتله، قالوا بأنه إنما قتل والديه ليستلم الإمارة ويستأثر بها لنفسه، وكان الناس قبل ذلك يحبون والده جدا... ثار الناس عند بوابة القصر وكادت أن تحدث أمور سيئة جدا لولا أن الجنود منعوهم، ولولا تدخل الغريبان أيضا، كان يوما مشؤوما مع ذلك، لقد قتلت الغريبان رجلين حاولا تسلق الجدران والتسلل إلى الداخل، ثم لم يتجراً أحد بعدهما على محاولة دخول القصر مرة أخرى، عاش جابر في معزل عن شعبه، وعن وزراء قصره، وحتى عن جواريه أيضا، الوحيدان اللذان كان يتحدث إليهما هما العجوز المداوية والسيدة نجلاء في أحيان قليلة، لكنه مؤخرا بدأ يعود تدريجياً إلى ما كان عليه، لقد لاحظ الجميع أنه بدأ يفتح حوارات أكثر مع الناس من حوله."

- "أليدك أي فكرة عما يدفعه لأن يضع ذلك القناع على وجهه؟"

- "ها... بالأصل لو أنك عرفته قبل تلك الواقعة لكان عجبك أضعاف مما هو عليه الآن..."

- "ولم هذا؟"

ونظر إليها ليث لبرهة، ثم عاد يحدث حيث كان قبلا، دون أن يفوه بشيء ليحيبها.

- "قبل لحظة، قلت أن غربانا منعت الناس عن دخول القصر، فأبي غربان تقصد؟"

- "أقصد ذلك الغراب الذي ترينه يحلق فوق المدينة، فهو تارة يكون غربا واحدا

وتارة يكون غربانا كثيرة... سيأتي وقت وترين الأمر بنفسك."

- "كنت سأسلك عن شيء آخر..."

- "نعم..."

- "تلك الأميرة، أليس لديها وحش يحمي مدينتها؟"

- "بلى، لكن من غير الممكن رؤيته دوماً، فهو يبقى معظم الوقت في البحر يحوم حول القصر، كما أن له المقدرة على أن يخفي جسده مثلها تماماً."

- "هو حيوان بحري إذن؟"

- "ليس تماماً، ولم يسبق لي رؤيته، لكن يقال بأنه يشبه التمساح في هيئته فهو يعيش في الماء وعلى الأرض أيضاً، وأحيانا يخرج إلى الغابة، لكنه يقضي أغلب وقته في البحر يتناول طعامه، اليد المحاربة في أرض الماء تعد هي الأضعف بين جميع الإمارات الخمسة، لكن الوحش الحارس لها يتمتع بتلك المقدرة المميزة، وبهذا يكون لديهم نقطة قوة لا يستهان بها."

- "والأميرة هند، أفهم أن قوتها تكمن في إخفاء نفسها، لكن لماذا ظلت تستعملها طوال الوقت بتلك الطريقة؟"

- "هي لم تتعمد فعل ذلك، بل إنها لا تقدر على إظهار جسدها فترات طويلة."

- "هل هو ما وجب عليها أن تدفعه لقاء أن تكون أميرة؟"

- "تماماً، فمع أن قوتها مميزة وخطيرة جداً، إلا أنها لا تقدر، تُظهر أجزاء من جسدها من وقت لآخر كما رأينا، لكنها تصاب بالإرهاق وتعود إلى الاختفاء مجدداً... لكن من المؤكد أن الأمر لا يزعجها، وإلا فلم تكن لتقبل به منذ البداية."

- "ما كنت لأقبل بذلك أبداً..."

- "ولا أنا..."

- "لكنها تخشى جابر وتخافه، كلما صرخ في وجهها تسرع لقول شيء ترضيه به، ألا يجدر بها كأمية تمتلك تلك المقدرة أن تقف في وجهه وتفرض كلمتها، أعني..."

وضحك ليث لكلام خولة، ضحكة قصيرة مناسبة، ثم قال بفخر بالغ:

- "إن فكرت يوماً في مواجهته فسيكون ذلك آخر شيء تفعله في حياتها، لأنه لم يسبق لأي شخص وأن تغلب عليه أبداً، لديه حواس قوية جداً، ويمكنه أن يتحرك بخفة بالغة، بحسب ما رأته أثناء مرافقتي له فيمكنني قول أنه يمتلك قوة خمسة رجال مجتمعين معاً، وبهذا فلن تكون مقدرتها على الاختفاء ذات فائدة كبيرة أمامه، وهي تعلم هذا جيداً."

- "يعني إذا حاول شخص ما أن يتجسس عليه ويختبئ على مقرب منه فإنه سيكتشف أمره بسهولة؟"

- "أمم، يمكنك قول هذا."

- "مغرور وبغيض أيضاً..."

التفت ليث إليها لما رابه حديثها، فرآها قد شردت في التفكير بعيداً، ولذلك تبسم خفية وعاد يطالع رجاله، وعادت هي تسأله بصوت غاضب:

- "وهل تعرف ما الذي دفعه لقاء القوة التي حصل عليها؟"

- "لا أعرف، هو الوحيد من بين الأمراء الخمسة الذي لا يُعرف ما الذي أخذ منه لقاء تنصيبه أميراً... من المرجح أن يكون للقناع علاقة بالأمر، لكن لا أحد يمكنه إثبات هذا، وأظنك عرفت إلى أي درجة يبرع في إخفاء أسرارهِ".

وقفت خولة ممتعضة، وراحت تضغط أصابع يديها الرقيقة، اعتذرت من القائد ليث على كثرة الأسئلة التي طرحتها عليه ثم راحت تمشي نحو الغابة.

ظلت تبحث عن الأمير جابر حتى لمحتَه يجلس على صخرة خفيضة وسط بقعة مفتوحة، كان يضع رأسه بين ركبتيه كأنما أثقله نور القمر الذي كان ينبير المكان من حوله، أعدت نفسها جيداً وتهيأت، ومشّت نحوه:

- "أتسائل أي قلب كنت تملكه عندما تعمدت تركي أنام تلك الليلة في الخزانة، كادت أضلعي تتكسر".

ورفع رأسه بتثاقل والتفت نحوها:

- "وأنا مثلك أيضاً، أتسائل...".

وبهذا الرد الغير المتوقع، شعرت خولة أنهى فشلت في مرادها، وإنها كانت قد قالت ذلك ليس إلا في محاولة منها لتخرجه من جمى الأفكار الحزينة التي أنزل رأسه فيها، فلم يكن بعد ذلك إلا أن ارتخت أسارير وجهها وزالت عنها الجدية، لم تكن تستطيع رؤية عينيه في مثل تلك الظلمة، ومن تلك المسافة، لكن شعوراً قويا تدفق في صدرها بأن ما كان به ليس شيئاً يُدحر بالكلام مهما قيل ومهما كان نوعه.

- "وإن يكن، أفلا ترينه عقاباً ناسب فعلتك؟".

ولم يكن هذا أمراً توقعته خولة، بل ظنّته قد أنهى كلامه، لكنه فاجئها، وتحول شعورها بالأسى نحوه إلى شكل جميل من أشكال الغيظ في لحظة، ظنّته سيقول شيئاً لطف من ذلك، ولم تقدر على كبح انفعالها فاقتربت منه أكثر وراحت تقول بأحرف سريعة غاضبة:

- "ليس عليك أن تكون فظاً كلما شعرت بالحزن أو الغضب، هل تظن أنك عندما تخفي وجهك تحت هذا القناع فسوف يكون بإمكانك أن تفعل وتقول ما تريده؟ لست الوحيد الذي حصل معه هذا... أتسائل إن جربت يوماً أن..."

- "ماذا؟، أن أبكي من شدة الحزن؟... من يدري، ربما أفعل... ربما أحب أن أبكي حيث لا يراني أحد... من يدري..."

قال ذلك ونقل بصره نحو السماء ليشرّد في القمر البارد، أما هي فسكنت تراجع نفسها، تحدق في العشب تحت الصخرة، تأففت بلا صوت وراحت تصعدّها، جلست بقربه عاقدة يديها فوق ركبتها:

- "إنني آسفة... لم أكن أقصد..."

ومرّ صمت طويل حتى نطق الأمير جابر بعدها:

- "في رأيك، لماذا تظنينني أضع هذا الشيء على وجهي؟"

- "ليس لدي فكرة..."

قالت بصوت هامس، كأنما أصاب لسانها حياء مفاجئ.

- "هاه، ليس لديك فكرة... " قالها هازا رأسه وأردف: " في تلك الليلة، بحثت عن الرجال اللذين قتلوا الأسرى، لكنهم كانوا قد اختفوا جميعا... ولذلك كان عليّ الذهاب إلى الأرض الوسطى لأتحدث إلى الساحر وأطلب منه أن يخبرني الحقيقة، ظننت أن لديه طريقة سيعرف بها ما الذي حصل حقا، لكنه رفض... ثم أصر على أن أكون الأمير الجديد على أرض الشجر، رفضت متحججا بأنه لم يكن الوقت المناسب لذلك... قال بما أنك أتيت بنفسك إلى هنا، وكونك الوريث الشرعي للحكم فلا يمكن تأجيل الأمر أكثر من ذلك، لا يمكن ترك أي أرض بلا أمير لمدة يومين متتاليين وإلا فقد يضطرب الوحش الذي يحرسها ويفقد السيطرة على نفسه... عندما خرجت من الكهف كنت أقف بصعوبة، كان كل شيء في جسدي يؤلمني، كأنني خرجت من واد تحترق الحجارة بداخله، ولم أقدر على السير تحت ضوء الشمس أيضا، اختبئت تحت ظل شجرة حتى حلول الليل، ظننت أنني سأسقط في اليوم التالي وقد خفت أوجاعي، لكنني لم أنم، ولم أنم بعدها مرة أخرى... "

- "ماذا تعني؟"

- "لا أنام يا خولة، لا أنام مثلما تفعلون أنتم... "

أنزلت خولة عينيها بأسى:

- "اعذرني على مقاطعتك، هلا أكملت ما كنت تقوله رجاء.. "

- "بقيت أسحب رجلاي بصعوبة، لشهر كامل، أتقل من شجرة لأخرى نهارا أبحث عن الظلال، وأتحاسى وحوش الغابة ليلا، إلى أن عادت إلي قواي وعدت قادرا على

السير بشكل طبيعي... عدت إلى هنا بعدها، كان الناس غاضبين جدا، كان بمقدوري أن أتفهمهم، حتى أنا كنت غاضبا من نفسي مثلهم، وقفت خلف البوابة وأنا أرى في عيونهم حقدا، يدفعهم الجند عن القصر بصعوبة، كنت أسمع صراخهم والشتائم التي كانوا يلقونها، جزء مني كان فرحا بما كانوا يفعلونه لأنني عرفت أن والداي كانا شخصين صالحين في أعينهم... أتعرفين؟" قال والتفت إليها يشير بإصبعه: " هذا القناع... لو أنني أجد طريقة لأتخلص منه... لم أضعه لأخفي عاري، لم أضعه لهذا..."

أتم كلامه وكأنما توشك أن تنهمر دموعه، وأحست خولة من حديثه ولأول مرة أن به ضعفا، فكأنما هذا الحديث قد أثقل صدره لما بقي جاثما عليه لوقت طويل جدا، دون أن يذكره أمام أحد، وتساءلت عما إذا كان بخير حقا، لكنها رآته يطلق زفرة عظيمة خرج معها بخار أبيض من الفجوات الصغيرة فوق موضع فمه.

- " هل ذلك يعتبر إشارة جيدة؟، تلك السيارة... هل ستساعد في العثور على والدك؟".

- " أجل... لكنني لست متأكدة من أنه قد أتى إلى هنا أيضا".

- " قلت أنني لست الوحيد الذي حصل له هذا، ما الذي عنيته؟".

تفاجأت خولة بأنه التقط ذلك الجزء من حديثها، وفهم أنه ليس مجرد عتاب عابر، وعلا صوت النسيم فوق كل صوت آخر، وحينئذ مالت بصدرها نحو ركبتيها قائلة:

- "ماتت أمي أثناء ولادتي..."

طارت أوراق الشجر من حولهما، ومالت رؤوسها العالية كأنما همها ما قالتها خولة فراحت تسترق السمع بلا حرج من أعلى.

لم يظهر على الأمير جابر أي رد فعل واضح، وبدا أنه استعاد توازنه قبل لحظة فقط، فتنهد بهدوء بالغ.

- "هذا ليس ذنبك أنت..."

- "أنت أيضا ليس ذنبك..."

- "لا تقولي هذا..."

- "وأنت لا تقل..."

- "قتلتها بكلمة قتلها..."

- "وأنا بصرخة صرختها..."

- "ألا تعودين لتناول الطعام معهم، سيكون الطعام قد نضج..."

- "وأنت ألا تأكل؟"

لم يزد أحدهما على هذا شيئا، إنما لا إذا إلى الصمت واستقرت عيونهما في السماء يرسمان على النجوم صور أولئك الموتى، بقلبين هادئين وأنفاس متنهدة، لعب النسيم بشعر رأسها لأكثر من ساعة، وعندما أبعدته عن فمها مرة أخرى، فإنه قد غلبها النعاس بعدها مباشرة فمالت على كتفه وأغلقت عينيها بهدوء بالغ.

مع ظهور أولى خيوط شمس الصباح الدافئة وارتفاع صياح الديكة النشيطة، كانت نوافذ وأبواب البيوت والأكواخ لا تزال مغلقة، فأصحابها قد قضوا ليلتهم في الرقص والغناء حتى أنهكوا أنفسهم با القدر الذي جعلهم ينامون حتى وقت متأخر، فيما كان الضيوف يُعدون أحصنتهم يستعدون للمغادرة، كانت العائلة الوحيدة التي فطنت هي العائلة التي انت بضيافتهم دون الآخرين جميعا، وكان الزوجان قد انشغلا بإخراج الأغنام من حظيرتها، حين أتهما ابنتهما الصغيرة تركض خائفة حتى تعلقت بساق والدها.

- "أبي، أبي، أنظر..."

قالت تشير بإصبعها الصغير نحو العجوز المخيفة التي جاءت تمشي من خلفها فجأة، ونظرا الوالدان فغلبتهما ابتسامة، كانت العجوز المداوية تصعد الأدراج نحو باب كوخ صغير يشكل مخزن العائلة، ودفعت الباب بعصاها نحو الداخل، مشت بضع خطوات ثم وقفت تلكز خولة في يدها.

- "انهضي، انهضي أيتها الكسولة، هيا..."

أيقظتها بعد محاولة ثانية، ثم مشت تسبقها نحو الخارج، وقامت خولة نحو الباب نعسة فوضعت خولة يدها على جبينها اتقاء لضوء الشمس فرأت الأمير جابر يعد سرج حصانه أمام شجرة قريبة، فراحت تنزل الأدراج نحوه.

- "لم أكن أعرف أن السير أثناء النوم، هو أمر أتقنه بهذه البراعة..."

- "أي براعة في الأمر تقصدينها..."

- " البراعة في أن أفتح أبواب بيوت الناس وأدخلها. "

- " لم يعجبك النوم بداخل الخزانة، فكيف به فوق صخرة. ... "

- " أستظل تذكر هذا أبدا؟ " .

- " لا. ... "

قال وهو يستدير نحوها، ونظر في عينيها جليا:

- " هذا... " ومد يده فمسح تحت عينيها اليسرى بإصبعه: " ينبغي ألا يبقى أثر النوم

على وجهك. ... "

- " لماذا؟ " .

ردت بتلقائية، بجسد متخشب، ودون حتى أن تكون قد فكرت، وكأن ما قالته كان رد فعل ليس لها فيه أي حول ولا قوة، وهو أمر فهمه جابر في لحظة فرد عليها قائلا بينما يعود لربط سرج حصانه.

- " لن ننتظرك النهار بطوله، أعدي فرسك هيا. ... "

وذهبت تلعن نفسها، أيتها الحمقاء الصبية، فليمت لساني الآن وبسرعة، غبي،

غبي، غبي، لسان غبي، غبي جدا، وصلت عند فرسها وغمست وجهها في ظهرها،

وأطلقت على نفسها سيلا آخر من الشتائم.

وقف الجرو الصغير بجانب الفتاة ينبح مودعا الضيوف وهم يرحلون في طريقهم

واحدا خلف الآخر، وكانت خولة قد ودعت الصغيرة بعناق قصير وقبلت على خدها، مع

وعد بالعودة مرة أخرى، ثم إنها التفتت تنظر عندما أوشكت فرسها أن تطأ ظلال الغابة،

كانت والدة الفتاة تقف خلف ابنتها تلوح بيدها أيضا، لكن ريحا غربية جرت فوقهما،
ريح كان لها صوت حذر، نظرت الأم لأعلى فرأت سماء زرقاء صافية، ولم تكن تبدو
أبدا وكأنها ستمطر.

تبع

عاد الوفد إلى أرضهم حاملين أخبار ثقيلة، منها ما يسر القلب ومنها ما يدميه ويحزنه، وما كاد يمرّ النهار حتى انتشر الحديث في الأركان يمناً ويسرة، مثل غبار سيرته رفرفات جناحي طائر، حتى خرجت من حدود المدينة إلى القبائل القريبة،، طارت الأخبار ونزلت في أماكن أخرى، وبعد أن تناقل الناس حديث الجنود بينهم، فهموا كم أنهم قد ظلمون أميرهم خلال أربع سنوات مضت، وكم زادوا قلبه وجعا، بتحولهم عنه ونكرانهم له بتلك الطريقة دون حقيقة يستندون عليها، وتحول سخطهم إلى شعور بالشفقة فجأة، وزايلت وجوههم أمارات الأسى، حين كانوا يتناقلون الخبر خلف النوافذ والزوايا، وفي الطرقات والأسواق وكل مكان حوى أكثر من شخص واحد.

حين حل الليل وأرعى الظلام سدوله، خرجت خولة من غرفتها نحو الشرفة الكبيرة، ظنت أن تجد الأمير جابر هنالك أيضا، لكن لم يكن هنالك غير صمت رهيب يملأها، غير أنها فجأة لمحت شبح الأمير ينزل السلالم نحو البوابة الخارجية، وراحت تهبط الأدراج بخطوات سريعة فعبرت الردهة الكبيرة ودفعت ضلفة الباب وخرجت في إثره.

مرت بجانب أشجار الفاكهة ووصلت عند حارسان يقفان على البوابة، وجعلت

تقول مترجية:

- "أرجوكم، ينبغي أن ألحق به حالا..."

ورد الحارس بنبرة صارمة:

- "لا يسمح بخروج الخادمت في مثل هذا الوقت يا آنسة..."

واستفزه حديثه بالقدر الذي أثار غريزتها الأنثوية المدافعة:

- "أنا لست خادمة، دعني أخرج..."

ورد يتسائل:

- "ماذا تكونين إذن، زوجة الأمير؟"

وأعانه صاحبه بضحكة لم يكلف نفسه عناء إخفائها، لكن خولة نظرت عبر

البوابة فرأت القائد ليث يأتي نحوه البوابة مبتسما، وقف وقال موجهها كلامه إلى

الرجلان اللذان كفا فجأة عن الضحك:

- "دعاهما تخرج، أنا أكفلها..."

بعد أن سارا عن بوابة القصر بمسافة، لاحظ ليث كيف أنّ خولة كانت تتبع

بعينها شيئا في الظلام دون أن تنبس ببنت شفه، كأنها تطارد شبعا، أو كأنما لم يكن

قد ساعدها في تجاوز الحراس قبل لحظة، وقال يحك رأسه:

- "اعذريهما يا آنسة خولة، فهما يحرسان البوابة لأول مرة، ولم يتمكننا من التعرف

عليك..."

- "أشكرك كثيرا على صنيعك..." قالت تلتفت إليه بوجهها الشريد المرتبك،

وأردفت: "سأمضي الآن لوحدي من هنا، ينبغي أن أسرع..."

أنهت حديثها بسرعة وانطلقت تهوول صوب المدينة، دخلت ظلّاما قاتما بين بيتين واختفت بداخله، وبقي ليث هناك يقف ضاحكا ملئ فمه، وقال بينا يستدير عائدا أدراجاه:

- "سوف يحدث شيء جميل بينهما، لا بد وأن يحدث." ...

جاست خولة خلال أزقة المدينة تتبع الأمير جابر على أطراف أصابعها، بخفة وحذر بالغين، بعد أن علمت بمقدرته الفائقة على سماع الأصوات التي حوله، خاصة تلك المتجسّسة منها، فكانت لا تخرج من خلف جدار أو برميل أو عربة متوقفة إلا لما تتأكد من أنه قد ابتعد عنها بمسافة، وكلُّ أملها أن يترك لها أثرا آخر لتتبعه، إن كان مسحة على التراب أو قطا يقفز هاربا أو طفلا يقف عند عتبة باب البيت ينظر حيثما ذهب الأمير بعينين تلمعان فخرا، أو إن بقي طرف من خياله حين يميل عند زاوية، ذلك حتى انتهت بها المطاردة إلى طرف آخر من أطراف المدينة، حيث كان هنالك معترك من الأشجار الواقفة التي تسد النظر، وكان بين آخر بيت وقفت عنده وبين الغابة أرض متربة مفروشة بالعشب والحجارة الصغيرة، وظلام يملأ الفراغ صاعدا نحو الأعلى حيث كان سقف السماء الواسع يتلألأ بالنجوم المرصعة، ورشق بصرها في الطائر العظيم يقف هناك يغطي بجناحيه العريضين قرص القمر، بدا كأن الطائر يتبع بعينيه شيئا ما يتحرك في الغابة، تحرس سيدك أليس كذلك؟، قالت خولة تحدث نفسها، ووقفت بعد ذلك تفكر لبعض الوقت ثم لم يكن من شيء غير أنها غادرت المكان تعود أدراجها.

حين طلعت شمس النهار وبعثت نورها بمقدار ما ينفث الحياة في المدينة، وعلت أصوات الناس في الأسواق، كانت أشجار الفاكهة خلف أسوار القصر تقف شامخة لتحقق نحو بعضها صامته، وحيث راحت الظلال تحته تزحف باردة، حتى إذا كان الفراغ وكان نور الشمس يحرقها، كُنت تراها تبقى هناك مختبئة مثل صياد يربض في انتظار الفرصة المناسبة، فإذا هي أشعة الشمس انزاحت أخذ الظل مكانها، وإلا فهو باقٍ مكانه، وحيث جلست خولة تتكى على شجرة التفاح تصغي لنغم العصفير المتقافزة فوق رأسها، وكانت تغمض عينيها سارحة بين ذلك بعقلها، حين سمعت وقع حوافر حصان جاءت تقترب فجأة.

- "أرى أنك تعتادين على هذا المكان يوماً بعد يوم يا آنسة خولة..."

ونظرت فكان ذلك القائد ليث يأتي على حصانه حتى توقف به على مقربة فترجل عنه ونزع خوذته ودسها تحت إبطه، فاستقبلته خولة بابتسامة مصطنعة تخفي بها إحباطها.

- "أجا، أظن أنني أفعل..."

وضحك ليث بقدر ما تطلبه الأمر.

- "دعيني أسألك أولاً إن لم أكن قد أزعجت خلوتك يا آنسة؟"

- "لا، لم تفعل..."

- "حتى وإن لم أفعل فإنني أعتذر على تطفلي... حسناً، أردت أن أخبرك عن

شيء..."

- "تفضل. ..."

- "إن كنت ترغبين في معرفة مكان الأمير جابر فربما يمكنني مساعدتك." ...

وما إن سمعت خولة هذا حتى طفقت تنظر باهتمام أكبر، ولاحظت ليث ذلك عليها،

فقرر أن ينتظر قولها، فقالت وهي تتنصل من شرودها بعد دقيقة.

- "هل حقا تعرف مكانه؟"

- "أجل يا آنسة. ..."

- "وهل هو بخير؟"

- "إذا أردت فلتتظري بنفسك.!!"

راحا يتبعان نفس الطريق التي كانت خولة قد سارت عبرها في الليلة الماضية،

كان ليث يشد لجام حصانه الذي كان يمشي بجانبه، ولاحظ كيف أن خولة بدت حزينة

أكثر مما كانت عندما وجدها تجلس تحت الشجرة، وسألها عن الأمر فأخبرته بأن

شعورا جارفا بالإشتياق لوالدها قد داهمها فجأة، وأنها ستكون بخير بعد لحظة، كان

هنالك حصانان يجران عربة يقطعان الزقاق أمامهما، فوقفا ينتظران عبروها، وسمعا

أحدا يتحدث إلى زوجته من خلف نافذة قريبة يخبرها كيف أنه من الأفضل لرجل

شريف مثله أن يخرج لمعاقرة الخمر مع أناس شرفاء مثله على أن يجلس بجوار امرأة

تقضي نهارها في حك الصوف وحث زوجها على الخروج للبحث عن عمل يتعب به

نفسه، امرأة مثل القياء ابتليت بها، أضاف الرجل وهو يضرب باب البيت خلفه، وهنا

استرق ليث نظرة إلى خولة فوجد أنها تكتم ضحكة تكاد تغلبها، فابتسم بدوره ونظر

نحو الطريق التي صارت خالية في تلك اللحظة، فتحركا يبتعدان عن المكان وقد انشر صدرهما لتلك الحادثة الطريفة.

حين خرجا إلى طرف المدينة، كانت خولة تقف ثريبا من المكان الذي وقفت فيه قبلا، كانت تسبق ليث بخطوات قليلة حين سألته إن كان يتوجب عليها أن تلج الغابة، والذي ابتسم بدوره وقال يجيبها.

- "أما عن دخولها فنعم، وأما أن تكون غابة موحشة مثلما صورتها فلا..."

وأطرقت تنظر إليه مستفسرة، فواصل حديثه:

- "خلف تلك الأشجار، أول أربعة أشجار أو خمسة، ستجدين مسارا بين الحشائش يلتف جهة اليسار على مسافة أربعين مترا، اتبعيه وسيقودك إلى نهر صغير مائه قليل جدا، خلف النهار تجدين أرضا واسعة، ستمرين إليها بعد أن تفتحي بوابة خشبية صغيرة، هي مدخل أرض العجوز المزارع، وهو رجل طيب، فلا تهرعى إن وجدته حاملا فأسه يقف خلفك فجأة، سيكون قد عاد من جمع الحطب، أو ربما يكون ذاهبا لتقوية الزريبة التي يُبقي حيواناته بداخلها..."

ولما كان جوابه الطويل قد أدهشها، فإنها عادت تسأله مستنكرة:

- "لكنني سألتك عن جابر!!"

ورد ليث بثقة:

- "وأنا أخبرك عن مكانه..."

هذا وجعل يمتطي صهوة حصانه ليقفل راجعا بعدها.

راحت خولة تقترب من الغابة مترددة، وكلما كانت المسافة تقل بينهما، كانت الخوف يقل في صدرها، وكانت ترى كيف أنه ليس هنالك ما تخشاه ويرقد تحت الظلال الباردة، مشت تدوس عشب الغابة تلتف حول الشجيرات والصخور لتسير عبر درب ضيق حفرته كثرة الخطى حتى سمعت خرير مياه النهر تأتي من مقربة.

كان هنالك صخور على طول النهار ترتفع فوق مستوى المياه كما أخبرها القائد، ولذلك راحت تمشي عليها بحذر، لم يكن النهر عريضا ولا فائضا مائه، لكن كان رقيقا تظهر قيعانه، بعد أن عبرت خولة إلى الجهة الأخرى نزلت على ركبتيها تغرف الماء البارد بيديها وتغسل به وجهها، شعرت به يبعث فيها النشاط والهمة، وجعل خريره المختلط بحديث الغابة ذهنها صافيا فجأة، حتى لقد نسيت لوهلة ما جاءت لأجله، وبينما هي على تلك الحال أتاها حس قوي بأن شيئا ما قريب منها، ونظرت مجفلة، بينما يتقاطر الماء من وجهها، فرأت عجوزا يقف خلفها، له لحية بيضاء مهلهل الثياب يربط خصره ويضع عمامة على رأسه ويمسك فأسا على كتفه، كان يقف بظهر معقوف مائل، ينظر إليها بغم مغلق وعينين هادئتين مثل عيني نعامه.

غير بعيد عن النهر، جلس الإثنان على العشب يحداقن إلى حفنة من الزهور كانت تنبت أمام شاهدي قبرين يرتفعان عن الأرض قليلا، كان العجوز قد وضع فأسه في حجره وأفرد ذراعيه فوق ركبتيه يحداق ناعسا، بينما خولة قد جمعت ركبتيها إلى صدرها مثلما قد تفعل أيما امرأة هي على وشك أن تخوض في حديث يحزن فؤادها ويربكه، وقال العجوز بعد مضي وقت قصير من جلوسهما:

- "فإذن أنت تبحثن عن الأمير يا ابنتي!!"

- "أجل.."

- "هاه... جيد."

- "تقول جيد...!!"

- "هذا ما أقوله... فمنذ وقت طويل لم يكن هناك من يبحث عنه..."

- "منذ فقد والديه، هذا ما تريد قوله؟"

وسكت العجوز للحظات ثم عاد يقول بعدها:

- "كان قد غادر قبل وصولك بلحظة، لكنه سيعود في المساء ليسقي أزهاره..."

ونظرت إليه خولة بوجه صفيحي دافئ، فكان صمتها سؤالاً بحد ذاته، وحينها

مال العجوز برأسه نحو الأزهار وجعل يضرب الأرض براحة يده، بينما يقول بصوت ثقيل

غائر:

- "هنا... هنا يجلس كل ليلة ليسقيها بيديه الإثنتين" ثم بدا أنه راح يغوص في

ذكريات صفراء قديمة: "أنا زرعته، لأتأكد من صدقه وبراءته... حتى إذا رأيت البذور

تنمو من تحت الأرض وترفع التربة علمت صدقها، وقلت لنفسي يالي من شيخ عجوز

طاعن السن يوجعه ظهره، لم أكن مجرد شيخ عجوز طاعن السن يوجعه ظهره، بل

كنت شيخا طاعن السن يوجعه ظهره وغبي الرأس أيضا، غبي بالقدر الذي يجعله لا

يصدق كلام زوجته، مثل كل أهل المدينة... حين قالت أن... أن..."

- "هل تعني أنك..."

ورفع العجوز صوته أعلى قليلا مما كان يتحدث به قبل ذلك، ظنا منه أنه يصيح غاضبا، وراحت عبارات تغشي بصره وظهر احمرار على أنفه المحدودب، صاح بالقدر الذي استطاعه:

- "لا تقاطعيني، ولا تسأليني أيضا... دعيني أتحدث، فأنا لم أتحدث إلى شخص غير ذلك الفتى منذ فترة طويلة..."

قال هذا وأجهش باكيا، وشعرت خولة بالأسى لأجله، أسى من ذلك النوع الذي يشوبه الضحك، لكنها لم تظهر له شيئا، فقد كان أمر القبرين يغلب على كل فكرة في رأسها، إنطلق العجوز كربة أخرى يغمغم بعد أن سكت مثل طفل ترك لوحده:

- "أمر ذلك الولد يحزنني، حتى أنه لا يستطيع رؤيتها... أتحدث عن الزهور، فهو لا يراها، لا يرى ماء النهر أيضا، لا يرى أوراق الشجر، ولا التربة التي تحتها، هل تفهمين قصدي؟"

ونظر إليها فكانت تحرك رأسها يمنة ويسرة، بدهشة، دون أن تكون قد فهمت ما يقوله، غير أن شعورا قويا كان يخبرها أن العجوز لو أفاض في ذلك الحديث أكثر فإذن لكان بوسعها أن تفهمه، وذلك ما فعله، حين همت بأن تسأله، وهم هو بالوقوف قائلا، بصوت عميق غائر، كناسك يلقي حكمة:

- "قلت لك لا تقاطعيني، أنت تسألين نفسك وأنا أجيبك، أعرف ما الذي ستسألينه... أجل، ذلك الفتى لم يعد يرى الألوان التي نراها، هو يرى الأسود والأبيض فقط، تماما مثل غربانه، هل أنا متأكد؟، أجل، كيف عرفت هذا؟، حسنا..." وجمع يديه

خلف ظهره وتقدم نحو الأزهار حتى لم يبقى بينه وبينها غير خطوة: ” عندما تأتين في المساء إلى هنا، أعرف أنك ستعودين مرة أخرى، أقول أن تسأليه عن ألوانها، وسترين حينها ردة فعله... حسنا، قد أكون ثارا جدا، ربما ذلك العجوز الشرار الذي لا يحب أحد أن يجلس منه على مقربة، لكنها هي التي أجبرتني، هي من جعلتني هكذا، منذ تلك اللحظة، أصبحت هكذا، منذ تجادلنا... لم ترد أن تسمعني، كانت تصر على رأيها، وثق في عينيها أكثر مني، وبدل ذلك أخذت نعاجها وذهبت، تركتني أتحدث إلى نعاجي أنا، أنا بعد أن كنت رجلا يحسب له أمره، ويتقى شره، أصبحت لا أجد غير نعاجي لأتحدث إليها، غير أنها جيدة، في الإستماع طبعاً، حتى أكثر من عجوز شمطاء تظن أن لها الحق في طحن كل عشبة تقع عيناها المنطفئتان عليها وتقدمها لأي شخص يشوك على الموت لا لشيء إلا لتخفف عنه الأمر وتسرع من موته، لكن نعاجي، نعاجي سأتحدث إليها لدهر كامل ولن تمل مني، قد تنام وقتها، لكنها تستيقظ بعدها وتواصل سماع ما أقوله، طالما وضعت الحشيش عند أقدامها... هيه، والآن أتركيني لوحدي أيتها الأنسة، فموجة الحديث بدأت لتوها، لأن ما قلته كان... ” وسكت بعد أن نظر خلفه ولم يجدها، كان موضع جلوسهما خالياً، فضيق عينيه للحظات بينما يمص شفثيه بقسوة:

- ” أجل، اذهبي أنت أيضاً، جميعكم تذهبون بينما أتحدث... دعي هذا العجوز يصرخ لوحده أمام قبرين جميلين يرقد فيهما أمير وزوجته بعد أن ذبحا غدرا، اذهبي، لكنني

باقٍ هنا، بينما تأكل أغنامي أعشاباً طرية على مقربة من النهار، أجل، إنني أراها،
أغنامي المستمعة. ...”

بعد عودة خولة إلى القصر مباشرة ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب على نفسها،
وحين رأت السيدة نجلاء بعض الفتيات يتجمعن عند بابها فإنها راحت تتسائل إن
كان هنالك ما يجب أن تعرفه، وأدنت أذنها، فكان أن سمعت بكاء خولة يأتي من
خلف الباب شحيحاً، حاولت فتحها فلم تقدر، وحينما استدارت تسأل الفتيات فإنهن
لم يكن أقل جهلاً بالأمر منها، وحرّكن رؤوسهن نفيًا، ثم ابتعدن عن المكان فوراً،
وطرقت السيدة نجلاء على الباب مرتين ثم ذهبت.

أتى الليل وتبععت السماء بحبات الضوء المتلألأة، وجثم القمر في صدرها
كعادته، وبينما يهطل الهدوء على أرض الشجر، كانت خولة حينها تقطع النهر بخطوات
حذرة، لم يكن هنالك الكثير من الأشجار القريبة، بل كان سقف النهر عارياً، ولذلك
كان شعاع القمر ينير دربها، سارت نحو المكان الذي كانت قد جلست فيه مع العجوز
صباحاً، وحين اقتربت بما يكفي لمحت خيالاً يجلس أمام القبرين مباشرة منكساً
رأسه ولذلك خفت من خطوها حتى انحنت خلف شجيرة بعيدة وجعلت تراقبه، لثانيتين
فقط، حتى تذكرت أن لا جدوى من ذلك، فخرجت من هنالك وسارت نحوه بينما تتكسر
الأغصان الرقيقة تحت قدميها محدثة أصوات يمكن سماعها من مسافة.

جلست بجانبه مباشرة، كأنما قد اتفقا على موعد بينهما، فرفع الأمير رأسه
عن قبر والديه وقال بصوت هادئ.

- "ما الذي جاء بك إلى هنا؟".

- "النوم لا يأتي...".

...

- "هذا مكانك إذن!".

وراح يجيبها بصوت لهيف كاسف.

- "هذا مكاني... أنتظر هنا كل ليلة، على أمل أن يقوم أحدهما ليخبرني أن ذلك لم

يكن خطئي...".

- "بات الجميع يعرفون بأنه لم يكن خطأك...".

- "أنا فقط أحاول أن أخلق عذرا لم يسبق لأحد أن قاله، بجلوسي هنا، دون أن أفكر

في شيء آخر... عذر يكون فيه شفاء لقلبي، بحيث أصدقه أنا أولا، ثم إذا صدقته،

سأسمعهما إياه، وأرى...".

مرت عدة دقائق ثقيلة دون أن ينطق أحد، وجثم صمت السماوات فوقهما، ثقيلًا

مثل جبل، غاب فكرهما في أشياء بعيدة، ولم يكن يحييه سوى صوت الغابة، طيور

تتربص فوق الأفرع، أو فرائس تهرب، أو حشرات تمضغ طعامها، ثم وجدت خولة أن

تشرع في خطتها، بعد أن نظرت إلى الأزهار لبرهة:

- "يالها من أزهار جميلة نمت هنا...".

- "لك أن تأخذها وتعيدي غرسها في حدائق القصر إذا شئت...".

وأظهرت ابتهاجا مفتعل:

- "لا، أريد واحدة فقط لأشتمها في طريق العودة، هلا قطفت لي تلك البيضاء بجانبك؟".

ونظر الأمير جابر إلى المكان حيث أشارت، للحظات بدت طويلة ثم مد يده واقتطع واحدة وجعل يرفعها في تأن، وحين ناولها إيها فإنها تأخرت عن أخذها من يده، فقد كانت دهشة رقيقة تملأ فمها، وقال الأمير حينئذ بصوت مستفز واضح:

- "ذلك العجوز الثرار يصبح ثرارا جدا إذا ما وجد فرصة لذلك... "ضحكت خولة لكلام جابر حتى سمعته يقول بعدها: "هل علي إخبارك كم أنك تفشليين في التمثيل تماما كما تفشليين في الإختباء؟".

وسكتت خولة دون أن تقول شيئا، ليس لوقت طويل جدا، ثم كان أن رسمت الجدية على وجهها ونطقت تسأله:

- "هل هنالك أمر لا تعرفه عن الأشخاص اللذين يسكون قصرك؟".

وتنهد الأمير مطولا:

- "ربما... ما كنت لأسمح لأحد بالتجوال بجانبني دون معرفة نواياه".

- "لكنك لا تستطيع قراءة أفكارني، ولهذا لا تعرف نوايائي...".

- "أمتأكدة؟".

لم ترد مباشرة، إنما استنشقت عبير الزهرة مرتين أو ثلاثة:

- "أكان والدك يعاني كل الذي تعانيه أيضا؟".

- "لا...".

- "إذن؟"

- "كان يفتقد القدرة على النوم فقط."

- "فلماذا يحدث معك كل هذا إذن؟"

- "هذا لأنَّ السحرة لا يقدمون الهدايا، فإذا كان على المرء أن يطلب منهم شيئاً

فيبغي عليه أن يكون مستعداً لتقديم شيء في المقابل... " قال ذلك ورفع يده إلى

القناع على وجهه " كان فقدي للقدرة على رؤية الألوان ثمناً لشيء أردته، وأما هذا...

هذا الألم، فلا أدري بشأنه."

- " فالنوم هو الثمن الذي دفعته لقاء ترسيمك أميراً إذن... "

- " هل يبدو أمراً هيناً؟ "

- " لم يكن هذا ما قصدته "

- " أجل، إنما أردت التحقق مما سلبتني إياه الأمانة "

وفهمت خولة أنه إنما ينبغي تأجيل الخوض في هذا الأمر لوقت آخر، وحينها

خيم الصمت حولهما مجدداً، لدقائق طويلة، حتى عادت تقول بعدها:

- " ذلك العجوز، من يكون؟ "

- " كثيراً ما تسألين عن أشياء تعرفينها... "

...

- " هو زوج السيدة مريم... عاشا معاً لأكثر من أربعين عاماً، تشاجرا خلالها مرات

عدة، ثم كان هناك شجار أخير بينهما... "

- "ألا تظن أنه يريد أن تعود إليه؟".

- "لا شأن لي بما يريد". ...

- "لم أقل هذا أن هذا من شأنك". ...

- "كان ينبغي عليك ألا تقولي أي شيء من البداية... " لاحظت خولة كيف أن تغييرا غريبا قد حدث في صوت الأمير جابر، حتى صار يبدو وكأن شخصاً آخر قد حلّ مكانه، عدلّ موضع قناعه بيده وأردف بلهجة آمرة: " من الغد، عودي إلى التدريب على القوس، تدريبي بجدية أكبر، ينبغي ألا تخطئي إصابة أي شيء أمامك، ينبغي أن تصيري ماهرة إلى هذا الحد... الآن عودي إلى القص حالا، الجو يبرد، كما أنني أريد أن أبقى لوحدي".

وقامت خولة في غضب، مشت بعيدا نحو النهر ونظرت خلفها، فرأته ينزع القناع ويضعه أرضا، راقبته للحظات بينما يرفع وجهه إلى السماء قبل أن تنطلق مرة أخرى، مجددا هاهو الأمير يتصرف بغرابة فينقلب في لحظة من حال إلى أخرى، ولا ينكفي عن خلط الأمرين معا، فلا هو يميل إلى قسوة صريحة ولا إلى لين يطول وقته، شيء واحد كانت خولة متأكدة من حدوثه، هو أن لذلك الألم في وجهه علاقة بتقلب تصرفاته.

بمضي الأيام كانت مهارة خولة في استعمال القوس قد تطورت بشكل مضاعف، لاحظ الأمير ذلك وهو يقف على الشرفة يراقبها، رآها تصيب التفاح مرارا وتكرارا، وإن أخطأت فإن السهم لم يكن يبتعد كثيرا عن هدفه، ولم يكن يخرج من

فوق السور أبدا مثلما كان يحدث في الأيام الأولى، في بعض المساءات كانت تذهب عند العجوز المداوية تتفقد حالها، لكنها في مرة ما قررت أن تعود لزيارة ذلك العجوز الذي يقيم عند النهر في الطرف الآخر من المدينة، وحين وصلت إلى حدود أرضه فقد كان هنالك حيوانات كثيرة ترعي على مقربة من كوخ مصنوع من القش والخشب كان يقف وسط عدد من الحقول الصغيرة المربعة التي تحتوي خضراوات مختلفة، طماطم وبطاطس وفاصولياء متسلقة وخس وسبانخ، وجدت لنفسها ممرا وصلت من خلاله إلى الكوخ فسمعت طرقا عنيفا لأداة معدنية، ورأت دخانا يصعد من خلفه، مشت حوله حتى وقفت أمام غرفة صغيرة مبنية بالطين والحجارة، لها نافذة مربعة، وليس فيها باب تسد مدخلها.

رأت حولة العجوز وقد وضع سيفاً على سندانٍ وأخذ يضربه بمطرقة ثقيلة، كانت ذراعه العاريتان تشبهان غصنين منزوعا اللحاء قد أصابهما المطر، ولم يكن شكلهما أبدا يعكس قوة الضربات التي كانت تنهال على السيف لشدة قوتها، فلم تكن تناسب أبدا ضربات يمكن أن تصدر عن ذراعين نحيفتين تخرجان من جانبي عجوز في مثل تلك السن المتأخرة.

نقلت عينيها بين مختلف الأدوات الحادة التي كان العجوز يعلقها على جدران الغرفة، من سيوف وخناجر ورؤوس رماح وسهام ودروع حربية، ثم وقعت عيناها على أداة غريبة مغطاة بجلد أسود يخرج منها نصل حاد يلمع طرفه، وعرفتها حولة مباشرة، تقدمت خطوتين حتى أصبحت داخل الغرفة وقالت، مرحبا، لكن العجوز لم يرد عليها،

وظل يضرب بمطرقته، وظنت أنه لم يسمعها، فذنت من تلك القطعة وأخذت تتفحصها، ولم تنتبه إلا والعجوز يضع مطرقته وويلتفت نحوها، لمحها شزرا ثم مسح جبينه بيده وتنهّد بينا ينزع مرولته، كان وجهه المتسخ يتسم بحمرة من أثر نار الفحم الحارقة، وكانت عيناه متعبتان بشكل ظاهر، وضع المريلة ومشى بضع خطوات ثقيلة بعيدا عن السندان إلى ركن قصي وجلس على كرسي خفيض مصنوع من الخشب وأخذ قطعة قماش جعل يمسح بها حبات العرق النازلة على وجه ورقبته، أخذ أنفاسا ثم نطق قائلا بينا ينظر إلى الأداة في يدها:

- "تخص ذلك الفتى، لقد طلب مني إصلاحها... يبدو أنه يخطط لذبح أحدهم".

وردت خولة مبديّة بعض العجب:

- "هل أنت من قام بصنعها؟".

ورد العجوز بتفاخر:

- "أجمل شيء صنعته...".

- "متى كان ذلك؟".

- "قبل وفاة والديه بفترة، ثم صار بعد ذلك يأتي كل مرة ويتركها هنا حتى أصلحها، في العادة كان يأتي قبل ذهابه إلى القتال مباشرة، لكن خلال الأربع سنوات الماضية لم يأتي سوى مرتين أو ثلاثة...".

- "ألم تكن تكرهه في تلك الفترة؟".

- "بلى، ولازلت...".

- " فلماذا تصلحها إذن، هل يجبرك؟".

- " لا، لكنني لا أحب أن تفسد الأشياء التي أصنعها بسرعة، في صغري كان والدي يصنع سيوفا لا تنكسر إلا بعد أن تكسر مائة من السيوف الأخرى، وأنا أخذت طباعه..."

وضعت خولة الأداة مكانها وعادت تتكئ على أطار المدخل بينما تتفرج على جدران الغرفة:

- " ألسنت نادما على تكذبيك لزوجتك؟".

- "زوجتي؟" قال العجوز وهم واقفا، مشى نحو السيف الذي كان يعمل عليه فأعاد إدخاله في النار ووقف يتأمله: " أنا لم يعد لي زوجة... هل تذهبين عندها؟".

- " عند من؟".

- " عند زوجتي".

- " هل اعتدتما الشجار كثيرا؟".

- " كنت أصدقها... كنت أصدقها حتى حاولت أن تقنعني بأنها نجحت في خلط الخضراوات التي أزرعها حتى تصنع طعاما يمكن تناوله دون رمي أول ملعقة، ذلك حتى يعتاد اللسان عليه ويألفه..."

قطع على خولة ضحكتها المكتومة صوت العجوز حين أتى مغمغما هذه المرة:

- " إنتظرتها أربعين سنة حتى تصنع لي طعاما جيدا، وحينما فعلت، فلم ترضى أن

تخبرني من أي بيت في المدينة قامت بسرقة..."

تذكرت خولة الحساء اللذيذ الذي كانت تعده لها السيدة مريم أثناء مرضها، فابتسمت لبرهة وقالت:

- "ولماذا تظن أن ذلك الطعام لم يكن من صنعها؟".

واستغرق العجوز بعض الوقت ليجد الإجابة:

- "لأنه كان لذيذا جدا، وهي لا تعرف كيف تصنع طعاما لذيذا، همها الوحيد هو التجول قرب النهر وجمع الأعشاب الغريبة...". وأردف بعد لحظة: "إسمعيني يا ابنتي، لا يأخذك الغلط إلى أن تذهبي إليها وتتذوقي حساءها، تحدثي إليها من مبعدة، دون أن تجبرك على الجلوس إلى مائدتها، وإلا فسوف يمرض لسانك ولن تكوني قادرة على تذوق أي شيء لشهر كامل...".

ضحكت خولة الآن ملاً فاهها، وحين انتهت وأمسكت نفسها، فإنها عادت تسأل:

- "وماذا عن الأغنام الكثيرة التي هنا، فيما لا تمتلك هي إلا القليل فقط".

- "تلك كانت حرية شخصية تمتعت بها الأغنام نفسها، وقد اختارت...".

لم تفهم خولة مقصد العجوز من هذا، وإذ كانت تهتم بأن تسأله، فقد كان يضع السيف تحت المطرقة مرة أخرى، بدا وكأنه قد اكتفى من الحديث عن زوجته، ولم يرغب في تذكرها أكثر من ذلك، ثم إن خولة لم تكن تود أن تسمع ضجيج المعادن أكثر مما فعلت، ولذلك غادرت المكان مباشرة، في الخارج، وبجانب حقل السبانخ الأخضر، نظرت نحو المغيب لتقدر الوقت، كان هنالك غيمة مثل الصوف المتسخ

وعليها حمرة، لم يكن قد بقي الكثير على حلول الظلمة، فاستدارت وراحت تعود أدراجها.

حينما غادرت خولة أرض العجوز لم يكن القصر وجهتها، بل ذهبت نحو الطرف الآخر من المدينة تقصد كوخ العجوز المداوية، سارت على ما تبقى من ضوء المساء تحت الخطى، حتى وقفت عند الكوخ تطرق الباب لثلاث مرات متتابة، ولما طال بها الأمر فقد التفتت تنظر في الأرجاء عليها ترى العجوز تتجول هنا أو هنالك كعادتها، لكن لم يكن ثمة أحد، نظرت إلى الأغنام وكانت تجثو على قوائمها نائمة، وعندما همت بالإستدارة لتعود أدراجها، فقد وجدتها تقف خلفها تطالعها بعينين ضيقتين تقطران مكرًا، لم تقل العجوز شيئًا، إنما استدارت بعكاستها صوب الكوخ ورفعت عصاها ودفعت بها الباب نحو الداخل.

كان هنالك ماء يغلي في قدر صغير في الزاوية، وكانت العجوز قد خرجت لتبحث عن الفطر خلف الأشجار القريبة، غسلت ما جمعتها ثم جزأته إلى أجزاء صغيرة وألقت به بداخل القدر وأعدت الغطاء فوقه، ثم جلست على سريرها، لهتت قليلًا ثم رفعت رأسها عن الأرض وراحت تجيب خولة:

- " ذلك شأنه، إن لم يكن يريد أن يصدق ما أقوله..."

وسألتها خولة بينا تبتسم:

- " هل كنت تتعمدين طهو الطعام بحيث لا يعجبه مذاقه؟"

- " لا... بل ذلك كل ما استطعته."

- " لكنك طهوته بشكل جيد في إحدى المرات أليس كذلك؟".

- " هاه، ساعدتني نجلاء، فليذهب ويتزوجها إن أراد ذلك، سينتفخ بطنه كثيرا بعدها...".

ضحكت خولة ملء فاهها لحديث العجوز المداوية، فقد بدت وهي تقول هذا، مثل طفلة أصابتها غيرة.

- " فإذاً أنت تقرين أن طبخك لم يكن جيدا...".

- " وهل هو الآن جيد؟".

- " قريب من الذي تعده السيدة نجلاء...".

- " وهل مازالت تطبخ، ما الذي تفعله كل تلك الفتيات هنالك إذن؟".

- " تطبخ عندما لا تكون في مزاج جيد، تقول أن ذلك يساعدها...".

- " آه، حسنا، فإذاً تقولين أن طبخي يشبه ما تعده نجلاء، هذا ما تقولينه؟".

وهزت خولة رأسها مبتسمة، وأدارت العجوز وجهها نحو القدر التي كانت تغلي على نار هادئة، بدا وكأنها تذكرت شيئا وراحت تسترجعه، شيئا ما قد حدث في أيام بعيدة، حتى لم تعد تسمع صوت طقطقات الجمرات وهي تتفجر، لكن أيقظها صوت خولة فجأة، فراحت تجيبها:

- " هو دبر حيلة ليسرقها، لا أعرف ما الذي قام بفعله، لكنني أعرف أنه دبر شيئا،

الجميع يعرفون أن الخراف تأكل العشب عندما تستيقظ صباحا، إنها لا تأكل شيئا آخر...".

انقضت الجلسة، وعادت خولة إلى القصر لتقضي ليلتها، وباتت تفكر في ما طلبته منها العجوز المداوية، وحينما كان صباح اليوم التالي ذهبت خلف النهر لتجد العجوز يرعى أغنامها، ونادته من مبعده، كان يضع قبعة قش على رأسه، وقال يسألها بعد وقت قصير من وصولها عنده:

- "أنت متأكدة؟"

وهزت خولة رأسها.

- "هي اقترحت هذا بنفسها؟"

- "بل تصر عليه أيضا..."

ووضع العجوز يده على ذقنه يفكر، للحظات فقط:

- "إسألها عن الفاصولياء الحمراء..."

وعادت خولة نحو الطيببة فوجدتها تجلس على صخرة قريبة تراقب أغنامها هي

الأخرى.

- "قال إنه يرغب بالفاصولياء الحمراء... إن كان..."

وقاطعتها المرأة فكأنما قد استفزها الطلب:

- "اذهبي وأحضري الخضار حالا، ولا تنسي الملعقة، ذلك البخيل لا يأكل خضارا

لا يغرسها، ولا يقرب طعاما لم يطهى بملعقته العزيزة..."

وصلت خولة عند العجوز وهي تلهث، ونظر إليها بعينين لا تأملان خيرا.

- "لقد وافقت..."

- "هاه..."

- "ماذا، ألسنت سعيدا بهذا الخبر؟"

- "سعيد؟... ولماذا أسعد؟، أعرف أنها ستقتلني، ستضع شيئا في الطعام وتقتلني، لم أمنحها الفرصة منذ غادرت وهاهي الآن تطلبها مني، فهل تراني ساقبل؟".
بدا العجوز - وهو يقول هذا - مثل طفل صغير يعاند، حتى لقد رفع ذقنه وشفتيه لأعلى، ونقل عينيه إلى جانب.

جلسا معا بعدها، يراقبان الأغنام وهي تسرح، وانتظرت خولة حتى ذهب عنه التوتر وأعدت فتح موضوع قسمة الأغنام فكان أن رد يجيبها بهدوء بالغ مرتديا لحاف البراءة:

- "هيه، وما بها تلك القسمة، أنا طرحتها وهي وافقت، والسلام على من أخذ..."

- "وهل تخبرني كيف تمت القسمة بينكما؟"

- "أخبرك، طبعا أخبرك... قلت لها طالما ستذهبين فلنقم بأمر جميل إذن، اقترحت عليها أن شهاج الحيوانات بداخل دائرة كبيرة، وأن نضع أوراق الذرة خارج الدائرة، على أن تأخذ هي تلك التي تخرج لأكلها، فيما أخذ أنا التي تبقى، الحيوانات في الصباح تكون جائعة... ويالها من قسمة مربحة لها، لكن ما شأني أنا إن كان مزاج الحيوانات في تلك الصبيحة قد تعكر لسبب لا نعرفه..."

لم تصدق خولة شيئا مما تفوه به العجوز هذه المرة، فمن تحركات عينيه أدركت أنه كان يكذب، لكنها بشكل ما وجدت ذلك مضحكا، وكتمت الأمر في نفسها، ثم

وافقته على أنها كانت قسمة عادلة وسألته أن يعطيها الخضار من حقله، ووافق مباشرة هذه المرة فذهب وعاد ببعضها، ثم بدا أنه قد نسي شيئاً، فركبت خولة موجهة من الضحك لما رأيته يتعثر ويسقط في حقل البطاطا، لكنه كان يعرف متى ينبغي عليه أن يكون نشيطاً، ولذلك دخل كوخه وخرج، ناولها ملعقة خشبية كبيرة وقال بينا يودعها:

- "راقبيها جيداً، تأكدي إن كانت ستصنعه بنفسها، ولا تدعيها تضع السم بداخله... اسرعي، اسرعي حالاً قبل أن أغير رأيي." ...

لم تتمكن خولة من سماع كلماته الأخيرة، فقد قالها بصوت خافت، وكانت هي قد انشغلت بإيجاد خطواتها بين الصخور مخافة أن تسقطها الخضار التي بين ذراعيها.

قبيل منتصف النهار وفي كوخ العجوز المداوية، كان هنالك طعام يطهى فوق النار على غير وقته، وكانت العجوز قد انتهت من اعداده للتو وعادت نحو الخارج فناولت امرأة كانت تتقيأ بعبوة بها أعشاب طبية وعلمتها كيف تستعملها ثم تركتها ترحل، فعلت العجوز ذلك واستدارت إلى خولة:

- "أين كنا يا ابنتي، هاه... قال أنها كانت قسمة عادلة، وأنا قلت هذا، لكنها كانت لتكون كذلك حقاً لو لم يكن هناك شيء مريب في الوسط." ...

أتمت العجوز كلامها وهي تلوح بيدها غاضبة ومتوعدة، ولما لم تكن خولة قد فهمت الأمر جيدا فإنها أعادت سؤالها عن ذلك، وراحت تجيبها المرأة بينما تجلس على مقعد خشبي كانت قد أخرجته معها، بعدما وضعت يديها فوق عصاها وتنهدت: - " ذلك المخادع، خرج في الليل خلسة ووضع القطران في أوراق الذرة وجعل الحيوانات تأكلها..."

وراحت تمثل الأمر بيدها، فكأنما أمامها فم خروف وبيدها عشب به قطران فراحت تحشوه به.

- " الآن ما رأيك، هل كانت قسمة عادلة؟ من يحب رائحة القطران في طعامه؟ لقد جعل الخراف تكره أوراق الذرة إلى اليوم، ثم حدث ما حدث بعدها... حتى لم يضحك، كان عليه أن يضحك، عندما رأى نعجتين فقط تخرجان من الدائرة، لا بد أنه شعر بالكرم حينها، لأنه لم يطعم كل النعاج ورقا تغلفه رائحة القطران النتنة، رجل سيء، سيء مثل بيضة فاسدة، أو أفعى ماتت منذ زمن..."

حتى الآن، لم تنتبه العجوز إلى خولة لما كانت تضع يدها على فمها حتى تكتم ضحكتها، وحين نظرت إليها فإن مظهر خولة كان يبدو مناسباً جداً لشخص يسمع مظلمة، ذلك أنها تداركت الأمر في آخر لحظة فأنزلت يدها من على وجهها وكتمت أنفاسها، لكن العجوز بدت غاضبة جداً، مثل قدر تغلي، وحينما ذكرتها خولة بأمر القدر فإنها قامت من فورها وعادت تتفقدتها.

عادت خولة بطبق الطعام نحو العجوز فناولته إياه وتركته يختلي به لوحده، فيما بقيت هي تراقب كرات الصوف في الخارج، حين خرج بعد دخوله الكوخ بفترة قصيرة وعلى حين غرة، جعل يقول صارخا وهو يتنفل الطعام من فمه:

- "اللعنة... ما هذا، أيتها العذراء الصغيرة، تقدمي، تقدمي إلى هنا، اذهبي حالا، حالا وخبريها أن هذا كان أسوأ حتى من أي شيء قد تذوقته منذ عرفتها، تبا... هيه، أسمعيني، أستقولين لها هذا أم ينبغي علي أن أذهب بنفسني؟".

وأصاب خولة ذهول من مما تسمع، وراحت تحدق بعينان يملؤهما العجب، فلم يكن في وجه العجوز ما يشي بأنه سوف يهدأ بعد لحظة، إنما حمرة قد ارتسمت على أنفه وعيناه من أثر الغضب، وبانت عروق رقبتة بشكل عنيف فيما ظلت أسنانه تسطك حتى بعد مرور ربع ساعة، بعدما غادرت خولة معلنة استسلامها، ورجع هو إلى الكوخ وأخرج الطبق وألقى به إلى مسافة بعيدة، ثم عاد يسب ويتنفل ما بقي عالقا من الملح في فمه، وكانت العجوز المداوية قد غافلت خولة في لحظة فدست حفنة ملح في الطبق آملة بذلك أن تحرق فم العجوز وتشفي غليلها، وقد كان لها ما أرادت، غير أن خولة لم تعرف حقيقة ما حدث، بعد أن لم يخبرها العجوز بعلة الطعام لأن ذلك كان سيسعره بالمجابر من الإهانة والخجل، وهكذا بقي الأمر بينهما.

أظلمت سماء المدينة ثلاثا، وفي صباح اليوم الرابع جاءت خيول تجري في جهد حتى بلغت بوابة القصر، كانت خولة تتدرب في الحديدية كعادتها، حين سمعت تلك الضجة، والفتت فرأت القائد ليث والأميرة رخم يتقدمان نحو الأدرج حيث كان الأمير

جابر يقف هناك في الأعلى أمام القصر في انتظارهما، وكان الأمير المقنع قد أرسل قائد جنده يدعو الأميرة رخييم للحضور إلى قصره، لا لشيء سوى لمساعدته في تنفيذ انتقامه، وفهمت خولة الأمر مباشرة، لمّا لم يكن الأمير جابر يظهر في الأيام الأخيرة، ذلك أنه كان منشغلا بالتخطيط لشيء كهذا.

حول طاولة كبيرة، تحلق الجميع ينظرون في وسطها باهتمام بالغ، إلى مجسمات لجبال ومباني وخرائط تقريبية لأرض الرمال، الأمير جابر والأميرة رخييم وليث وخولة وعدد من المقاتلين المهرة، وكان الأمير قد أخذ يشرح الأمر منذ فترة.

- "الآن تعرفون جميعا لماذا دعوتكم، سنقتل الأمير أرون..."

وانتقلت إليه الأبصار فيما أردف:

- "أرض الرمال قاتلة، ومخاطرها لا تنتهي.. فالتضاريس فيها وعرة، ناهيك عن دخول مدينتها بفرقة كاملة دون أن يتم كشف أمرها... لأرض الرمال وحش يحميها، مثل باقي الأراضي الأخرى، بعضكم رآه وبعضكم سمع عنه وبعضكم لا يعرف عنه شيئا... هو عقرب بالغ الشراسة، لا يشبه أي عقرب قد تعرفونه..."

غاب صوت الأمير في الأجسام الموضوععة على الطاولة، وحل مكانه مشهد الفرقة وهي تتقدم بين جبلين يختزلان منفرجا مفروشا بالغبار ومطرزا بالصخور وبقايا العظام القديمة والأشواك الجافة، ستة عشر شخصا يمتطون جيادا قوية راحوا يعبرون المنفرج، لكن على مشارف المدينة، مدينة أرض الرمال الغامضة لم يظهر غير ثلاثة منهم، لم يكن بإمكان الحرس الملفعين في عباءات بنية والواقفين على أسوارها أن

يروا غيرهم يقدمون من تلك الناحية، وضع قائد الحرس يده على جبينه حتى يصفى نظره، كانت ريح الصحراء تحرك عباةته يمناً ويسرة، حين أنزل يده مشيراً لحرس البوابة بأن يسرعوا بفتحها، ليدلف ضيوفه إلى الداخل.

كان ثمة عدد من محاربي أرض الرمال يقفون عراة الصدور خلف البوابة حاملين سيوفا ذات نهايات عريضة معقوفة، ملثمين ينظرون بعيون حادة... ترجل الثلاثة عن أحصنتهم وراحوا يتبعون قائد الحرس الذي نزل لاستقبالهم، الآن غير بعيد عن البوابة، وما إن أصبحوا يشقون طريقهم عبر شوارع المدينة الرملية حتى ظهر أمامهم وحش أرض الرمال فجأة، مزمجرا ومكشرا عن أنيابه، وقد كان عقربا ذا هيئة عظيمة، له عينان تشعان دون توقف، حدق فيهم للحظات قليلة قبل أن يشب فوق سطح بيت قريب ثم جعل يتتبعهم نحو القصر قافزا من سطح لآخر بأقدامه الكثيرة المدببة، نظر ليث إلى خولة فوجد أثر ذلك على وجهها، كان واضحا أن العقرب قد بث الرعب في نفسها، وحين نظرت إليه هي الأخرى فإنه طمأنها بتعبير سريع رسمه على وجهه، ذلك وتابعا السير رفقة الأمير جابر، الذي لم يكن يابهُ لأي شيء في تلك اللحظة غير شيء واحد. واصل الأمير جابر شرح خطته:

- " حالما نعبر البوابة سيكون هنالك جنود لمرافقتنا نحو القصر، قد يخرج العقرب لملاقاتنا في أي لحظة، وإن ظهر فسيظل برفقتنا بعدها... الآن عندما ندخل القصر سيكون عليكما... " ونظر نحوهما تواليا: " ليث، خولة، أن تبقياً خارج القاعة، رفقة الحاراسان اللذان يقفان على بابها، فيما أدخل أنا للأسوي الأمر بنفسى... " وهنا نقل

بصره نحو الأميرة رخم، ومن نظرتة فقط عرفت دورها، دون حتى أن يبدأ في شرحه، فسحبت يديها عن الطاولة وجعلت تضعهما حول خصرها في غنج، لم يكن هنالك من يقدر على رؤيتها، لكن كان ثمة ثوب حريري وشال معلق وقفازان أزرقا اللون طويلان يتأرجحان في الهواء أمام أنظارهم، ثم جاء صوتها متشدقا:

- " أفهم ما علي فعله. "...

من مبعده، كانت مدينة الرمال تبدو وكأنها ميتة، ببيوتاتها الترابية والهدوء الغريب الذي يلفها، والهواء الأصفر الذي يطفو ثقيلًا فوقها، لكن مع دخولهم القصر ترائي لخولة عكس ذلك تماما، بداية من عقربين حجريين يتربصان على جانبي المدخل قد نحتا بتفاصيل بالغة الدقة، وأعمدة ملتوية شاهقة، ورجال أشداء يقفون متخشبين بنظرات متقدة، نظرت خولة خلفها وكان الوحش قد اختفى، وحينها صار بمقدرها أن تشعر بشعور أفضل، فتح حارسان مصراعي الباب فدخلوا إلى الداخل دون إبطاء يذكر، وحينها شعرت خولة بدهشة عظيمة تملكها، فبلاط القصر كان من حجارة مربعة الشكل بارزة، لم يكن أملس مثل البلاط الموجود في قصر الأميرة رخم، لكنه لم يكن يقل عنه جمالا وروعة، فاختلفه قد أعطاه تميزا، كان سقف البلاط مرتفعا جدا بدوره، وقد رسمت عليه عقارب وأفاعي متعاركة ولونت بألوان صفراء وسوداء رائعة، وانتبهت خولة لنفسها حينما تقدم أحد المرافقين من الأمير جابر وأخبره أن الأمير آرون في انتظاره، ثم رأتهما يدلغان قاعة يقف على بابها حارسان يغطي كل منهما رأسه بخوذة ذهبية اللون ويمسك في يده رمحا يفوقه طولًا، ولا يكفان عن التحديق

في القائد ليث الذي كان يبادلها نفس النظرات المتحدية، حتى إذ مر من الوقت ما أتفق عليه سمع الأمير أرون ضجة تأتي من الخارج فاستأذن ضيفه وخرج ليتفقد الأمر بنفسه.

- "لقد حاولت الإقتراب من الباب واستراق السمع يا سيدي".

كذلك صدح حارس يجيب الأمير أرون حين سأله عن سبب الجلبة، وإذ ذاك فقد نظر أرون إلى خولة فعرفها من فوره، وتذكر الحادثة التي وقعت له معها فيما سبق، حين جاءت تمده بالشراب في قصر الأمير جابر.

واصل جابر رسم خطته، فاستهل كلامه قائلاً وهو يوجه نظره إلى خولة، بنبرة المتأكدة مما سيحدث:

- "سيطلب منك أن ترافقيه إلى الداخل، فنفذي الأمر مباشرة وكأن ذلك هو كل ما كنت ترغبين في حصوله... سيشارك بك أكثر حينها، سي طرح علي بعض الأسئلة، وسأجيبه... ثم سيحاول التأكد من أمرك، وحيئذ..."

دلفت خولة خلف الأمير أرون إلى القاعة، دون حتى أن تترك سلاحها خارجاً، تاركة ليث لوحده مع الحارسين يراقبون بعضهم، وفي الداخل كان جابر يجلس خلف طاولة اجتماعات عظيمة يسند ذقنه على قبضتيه فيما يتأمل دخولهما، وأما أرون فوقف على مقربة يطالعها، للحظات ثم نظر إلى الأمير وجابر فقال يسأله:

- "أوليست هذه هي الفتاة التي قدمت لي الشراب في ذلك اليوم؟" ثم عاد يطالع خولة بنظرات فاحصة، من أسفل لأعلى: "أوليست جاسوسة؟ والآن تتخذها حارسا شخصيا لك، أم هي خليلتك؟".

وأشعل كلامه هذا صدر خولة، فهاجها أن يقول عنها مثل ذلك، وإن كانت شعرت بالإهانة وبالخجل شديد من الأمير جابر حين رآته يراقبها، فإنها لم تكن تملك أكثر من أن تضغط على أسنانها حتى تكتم الغضب الذي تأجج في صدرها، ثم إنها تذكرت كلام جابر حين أخبرها أثناء شرح خطته أنه حتى لو تهيأ لها أن تخرج سهما من سهامها وتنشبه بين عيني الأمير أرون فإن ذلك لن يقتله، بل إن أقصى ما يمكن أن تفعله بذلك هو أن تحول دون نجاح الخطة، ذلك أن جراحه تشفى بسرعة بالغة، وتلك مقدرته الخاصة، هذا ثم إنها راحت تسمع رده حين قال يجب أرون بصوت رزين هادئ: - "لا، ليست جاسوسة؟ إنما قد أخطأت في تقديرك. ربما كان عقلك مشوشا في ذلك اليوم لا أكثر".

وابتسم أرون بمكر وخبائة:

- "فتاة جميلة، بكم اشتريتها؟".

- "لا أذكر..."

- "مثل هذه لا يُذكر ثمنها، لكنني أريد أن أتأكد من الأمر، فأنت فربما..."

سكت الأمير أرون عن إتمام حديثه فجأة، وكانت أصابع يده في هذه اللحظة عقد لامست جبين خولة، فبدأت ملامح وجهه تتعد عن بعضها خلال ثانية واحدة. ثم أتم

ما كان يقوله بصوت متعجل بينما يتراجع عن مكانه: "أيها الأحمق، إنها هي بلا ادنى شك، يكف تمكنت من خداعك كل هذه المدة، كان ينبغي عليك أن تقتلها..."

ووثب إلى الخلف برشاقة مبتعداً عنها، ووقف يتخذ وضع القتال بينما يسلس سيفه بسرعة، وانظم إليه جابر مبدياً دهشته، فجعل يسحب النصل الحاد من تحت يده.

أثناء شرح الأمير جابر لخبطته، كان قد شعر بالخوف الذي تملك خولة بعدما عرفت فيما يتمثل دورها وما ينبغي عليها فعله وفي أي موضع سوف تضع نفسها، ولذلك قال يطمأنها:

- "أعدك أنه لن يصيبك أي مكروه أبداً، فقط نفذي ما عليك فعله، وسوف يكون كل شيء على ما يرام..."

كانت نظرة الأمير أرون إلى خولة نظرة حذرة، لكن جابر كان ينظر إليها بعينين باردتين فيما يقف بجانبه، ثم أنه لم يجرأ على أن يوجه نصله نحوها حتى لا يجرح مشاعرها، وظل ينتظر الفرصة المناسبة، بينما يراقبها وهي توجه سهمها نحو الأمير أرون متظاهرة بذلك بأنها إنما تكشف عن نفسها وعن حقيقتها، في حين كان الخوف والتردد ينهشانهما من الداخل، قال الأمير أرون يخاطب الأمير جابر بنبرة متعجرفة:

- "لم أعتدك تُخدع بمثل هذه السهولة..."

ولم ينظر إليه الأمير جابر ولا كلمه.

- "ما بك يا جابر، ساعدني على الإمساك بها، لا بد أن..."

أراد أن يقول أنه لا بد من أنها ستكون صيدا لا يقدر بثمن، لكن السهم الذي أفلنته خولة من يدها كان قد رشق في صدره، ولذلك سكت عن ذلك، ونظر إلى صدره وأمسك السهم بقبضته وجعل يخرج بهدوء بينما يبتسم ويضحك، كانت الدماء تسيل من الثقب الذي أحدثه السهم وتنزل عند قدمه، وقد أربك منظرها خولة، فأسرعت تخرج سهما آخر وقد اضطرت لأن تستدير بوجهها نحو الكنانة وتستعمل عينيها لتخرجه، وفي ذلك الوقت الذي تطلبه القيام بذلك الأمر فإنها شعرت بأن شيئا ما قد حدث، في ذلك الجزء من الثانية، تذكرت دور الأمير جابر الذي كان ينبغي عليه القيام به، وتذكرت قوله.

- "الغاية من وجودك هو أن تشتتي انتباهه، أن تصنعي لي ثغرة، حين يقوم بإخراج السهم من جسده فتلك ستكون نقطة عمياء سوف أحرص على استغلالها..."

وهكذا، ولأن إحدى ذراعي الأمير أرون مشلولة، وفيما راح يستعمل الأخرى في انتزاع السهم من جسده فإن تلك اللحظة كانت هي اللحظة التي انتظرها الأمير جابر وتماما كما أرادها.

حينما انتهت خولة من انتزاع السهم وعادت بواجهها، رأت رأس الأمير أرون وقد انفصل عن كتفيه وارتطم بجدار القاعة ثم راح يتدحرج تحت الطاولة تاركا وراءه بقع دم حمراء حيثما وقع، وسقط جسده بعد ذلك على أرض القاعة مثل جذع شجرة، وحينما نقلت بصرها نحو جابر فإنه كان لا يزال يمد ذراعه حيث قام بحركته السريعة التي تمكن بها من قطع عنق أرون بضربة واحدة، وتلك كانت من بين الطرق القليلة جدا

التي يمكن به قتله، ركزت بصرها في عينيه فوجدتهما تحديقان في الفراغ بقسوة كحصاتين صلبتي الملمس، عدل وقفته بعدها، واختفى النصل تحت ساعده، وحتى اللحظة، كانت جسدها لا يزال يرتعش خوفاً، ولم تعرف أبداً ما الذي ينبغي عليها فعله بعد ذلك، ولم تمر سوى اثنتان فقط وأطلق العقرب غطيظاً دوى في أرجاء المدينة بأكملها، وما هي غير لحظات حتى دُفعت باب القاعة بقوة ودلف عشرة رجال عراة الصدور مسلحين فأحاطوا بهما من كل جانب، يرأسهم رجل ذا نظرة شرسة، وقف يتأمل جسد سيده غير مصدقاً لما وقع.

- "أيها اللعين الخائن..."

صاح بحدة والحقد يملأ صوته، وأشهر سيفه متوعداً فخافت خولة وتراجعت بقرب الأمير جابر، والذي لم يكن حتى اللحظة قد أبدى رد فعل يذكر، وبينما يُعد قائد الفرقة نفسه ليأخذ بثأر سيده فإذ به يرى رجاله وقد أخذوا يتساقطون صرعى أمامه واحداً تلو الآخر، كان ثمة ما يضرب ظهورهم فيجعلهم يخرون مثل تماثيل يتم ركلها، لكنه لم يقدر على رؤيته ولا على فهم شيء مما يحصل، ووقف عاجزاً لا يدري ما يفعل، وأوشك أن يطلق صرخة عالية لكن أتى عليه الدور فسقط ميتاً هو الآخر.

بدأ جسد الأميرة رخيماً في التشكل فجأة، من أعلى للأسفل حتى بانت بكاملها، كانت ترتدي ثوباً حربياً جميل الصنعة، وتبعها الجنود اللذين كانوا برفقتها وهم يقفون خلف الجثث الساقطة واحداً بعد الآخر، كانت رخيماً في وقفاتها النسائية تضع إحدى يديها على خصرها المائل، فيما تمسك بالأخرى خنجراً تنزل منه قطرات دم دافئة راحت

تسقط وتتجمع عند كعب حذائها المرتفع، وفي هذه اللحظة دخل القائد ليث وهو يرغي مثل ثور هائج حاملا سيفه الملطخ بدماء ما تبقى من الحرس في الخارج. بعد خروجهم من القصر متخفين بقدرة الأميرة رخييم كما دخلوه أول مرة، وجدوا أن أفواجا من الجنود راحت تأتي في اتجاههم بعدما سُمع صوت بوق الإنذار وهو يرتفع فوق سماء المدينة، فيما كان الأمير جابر ومن معه يتحاشونهم ويتخذون طرقا أخرى حتى لا يرتطموا بهم، وحينما كان ثمة أناس بسطاء يقفون وسط الطريق ينظرون نحو القصر متسائلين عما يجري أو كان هنالك أطفال يركضون لاعبين فإنهم كانوا يُدفعون أو يتساقطون على الأرض فجأة، فإذا نظروا خلفهم فإنه لم يكن بمقدورهم رؤية أي شيء سوى غبار يرتفع صاعدا وأصوات أقدام تتراكم، لكن وجع الدفعات التي كانوا يتعرضون لها كانت مؤلمة، وكانت تدوم لوقت طويل كما لو أنها كانت حقيقية.

في ركضهم الحثيث نحو مخرج المدينة شعر الأمير جابر بشيء ما يتبعهم، وحينما نظر خلفه فقد رأى العقرب وهو يتنقل فوق الأسطح يأتي راكضا نحوهم بسرعة عجيبة، مزمجرا ومكشرا عن أنيابه فشعر بحجم الخطر الذي بات يترصدهم، فصاح فيهم بأن يركضوا بسرعة أكبر، لكن الأميرة رخييم كانت في حالة من الإعياء بحيث لم تقدر على الجري بأسرع من جندي بترت ذراعه، وكانت هي أول شخص في السلسلة التي امتد طولها لأربعة عشر فردا يركضون بأيدي تمسك بعضها، بدءا بها ثم خولة ثم الأمير جابر ثم ليث فيليه باقي الجنود خلف بعضهم، حتى إذا بقي لهم ما يقارب المائة متر عن البوابة، شهقت شهقة عظيمة وكادت تجثو على ركبتيها، وحينئذ صاح الأمير جابر

بأعلى صوته وهو يلتفت نحو الوحش الذي كان يأتي راکضا نحوهم بعينين تشع النار بهما:

- "توقفوا جميعا، لا يتحرك منكم أي أحد..."

وامتثلوا لأمره، وشعرت خولة بأن يده راحت تضغط على أصابع يدها، غير أنها فهمت أنه لم يشعر بما يفعل، فتركيزه كان منصبا على العقرب، وإن كان فعل ذلك فبسبب التوتر الذي أصابه، ثم نطق كرة أخرى، فقال يوجه كلامه إلى رخيـم هذه المرة:

- "هل يمكنك الصمود حتى البوابة".

وردت الأميرة رخيـم بصوت يائس:

- "إن لم يقتلع هذا الوحش رؤوسنا، ربما..."

قالت ذلك بسرعة حتى تأخذ نفسا آخر وتعيد إخفاءهم بعد أن ظهرو للحظة قصيرة. وفي هذه اللحظة كان العقرب قد وصل عندهم، وجعل يدور حول نفسه فوق سطح منزل قريب لا يبعد عنهم غير أربعة أمتار أو خمسة، وراح يزمجر بقسوة بينا يمشي جيئة وذهابا وعيناه لا تكفان ترجعان حيث موضع وقوفهم، وبيننا يتساقط فتات السقف من تحت أقدامه الحادة، ويتقاطر الريق من فمه البشع، نطق أحد الجنود قائلا وفي نبرته ما يفشي خوفه:

- "لن يقدر على اكتشاف أماكننا ما دمنا لا نتحرك، أليس كذلك أيها القائد؟".

- "ليس لوقت طويل، هو الآن يتشمم الهواء من حوله، وسوف يعثر علينا بعد فترة قصيرة..."

أجابه الأمير جابر ونظر خلفه نحو البوابة مباشرة، وكان قد بقي ثلاثة بيوت أخرى ثم فراغ عظيم حتى الأسوار حيث يكمن المخرج:
 - "إذا نجحنا في الوصول إلى البوابة فلن يمكنه ملاحقتنا بعدها، يوجد خمسة عشر حارسا فوق الأسوار... رخيم!" ونظر نحوها: "عليك أن تقومي بإيصالهم إلى هنالك، هل ستفعلين هذا؟".

وبدا عليها التوتر، فأخذت وقتا حتى أصدرت أمامة دون أن تفتح فمها:
 ونطقت خولة من بعدها تسأل جابر وفي عينيها قلق:
 - "هل ستبقى هنا لتواجهه وحدك؟".

ونظر نحوها مباشرة، لما كان قريبا منها يمسك يدها، لساعة كاملة، كما ظنت، ثم لم تشعر إلا وهو يضع يدها في يد القائد ليث حتى تستمر السلسلة ويبقى من فيها متخفين عن أنظار العقرب.

نظرت خولة خلفها في لحظة فرأت الأمير يقفز ويتلوى يمنا ويسرة يحاول تجنب ضربات العقرب الذي كان يُعمل ذبابة ذيله في محاولة اقتلاع رأسه، غير أن الأمير كان من الخفة والرشاقة بحيث كان يقدر على تفاديها بسهولة بالغة، وعادت بعينها بعد ذلك نحو البوابة فرأت الحراس يتفافزون من الأسوار ينزلون عنها ويسدون المخرج.

أسند أحد الجنود الأميرة رخيرم على كتفه بينما انطلق القائد ليث ورجاله نحو البوابة ليواجهوا الجنود اللذين نزلوا لاعتراض طريقهم، فيما استدارت خولة نحو العقرب وأخرجت سهما من كنانتها وجعلت توجهه نحوه.

راح السهم في انحناءة يسيرة يشق الهواء سريعا حتى سقط على الأرض بين أقدام العقرب، بعدما صده فجأة - عن اختراق بطنه - طبقة صلبة من الصخر ظهرت من تحت جلده فجأة وراحت تنمو على كامل جسده حتى غطته بالكامل، ونظر العقرب بعد ذلك نحوها وركز بصره عليها، ثم أحنى أقدامه الكثيرة نحو الأرض وفي لحظة واحدة انطلق يركض نحوها مثل الريح العاصف.

وأسرع جابر يطارد العقرب وقد كاد قلبه يخفق مسرعا من فكرة أن يرى خولة أمام عينيه وهي تمزق تحت مخالب هذا الوحش القاتل، رآها تقف مكانها متصلبة لا تحرك ساكنا وأدرك أن رعبا عظيما قد تملكها، وصار يصيح فيها بأعلى صوته يأمرها بأن تتحرك من مكانها وتهرب نحو البوابة، لكنها لم تستجب، لم تكن تقدر على سماعه، كانت تستمر بالنظر إلى العقرب بعينين فزعتين لا أكثر، وقطع الوحش مسافة كبيرة نحوها وأثار خلفه سحابة من الغبار حجبت الرؤية. وحينئذ راح الأمير جابر يخفف من سرعته حتى توقف تماما عن مطاردة العقرب، وقف ينظر فزعا، وسأل نفسه إن كان يحق له أن يقلق عليها، لم قد يحزن لموت فتاة غريبة جاءت من عالم آخر، وهذا الذي بداخل صدره، هذا القلب الذي صار يخفق وكأن بداخله طفلا صغيرا راح يضرب جداره

بقدميه الصغيرتين الغاضبتين، وشعر بقشعريرة تصعد في جسده، وصار يقول كأنما يحدثها من مقربة.

- " ما الذي فعلته أيتها الحمقاء الغبية. "...

كان الوحش قد وصل إلى الموضع الذي يفترض أن خولة كانت تقف به منذ خمسة عشر ثانية، وهو وقت كاف لأن تطلع روحها بأكثر من طريقة، وحينما بدأ الغبار في الإنقشاع وراحت أطراف العقرب تظهر شيئاً فشيئاً فإنه بدأ بالدوران حول نفسه بشكل غريب جداً، ثم أطلق صياحاً قويا دوى فوق سماء المدينة، حتى لقد كان صياحاً قويا بحيث شعر الجميع أن صدى صوته قد لامس وجوههم كصفعة خفيفة، انقشع الغبار بعد ذلك تماماً وظهر العقرب يقف لوحده يقلب عينيه في ما حوله حائراً، بعدما اختفت فريسته من بين مخالفه فجأة.

أدرك الأمير جابر سريعاً ما حدث، وابتسم ابتسم من تحت قناعه فرحاً، وتسارع الدم في عروقه، فانطلق يركض نحو العقرب وقد علت همته أكثر، حتى إذا وصل عنده وثب عاليا فنشب سلاحه في بطن الوحش الصلب وجعل يتسلقها حتى اعتلى ظهره، وهناك من ذلك الارتفاع صار بمقدوره أن يرى البوابة بوضوح أكبر.

فزع العقرب وصار يدور حول نفسه ويشب وثبات شديدة يحاول إسقاط الأمير جابر عن ظهره، فيما راح الأمير يضربه على رأسه فتتطاير شرارات من أثر التقاء النصل الحاد مع طبقة الصخر الصلبة، لكنه مع ذلك استمر بضربه ليشتت انتباهه ويكسب وقتاً حتى تتمكن خولة من اللحاق بالآخرين عند البوابة.

الآن كان ثمة عدد من جنود أرض الرمال الملمثمين قد بدأوا يفدون من كل صوب نحو البوابة، لكن القائد ليث ومن معه كانوا بالفعل قد انتهوا من أمر الحراس اللذين نزلوا لمواجهتهم وبذلك تمكنوا من فتحها بسهولة والخروج خلف أسوار المدينة.

وقف القائد ليث ومن معه على بعد مائتي متر من البوابة يراقبون الأمير جابر كخيال بعيد وهو يصارع العقرب بضراوة لوحده قبل أن يبدأ في الإختفاء عن أنظارهم حينما راح جنود أرض الرمال يحوطونه مثل سيل أتى على صخرة وسط نهر يابس.

وصلت خولة في تلك اللحظة وظهرت أمام الجنود فجأة، كانت تلهث أنفاسها بينما تجثو على ركبتيها من أثر التعب، وحين رفعت رأسها بعد ذلك فقد رأت فستان الأميرة رخيم محمولا على ذراعي القائد ليث، وسألته بنظرة منها فطمأنها بأن الأميرة إنما فقدت طاقتها بسبب المجهود الكبير الذي بذلته من أجلها، وأنها سوف تستيقظ فتكون بخير بعد فترة، وسرّ خولة سماع ذلك جدا، وفي تلك اللحظة سُمع صوت صياح جياذ راح يأتي من مبعده، ونظر الجميع خلفهم فرأوا جياذهم تأتي في ركض سريع يقودها الفارسان اللذان كانا قد بقيا لحراستها في موضع قريب كتدبير من الأمير جابر لهذه اللحظة.

امتطى الجميع جياذهم واستداروا نحو البوابة كرة أخرى يتطلعون لرؤية سيدهم، مر الوقت ثقيلًا مثلما أنه تحت وطأة جبل، وبينما راح الخوف والقلق ينخران صدورهم قال القائد ليث فجأة من فوق حصانه بينما يحمل الأميرة رخيم على كتفه:

- "سوف أذهب، أنا لن أبقى مكتوف اليدين هكذا، إنني لن أتحمل أن يصيبه مكروه دوني..."

ثم وفي لمح البصر طار الأمير جابر من فوق السور عاليا وحط على الرمال أمام أنظارهم، وظهر وجه العقرب من خلفه مزمجرا ونشب مخالبه في الأحجار الكبيرة وجعل يطلق دويا رفيعا بلغ السماء من قوته.

لم تكد الفرحة تتملك الجميع حتى خرج الجابر الأسود من بينهم وانطلق يركض صوب سيده، التقى الإثنان في منتصف الطريق ودون تضييع لحظة واحدة امتطى الأمير جابر جابره بطريقة مبهرة أذهلت الناظرين واستدار به دون أن يخفف الجابر من سرعته وانطلق به بعيدا عن البوابة تاركا خلفه سيلا من السهام راحت تتساقط على الأرض بعد أن لم تبلغ المسافة الكافية.

وصل الأمير عند رجاله وجعل يخفف من سرعته حتى يساير سرعة ركضهم ونطق يقول بصوت رتيب هادئ:

- "هل الجميع بخير، هل أصيب أي أحد؟".

وأجابه القائد ليث وهو لا يزال يحمل الأميرة رخيماً على كتفه بينما يقود حصانه بيد واحدة:

- "الجميع هنا، لم نفقد أي أحد..."

ومر شريط المجزرة التي رآها الأمير جابر خلف البوابة أمام عينيه بسرعة وقال بصوت فخم متعاضم:

- "أحسنتم جميعا..."

وشعر الجنود بفخر وغبطة لما سمعوا ثناء من أميرهم، وهكذا انطلقوا عائدين أدراجهم تاركين مدينة أرض الرمال تغرق في الصخب والفوضى العارمة التي أحدثوها خلفهم.

في موضع من الوديان الجافة تغطيه ظلال الجبال الصخرية نزل الجميع عن ظهور الأحصنة يستقون الماء بعدما نهش العطش شفاهم، وأخذ الأمير جابر يصب الماء من قربة صغيرة في يده ليرش به بعد ذلك وجه الأميرة رخم ويضع منه في فمها، حتى سمع لها سعالا جافا أتى مخبرا عن استيقاظها.

جاءت خولة بعدما غادرها الأمير جابر فجلست بجانبها وسألتها:

- "هل أنت بخير؟"

فردت الأميرة:

- "بحال أفضل، أيتها الصغيرة..."

وأدارت خولة شفيتها في ريبة:

- "شكرا على ما فعلته..."

- "كان من حسن حظك..."

- "فإذن تقدرين على جعل الأشياء لا ترى حتى دون لمسها؟"

- "لا أحبذ فعل هذا، فهو يأخذ مني كل طاقتي..."

- "أكان ليكون ذلك فيه مخاطرة بحياتك؟"

- "قد رأيت من حالي ما يجيبك... ثم إنني لم أنقذك شفقة بك، بل لأنني رأيت جابر يهتم لأمرك، وهو لا يهتم بأشياء لا يحبها..."

وهنا احمر وجه خولة خجلا، وراحت تنظر نحوه، كان يقف على بعد أمتار قليلة يعدل سرج حصانه، ثم إنه نظر إليها في تلك اللحظة بدوره فأبعدت عينيها، وخافت أن يكون قد سمع حديثهما، ثم لم تلبث أن عادت لمراقبته بعد لحظة قصيرة.

- "أتحيينه؟"

سألته الأميرة رхим بنبرة لطيفة، فأجفلت خولة وتضاعفت دقات قلبها:

- "لماذا تقولين هذا، ليس بيني وبينه أي شيء، مثلي مثل كل الفتيات اللواتي في قصره..."

- "وهل كل الفتيات حملن قوس سمراء مثلك؟"

طأطأت خولة رأسها للحظة:

- "لا أعلم..."

- "بل تعلمين هذا جيدا... تظنينه يهتم بك لأنك من عالم آخر، أصاب حواسك عطب؟"

- "لم يصبني أي شيء، لكن ما تقولينه غير صحيح أبدا..."

- "ليكن، لكنك في نظره لست مجرد جارية..."

- "ولست جارية أيضا..."

قالت خولة بتعصب، ثم قامت مبتعدة، وجاءها الأمير جابر بعد وقت فوجدها تلاعب فرسها ورأى حزنا على وجهها:

- "هل تشاجرتما؟".

والتفتت نحوه:

- "ماذا؟".

- "مع رخيم، رأيكما تتحدثان قبل لحظة" وأضاف يشير بأصبعه: "ثم هذا الذي على وجهك..."

- "ليس بي شيء، بل أنت الذي عليك أن تتفقد وجهك..."

وبدا أن جابر قد أصيب بحيرة، إذ تجرأ أحدهم أخيرا على أن يحدثه عن وجهه، غير أن خولة ولما فهمت ذلك سريعا فإنها اسرعت تقول متداركة، مخافة أن يسيئ فهمها:

- "توجد على القناع قطرات دم متبيسة، هذا ما أقصده..."

وهنا ظهر جسد الأمير جابر وكأنه قد تصلب للحظات معدودة، ثم رفع يده فوضعها على القناع للحظات وأنزلها وقال بينا يستدير مبتعدا عنها:

- "شكرا لك..."

وراح بعد ذلك نحو جابره فامتطاه وجعل يصيح في جنده بأن يتأهبوا للعودة، وما هي إلا لحظات وكانت رخيم قد تحسن حالها بما يكفي لتركب فرسها لوحدها، ثم كان الجميع بعدها يمتطون جيادهم عائدين نحو أرض الغابة بعدما تمكنوا من إنجاز المهمة بشكل بارع.

في العالم الأكبر

مضت بضعة أيام منذ أخذ الأمير جابر بانتقامه، وفي ليلة مقمرة ذات سماء مرصعة، وقف رفقة خولة على شرفة القصر يتحدثان لأول مرة منذ تلك الحادثة، كان قد تحدثا عن أشياء كثيرة تخص هذا العالم ثم صمتا بعدها لفترة طويلة، وبينما طار الغراب ذو الجبين الأبيض من أمامهما قال الامير جابر وهو يتبعه بعينيه الرماديتين:

- "أريدك أن تحدثيني قليلا عن عالمك، عن أشياء كنت تحبين فعلها..."

وللحظات، أدهش سؤاله خولة، لكنها ما لبثت أن ابتسمت ابتسامة مريرة، وقد كان في صوتها ما ينبأ عن وحشة عظيمة لما راحت تقول وهي تعدل خصلات شعر على أذنها:

- "ثمة أشياء كثيرة، النافورة مثلا... كنت أخرج في الليل لأتمشى في شوارع مدينتي وعندما أشعر بالتعب أذهب إليها مباشرة، أجلس على كرسي قريب وأظل أتأملها، تخرج منها خيوط الماء لترتفع عاليا ثم تعود مرة أخرى من حيث انطلقت..."

- "هل ينبغي أن أسألك عن هذا؟"

- "لا تهتم للطريقة... فقط تخيلها كما أخبرتك، تخيل خيوط ماء تتحرك بشكل بديع وكأنها ترقص... إذا كان الجو باردا فإن النسيم يوصل قطرات الماء المتكسرة إلى وجهك، يسحيل أن تسمع صوتها بوضوح، فلا يكف الناس عن الطواف حولها..."

وسكتت لبرهة، ثم استتلت: "يوجد حوض الأسماك أيضا، حوض زجاجي كبير جدا

يجمعون فيه مخلوقات بحرية كثيرة، كنت أحب النزول إلى الممر ورؤيتها من الأسفل... كثيرا ما أحببت الذهاب لوحدي لأنني صديقتي كن يتحدثن طوال الوقت ولا يتوقفن عن التقاط الصور، في رأيي أن الممر مكان للوقوف والتأمل فقط، يجب على كل الناس أن يتحولوا إلى الهدوء بمجرد دخولهم إلى هنالك...”

- ”لماذا؟“

- ”لأنه... لأنه يجعلك حواسك تهدأ، رؤية مخلوقات البحر من مقربة تجعلك تفكر بعقلانية أكبر، وتهدأ نفسك بشكل عجيب حقا.“

- ”لم أحب البحر يوما.“

قاطعها جابر فنظرت إليه لما أحست في صوته نبرة حزن دفيئة:

- ”حقا؟“

- ”والذي كان يحبه كثيرا، لم يكف أبدا عن الذهاب إلى أرض الماء لرؤيته... أخبرني مرة أنه سينتقل للعيش هناك حينما يعتزل حكم المدينة.“

...

- ”حسنا أكلمي، ماذا أيضا؟“

وزفرت خولة بنعومة وواصلت:

- ”حينما لا أخرج للمشي كنت أذهب إلى قاعة التزلج، حيث يرتدي الناس بدلات وأحذية خاصة ويدخلون أرضا من الجليد ويبدأون في الإنزلاق والتساقط عليها.“

- "هل هذا مثل الذي تحدثت عنه في المرة السابقة، حينما تغيم السماء ويسقط بدل الماء ذلك الشيء الأبيض...؟".

- "قليلا... ذلك ثلج، أما هذا فهو مرحلة أخرى متقدمة، حيث تكون على الأرض طبقة صلبة وناعمة وباردة، ويصعب الوقوف عليها دون أحذية مناسبة... علمتني أمي كيف أمشي عليها في سن مبكرة، بعد أن سقطت مرات كثيرة تعلمت ولم أعد في حاجة لأمسك يدها... بعد وفاتها توقفت عن الذهاب، لسنوات طويلة، لكنني عدت إليها، في الأعوام الأخيرة ذهبت إلى هناك كل يوم جمعة، أحيانا كنت أجبر أبي على مرافقتي، لكنه كان يمرض بعدها..."

- "ماذا كان اسمه؟".

- "عادل".

- "عادل، هكذا".

- "أجل".

رأت خولة الأمير جابر وقد أطرق رأسه مفكرا، لكن سريعا ما رفع عينيه عن بوابة القصر وراح يستدير ليغادر الغرفة ويعود إلى الداخل، وحينئذ سمعت صوته وهو يغيب من خلفه.

- "اتبعيني".

توجه الأمير جابر إلى أكثر جدار معتم في غرفته، وبيننا تراقبه خولة بعجب رآته يتلمس الجدار بيده حتى بدا وكأنه قد دفع حجرا مخفيا إلى الداخل، رآته بعد ذلك وهو

يقحم يده في الجدار فيخرج منه قطعة قماش تغطي شكلا مكعبا فأتى به نحوها إلى وسط الغرفة وطلب منها أن تجلس هي الأخرى في مقابله:
- "هلا جلست؟".

ولما جلسا متقابلين أخذ الأمير يرفع القماش عن المجسم ويبدأ حتى بان من تحته مكعب زجاجي ذا مظهر أخاذ أصاب خولة بالدهشة، وحين كان لها أن تنطق فإنها قالت وعيناها مفتحتان بالكامل:

- "ما أروعه... أليس هذا مثل الذي كان عند الأميرة رخيرم قبل أن تقوم بكسره؟".

ورد الأمير جابر بينا يمسك المكعب بكلتي راحتيه معا، مثل قارئ طالع:

- "أجل... لكن لكل أمير زهرته الخاصة".

ثم إنه رشق عينيه في المكعب، وبدأ الخولة وللحظة - حينما سألتها عما ينوي أن يفعل - أنه لم يكن يسمعها، ثم إن المكعب شد بصرها فجأة، كقوة غامضة راحت تسحب عينيهما نحوها.

كان بداخل المكعب زهرة خضراء بديعة ومتبسطة تبدو وكأنها قد نحتت من عقيق أو زبرجد، يعلوها فتيل ولا تكف تتلألأ أطرافها على نور القمر، ثم كان ثمة صوت غريب يصدر منها يبدو كصدى بعيد لأغنية قديمة، وفطنت خولة على صوت الأمير جابر يجيبها:

- "نستعملها في التواصل، لكل أمير أن يستعمل زهرته في التواصل مع ساحر أرضه..."

- "ساحر أرضه؟".

- "في الأرض الوسطى حيث يوجد جبل الساحر، يسكن الجبل ستة سحرة. خمسة منهم يمثلون الأراضي الخمسة، إضافة إلى الساحرين الأكبر والأصغر، وبين كل أمير والساحر الذي يتبع لأرضه يتم استعمال هذه المكعبات كوسيلة للتواصل بينهما..."

ضيققت خولة عينيها وأومات بعدم فهم، لكن الأمير جابر لم يكن ينوي أن يقول أكثر من ذلك، بل أدنى المكعب إليه وجعل كأنما ينفخ فيه بهدوء حتى يشتعل فتيل الزهرة، وإذ بنار تطلع فجأة بداخل المكعب وتأخذ تحرق الفتيل دون أن يعيقها الزجاج الذي حولها ولا النسيم الآتي من الشرفة، وعلى هذا أغلقت خولة عينيها الإثنتين ثم حينما فتحتهما كان الأمر قد بدا لها منطقياً، أو أنها قررت أن تجعله كذلك فقط، ولم ترد أن تسأل عن كيفية حصوله وإنما أن تبحث عن إجابة لاستفسار كان باقياً في ذهنها، وسألته بينما لا تزال تطالع الزهرة بتركيز عالٍ:

- "قد كسرت زهرة الأميرة رхим، فلماذا فعلت ذلك؟".

- "لأنها لم تكن حقيقية..."

كذلك أجاب الأمير جابر وأخذ يقلب المكعب بين يديه دون أن يتأثر اللهب: "تذكرين ما قالته رхим بشأن قيام محاربين من أرض الرماد بمحاولة التسلل إلى قصرها؟".

- "أجل، أذكر."

- "حسنا، لقد فعلوا ذلك مرتين، وفيما فشلوا في الأولى... فإنهم تمكنوا في المرة الثانية من سرقة الزهرة كما انهم قاموا باستبدالها بواحدة مزيفة..."

واسترجعت خولة المشهد، بينما تتبع بعينها لهب الزهرة بداخل المكعب لما راح يتقلب بين أصابع يدي الأمير جابر، وأردفت: " لهذا ألقيت بها على الأرض وكسرتها!!... لكن كيف عرفت بزيفها، فيما لم تكتشف صاحبها ذلك؟".

- "لم أكن لأعرف لو لم ألقها على الأرض، لأن الزهور الأصلية لا تنكسر أبدا... مهما ضربت".

- "ولماذا قاموا بسرقتها؟".

- "لا أعلم تحديدا، لكن رخيماً لن تكون قادرة على التواصل مع ساحر أرضها بدون الزهرة... أكثر ما يثير غرابتي هو أن شعب أرض الرماد يفتقدون للمقدرة على تقليد الزهرة بتلك البراعة، إنهم أغبي من أن يفعلوا هذا، ولهذا أشعر بأن أمراً عظيماً سيحدث، وسيكون له تأثير كبير على هذا العالم..."

بسرعة البرق الخاطف، سرت في جسد خولة قشعيرية باردة لم تعرف لها سببا، وظنتها ريحا دخلت من الشرفة فنظرت نحوها، غير أن الستائر لم تكن تتحرك، ثم عادت تتأمل القناع الخشبي فأحست بشيء غريب لم تشعر به قبلا، وحين راجعت أفكارها فقد فهمت بأن الأمير جابر لا بد يمتلك أجوبة ومبررات لجميع تصرفاته، وأنه لا يمكن الوصول إليها إلا إذا دعت الحاجة، أو إن هو أراد ذلك، وسألته بعدما هدأت أحاسيسها:

- "هل هنالك هدف لما تفعل؟".

- "أفعل هذا حتى يستعر اللهب..."

- "أيصدر هذا الشيء صوتاً؟".

- "أجل..."

وبعد نفخة واحدة أخرى تغير لون اللهب بداخل المكعب وتحول إلى لهب أخضر كلون الزهرة، وحينئذ توقف الأمير جابر عن تحريك المكعب ولبث يتأمله للحظات بينما يقربه من وجهه:

- "هذا ما أبحث عنه... هكذا يكون اللهب قد استعر حقا، حينما يتحول لون النار إلى نفس لون الزهرة يكون بالإمكان استعماله، وإلا فليس فيه ثمة فائدة... هل تعرفين لما جعلتك ترين هذا؟".

- "لا..."

وأطرق ببصره للحظة:

- "في الواقع... لم يسبق لي وأن تواصلت مع ساحر أرض الغابة..."

قالت خولة بعجب:

- "عفوا... لم أفهم!!"

وأنزل الأمير المكعب على أرضية الغرفة فالتقت نظراتهما:

- "يفترض بأي أمير أن يحقق التواصل بسهولة، لكنني لم أقدر، منذ عيّنت أميراً لم أتم، تعرفين هذا... لكن تحقيق التواصل يحتاج نوعاً آخر من النوم، نسميه النوم

العميق، ولتحقيقه يجب على المرید أن ينام على ضوء الزهرة...” وعاد يرفع المكعب أمام وجهه: ” يتطلب الأمر درجة هدوء بالغة، والحصول على راحة نفسية كبيرة لأجل فعلها، وهذا ما افتقدته منذ رحيل والدي...”

وقالت خولة:

- ” حسنا، وأنا ما علاقتي بكل هذا؟”.

هنا نظر الأمير جابر في عينيها مباشرة، كانتا تتلألآن بغرابة، كأنما يسكنهما خوف باهت، ورد يجيها حينئذ:

- ” منذ أن رأيتك في السوق أول مرة...” قال وسكت وأطرق بوجهه، ثم عاد بعد لحظة وكان في صوته خجل: ” حسنا، عندما تكونين موجودة، أعني... حيث أستطيع الشعور بوجودك، أظن أنه يمكنني أن أشعر بشيء كهذا، إنني أنسى، ويذهب الإضطراب عني، وأنا لا يذهب عني هذا الشرود والتهيان منذ رأيت والداي ميتان على تلك الحالة...”

فقط حين سكت الأمير جابر تذكرت خولة أنها لم تتنفس منذ عشرين ثانية، ولذلك فقد شهقت شهقة صغيرة وأنزلت بصرها لأسفل، وظلت كلمات الأمير تتلاطم في رأسها حتى أتاها صوته مرة أخرى:

- ” خولة!!”

واضطرب قلبها بقوة أكبر، وصار يدق وكأنه سينفجر، وتمنت لو أنه لا يقول شيئاً آخر، لكنها وهي تنظر في حجرها قد لمحت يده ترتفع نحوها:

- "هل لي أن؟!!"

ورفعت بصرها نحوه:

- "ما الذي حدث عندما رأيتني في السوق أول مرة؟".

سألته بجرأة لم تدري لها سببا، مانعة إياه من أن يكمل حديثه، وأطال الأمير النظر في عينيها، وحين لم تقدر على مجاراته فإنها أبعدت بصرها بسرعة وقد أحست بحرج يخنقها، وبأنها سألت سؤالا غيبيا جدا، لكنه نطق وأتاها صوته مختلطا بنسيم الشرفة الذي راح يتسرب من حولهما، قال بصوت لا يخلو من تردد:

- "شعرت مثلما يشعر أمير تتم السخرية منه أمام شعبه، مثلما يشعر أمير راحت تضحك عليه فتاة غريبة من عالم آخر وسط جنوده وعامة قومه، شعرت بأن من يفعل ذلك لا بد يكون شخصا ذا تأثير مختلف، لديه جرأة، ومميزا بطبيعته..."

وعلى هذا أغمضت خولة عينيها وزمت شفيتها أسفا وحرجا دون أن تنبس ببنت شفه.

- "لا تفعلي أي شيء، فقط اجلسي بهدوء هكذا".

وفتحت عينيها حينئذ، وبقدر ما بدا طلبه غريبا فإن نظراتها إليه كانت تنطوى على غرابة أكبر، وإنه أوشك أن ينفجر ضاحكا لما رأى أجفان عينيها الجميلتين تتوسع أكثر، فيما تهتز حدقتاهما باضطراب ممتع، وحينها أدرك أن طلبه قد سبب لها حرجا.

ابتلعت ريقها في خفاء وتنهدت وأطالت النظر إلى وجهه الخشبي القاتم، وهنا وضع الأمير جابر المكعب على الأرض أمامه وقال دون أن يكف عن التحديق في عينيها:

- "حينما أغمض عيناى سيظهر لهب الزهرة أمامى وسط الظلام ويأخذ فى التوهج كما لو كانت عيناى لا تزالان مفتحتان تماما، وإذا تمكنت من تخطيه فسيمكننى أن أدخل مرحلة النوم العميق ثم سأرى الساحر بعدها... هل أنت مستعدة؟".

- "أنا؟... وهل على أن أفعل شيئا ما؟".

- "عليك أن تبقى هادئة، فكرى فى أى شىء جميل يبهجك... ضربات قلبك تتسارع".

- "أجل...".

مضت عشرون دقيقة منذ أحنى الأمير رأسه وأغمض عينيه صوب المكعب، ولما طال الأمر على خولة فإنها راقبت عينيه عن كثب لبعض الوقت ثم راحت تقول فى صوت وجر:

- "هل أنت هنا؟".

وفاجأها بأن فتح عينيه فى وجهها مباشرة:

- "إلى أين تريدنى أن أذهب؟".

وخفق قلبها وارتدت مرعوبة، فيما تنهد الأمير متأففا:

- "لا فائدة، ثمة عائق ما لا أقدر على تخطيه مهما حاولت...".

وعادت تسأل:

- "ألم يحدث؟"

وحرك الأمير رأسه يمنة ويسرة نافيا، وأخذت خولة تفكر للحظات حتى لمعت في رأسها فكرة:

- "لنجرب شيئا... ربما أعرف طريقة ستساعدك، هل أقولها؟"

- "تفضلي..."

وبدت الحماسة واضحة على وجهها فانطلقت تشرح فكرتها بثقة:

- "هنالك ما يساعد المرء على الإسترخاء عبر تنفيذه التنفس بطريقة معينة، وهي فعالة جدا، شاهدتها مرة في... لا عليك، فقط اتبعني فيما سأفعل، وحاول أن تقلدني..." وأخذت تنفذ الأمر بينما تشرحه: "عليك أن تأخذ نفسا عميقا وتعد لأربعة، دون أن تفلته، هكذا... هممم... تشوووووه... ثم تعيد طرحه بهدوء وأنت تعد لأربعة مجددا، مثلما فعلت أنا..."

من تحت القناع كان الأمير يتأملها مقطبا حاجبه دون أن يقول شيئا، وحين طلب منها أن تعيد شرح الطريقة فلأنه أراد أن يرى -مرة أخرى- تعابير وجهها البديعة وهي تفعل ذلك، وإنه شعر وهو يراقبها بأن ذلك سيكون أكثر إفادة له من الطريقة نفسها، ثم إنه راح يجرب الأمر بنفسه، ونبهته خولة إلى أنه ينبغي عليه أن يكر الأمر لأكثر من مرة حتى يشعر بنتأجه.

لوهلة شعرت خولة بأن في الأمير ضعفا، وبأنه لم يعد واثقا من نفسه، ونظرت بداخل عينيه مباشرة.

- "ركز فيما تريد فعله، لا تدع صور الماضي تأتي أمامك." ...

- "هذا ما يمنع الأمر حقا، إن الذكريات تجعل اللهب يتأجج، ولا يمكنني تجاوزه." ...

- "فقط جرب." ...

وعلى هذا، أخذ الأمير هواءً بداخل رثتيه وأطلقه عادا لأربعة ثم كرر الأمر ثانية وأغمض عينيه وراح يغرق في ظلام دامس، ومر وقت طويل وهو ساكن على تلك الحال مثل صخرة.

- "هل...؟" ومدت خولة يدها إلى قناعه، كانت يدها في هذه اللحظة مفروشتان على ركبتيه كناسك: "هل نجح الأمر؟!!"

راح جسد الأمير يميل نحوها، ومن شدة الرعب الذي أصابه خولة فإنها أطلقت صرخة كتمتها بيدها في آخر لحظة.

بقي الأمير جابر غارقا في الضحك لفترة طويلة ولم يكف عنه إلا بصعوبة، فيما تطالعه خولة بعينين تستعران غضبا، لكن في الداخل، حيث كان قلبها ينبض فرحا لرؤيته وهو يضحك لأول مرة، كانت زهور صدرها قد تفتحت وحل الربيع عليها.

رغم ذلك فإن كبرياتها حال دون أن تظهر له ذلك، إنما استقامت واقفة وخرجت من الغرفة وفي محياها حزن وغضب، حتى لم تقف لتسمع اعتذاره عندما قال من خلفها

أنه لم يكن يقصد إخافتها، وتركت الباب مفتوحة خلفها فيما اختفت في الظلمة نحو غرفتها.

بقي الأمير لوحده بعد ذلك يتأمل المكعب الزجاجي بعدما رفعه إلى مستوى عينيه وظل ينظر فيه مطولاً وهو يفكر.

في الصباح أطل الأمير جابر من الشرفة فرأى خولة تلاعب فرسها عند البستان تمسد على رأسها تارة وتمشط شعرها تارة أخرى ثم تأخذ ثمرة من شجرة التفاح فتجعلها تأكل من يدها، كان واضحاً له مدى انسجامهما، وكان إذا رآهما معا - قبل ذلك - إلا ومرت بين عينيه صورة سمراء فيأخذ يشتمتها حتى تبتهت تماماً فلا تعود للظهور أمامه بسرعة، غير أن الأمر لم يحدث هذه المرة، بل إنه وجد صعوبة في تذكر ملامح وجهها، وفهم أنه إنما ينبغي عليه أن يرجح إحدى الكفتين على الأخرى، وعندما فتح عينيه بعد فترة من ذلك، شعر في آخر الأمر براحة غريبة تسري بداخله ورضي تماماً باختياره.

ظل الأمير يراقب خولة لفترة طويلة فراها في لحظة وقد توجهت ببصرها إلى السماء تتبع الغراب الكبير بعينيها، وحينها خطرت بباله فكرة، وعلى ذلك وثب من فوق سور الشرفة بخفة بالغة وراح ينزل الأدراج نحو الأسفل.

كانت خولة لا تزال ساهمة في الغراب حين أتاها صوته فجأة:

- "أمازلت غاضبة؟"

وأنزلت بصره نحوها:

- "ولماذا أغضب؟" قالتها في شيء من العناد وعادت بوجهها ناحية الفرس بينما تتسارع نبضات قلبها.

- "انتظريني في المساء، سأريك شيئاً..."

هكذا ردد كلامه من خلفها واختفى فجأة، حتى إذا همت خولة بأن تسأله عن ماهية هذا الأمر فلم تلقى جواباً لسؤالها، فإنها التفتت تتفقده، ولم يكن بعدها شيء سوى أن دهشة عظيمة قد ارتسمت على وجهها لما لم تجده له أثراً.

في المساء، وكان الليل قد أسدل سدوله، توجهت خولة إلى الشرفة الكبيرة بعدما أنهت أشغالها فوجدت الأمير جابر واقفاً هنالك في انتظارها، فجاءت بجانبه ووضعت يديها على السور دون أن تكلمه، ونظر إليها نظرة جانبية ولاذ بالصمت هو الآخر، ومر وقت وهما يطالعان المدينة بينما يشتد الظلام في الخارج، ثم نطق الأمير فجأة:

- "أنت بخير؟"

- "ولماذا لا أكون؟"

- "لا أعلم، تبدين مستاءة..."

...

- "أهذا نوع ثانٍ من الغضب؟ أهكذا تغضب النساء عندهن، غضب لا يصحبه كره ولا ضغينة؟"

- "وما أدراك أنه لا يصحبه كره ولا ضغينة؟"

- "لو كنت غاضبة مني حقا لما أتيت..."

وأوشكت خولة أن تدلي بكلام تعاند به الأمير وترفض به رأيه غير أنه سبقها بالكلام فعاد يقول بعد لحظة:

- "كنت قد أخبرتني مرة أنك تخشين الفراغ أليس كذلك؟"

وعادت خولة بوجهها نحوه وقد نالت منها الدهشة:

- "ماذا؟!... أجل، كثيرا، لكن لماذا؟"

- "تحدثت عن وجود شيء يجذبنا إلى الأرض، وفي حال توقف عن العمل فإنك

ستجدين نفسك ترتفعين نحو السماء فجأة..."!!

هنا أحست خولة بأن ثمة في رأس الأمير جابر فكرة ما لن يعجبها أبداً أن تسمعها، وارتأت أن تعود فوراً إلى غرفتها، غير أن طور الفتاة الفضولية قد انبعث بداخلها مرة أخرى، ومن ثم فقد قررت أن تبقى لتري ما قد ينتظرها أيضاً من أشياء أخرى سيكون من الممتع كثيراً أن تعيد قصها لوالدها ولصديقاتها حينما يُقدّر لها أن تعود إلى عالمها.

طلب الأمير من خولة أن تتراجع بضع خطوات لتقف خلفه، وحينئذ نزع القناع عن وجهه بما يكفي وجعل يستعمل يده ليطلق صفيراً عالياً صعد نحو السماء ولبث ينتظر للحظات حتى ظهر الغراب من العدم أمام الشرفة يرفرف بجناحيه العظيمين وهو يحدق بعينيه القاتمتين الحادثتين إلى سيده.

قهقرت خولة بعدما هالها منظر الغراب عن مقربة وشدت على قلبها لما أوشكت أن تخر على الأرض من شدة الرعب الذي أصابها، وفي خضم ذهولها أتاها صوت الأمير يكلمها:

- "لا تخافي، لن يؤذيك أبدا..."

قال ذلك والتفت إليها بالكامل وطلب منها أن تقترب قليلا، وراحت خولة تدنو منه خائفة مترددة، وحينما وقفت بجانبه أحست بالهواء المنبعث من رפרفات جناحي الغراب تضرب وجهها وتحرك أطراف رداؤها، كان غرابا كبير الحجم بحيث يقدر على رفع حصان بالغ، وله مخالب فضية حادة، وعيناه المظلمتان تلمعان في الظلمة، لكن وقوف الأمير بجانبها وطمأنته لها كانا بمثابة سور أمان خفي يفصل بينها وبينه.

رفع الأمير يده نحو الغراب فنزل بهدوء نحوهما واقتربت فوضع يده على رأسه لبضع لحظات فإذا بالطائر ينفجر فجأة كدخان أسود وينفلق منه جزء صغير في كل ناحية، فانبثق عنه جمع من الغريبان ذات الأحجام الطبيعية والعيون البلورية الصغيرة التي راحت تصدر أصواتا مزعجة تشبه أصوات الوطاويط الجائعة وكان الحدث من هولته وغرابته أن هدد أركان خولة وسيّرها لأن تمسك بذراع الأمير جابر وتختبئ خلف ظهره مطلقة نصف صرخة.

- "ألم أخبرك أنه لن يجرأ على أذيتك؟"

- "أخبرتني، أخبرتني لكن الغريبان عندنا لا يكبر حجمها هكذا، ولاتنفجر أيضا، هل هذا سحر؟"

قالت بصوت متكسر بينا لا تزال تختبئ خلفه جاعلة منه درعا واقيا، فكان أن رد يجيبها:

- "فماذا يكون إذا إن لم يكن سحرا؟".

أخرجت خولة رأسها بهدوء من خلف الأمير وفتحت عينيها لتتنظر فكان سرب الغربان لا يزال هناك في مكانه يحلق بأجنحته الصغيرة ولم يختفي أبدا مثلما تمتت، وحينها كان لا بد لها من أن تتشجع قليلا وتقف في مواجهته، وحينما فعلت فإن الأمير سألها إن كانت مستعدة لما سيأتي، نظرت إليه بتعجب فرأته يقف ساكنا لا يتحرك، تبدو عليه أمارات المكر والثقة، وإذ به يثب فجأة فوق سور الشرفة فيقف على قدميه أمام الغربان ثم يطلق صفيرا آخر راحت الغربان من أثره تقترب نحو بعضها مكونة ما يشبه غمامة كبيرة.

أشياء كثيرة كانت قد خطرت ببال خولة، غير أن الصعود على ظهور الغربان لم يكن إحداها، وحينما مد الأمير يده ليساعدها على اعتلاء السور فإنها لم تتجاوب معه وظلت تقف متخشبة، للحظات طويلة، إلا أن أيقظها صوته:

- "ثقي بي يا خولة، لن يصيبك أي مكروه وأنت بجانبتي..."

كان وقع كلماته كنفس طيب دخل جوفها، وكانت قبل ذلك قد شردت في عينيه الرماديتان كأنما هربا من ظلمة الليل وسواد الطيور المخيفة التي ظلت تسعّر وتغلي خلفه، ومدت يدها بروية وكأنها لا تدري بما تفعل، وإذ به يجذبها إليه فصارا في لحظة يقفان معا على سور الشرفة.

- "لا تنظري لأسفل".

- "لن أنظر حتى لو أخبرتني أنني سأسقط لو لم أفعل...".

- "جيد... سوف ننزل على ظهور الغريبان الآن، هيا".

وصاحت خولة:

- "انتظر...".

ولكنها وجدت نفسها تقف فوق الغريبان بعد ذلك مباشرة، إذ أن الأمير لم يمهلها وقتاً كافياً لتعترض، حينما صعد على ظهور الغريبان وجذب يدها مثل أميرة تعتلي عربة.

وقالت خولة تتوعده بينما تغض عينيها بشدة:

- "سوف تدفع ثمن هذا، يا إلهي... هل مازلت على قيد الحياة، الطيور تغلي من

تحت قدمي، الأمر مقزز، إن قلبي سوف يتوقف...".

وانكشمت على نفسها وصارت تبحث عن موضع صلد لتضع فيه قدميها، غير أن

الطيور اهتزت فجأة وصارت تتحرك هائجة ثم راحت تصعد لأعلى، كبساط مفروش

يطير لوحده، وشدت خولة على يد الأمير ودنت منه أكثر فقال في أذنها مباشرة:

- "إثبتي يا خولة، وافتحي ناظريك، أنت تفوتين الكثير بإغلاقيهما هكذا...".

- "ترى ما الذي أفوته؟".

ردت ساخرة.

- "أشياء هي أجمل من أن توصف، الآن كفي عن هذا، فقط لا تفكري في الغربان وسيكون كل شيء بخير، ثقي بي..."

- "أثق بك، لكنني لا أثق بنفسي، لا أؤمن أن يغمى علي إن فتحت عيناى ونظرت..."

- "وأنت التي رميت الأمير أكثم بسهم في صدره، ذلك الرجل لم يكن أحد ليجراً على النظر في عينيه مباشرة منذ فترة طويلة..."

- "حقاً؟"

- "أجل..."

وهنا أخذت خولة تفتح عينيها بروية بينا تتشبث يداها بذراع الأمير جابر بقوة، نظرت نحو البعيد وكتمت أنفاسها، وسمعتة يضحك بعد لحظة، وسألته عن الأمر فأجابها كاتما ضحكته:

- "لا شيء، لا شيء، تابعي... أنت تبلين حسناً."

مرت دقائق، ظل الأمير جابر خلالها يضع يديه خلف ظهره، ونطق يسألها فجأة:

- "ألن تنظري لأسفل؟"

- "لا..."

الشيء الوحيد الذي كانت قد فعلته خولة هو أنها تركت ذراع الأمير وأخذت بيديها إلى قلبها، وهنا أراد أن يعاندها فابتعد عنها بشكل جانبي بمقدار خطوتين فأدارات عينيها نحوه دون أن تحرك رأسها وقالت بنبرة ذات رعب متوهج:

- "إذا نظرت ما الذي سحدث؟".

- "لا شيء...".

- "لا شيء، تقول لا شيء... ما رأيك أن تعود إلى هنا".

- "أصبحت تبدين كطفلة صغيرة حقاً...".

ونظرت إليه بغضب حقيقي هذه المرة، وحينما انتبهت إلى نفسها فإنها كانت قد أضاعت الأفق المظلم وزاغ بصرها قليلاً نحو الأسفل فسقطت على ركبتيها وأغلقت عينيها بسرعة، غير أن الأمير ظل على وقفته لا يحرك ساكناً، ولم يهرع لمساعدتها، وقال بعد فترة طويلة:

- "ستقفين على قدميك أليس كذلك؟".

أخذت خولة نفساً بعمق الأرض تحتها، وراحت تقف مستندة بيديها على أجساد الطيور التي كانت تغلي مثل ماء ساخن، حتى إذا قامت واستقامت واقفة راحت تتصرف وكأن شيئاً لم يكن، فأخذت تنظر يمنة ويسرة ولفوق وأسفل ثم سألته في أي اتجاه توجد الغابة التي جاءت منها، وحينها ضحك الأمير مطولاً ثم دلها عليها، وعاد فطلب منها أن تنظر نحو الجهة الأخرى:

- "هناك خلف تلك الغيوم، توجد ظلال لجبال كبيرة، أترينها؟".

- "أراها...".

- "تلك هي الأرض الوسطى، جبل الساحر...".

- "حقاً!!... ليست بعيدة جداً...".

- ”أجل، لحظة، ثمة أحد يقترب من البوابة.“ ...

في اليوم التالي وقفت خولة في قاعة القصر الكبيرة تقص على الفتيات ما حدث معها في الليلة الماضية وتخبرنهن عن تجربتها التي لم يُعرف عن الأمير جابر أنه أتاحها لأحد غيرها وحتى لسمراء نفسها، فكن يتلقفن حديثها منبرهات تنظرن إليها بعيون ذاهلة وأنفاس مكتومة، حين جائهن من الخلف صوت السيدة نجلاء شديدا وهي تسألهن عما يحدث.

أعادت خولة سرد القصة على السيدة نجلاء بشكل مختصر، بينما تتأملها الأخيرة بوجه رزين دون أن يظهر عليها أنها تسمع شيئا يستحق أن يُحكى، ذلك أنها كانت سيدة القصر الأولى، ولم يكن يحق لها أن تظهر ما يدل على أنها لم تعلم بما حدث، وانتظرت حتى أنهت خولة كلامها فسألتها إن كان قد حدث أمر أزعج الأمير جابر، وردت خولة قائلة:

- ”لا أعرف ماذا يعني هذا لكن رأينا فارسا يجيئ مسرعا على ظهر جابره... عبر البوابة على عجل، بعدها مباشرة تغيرت نفسية الأمير جابر وكأن شيئا ما قد حدث.“ ...

- "ثم ماذا؟".

- "لا شيء، نزلت بنا الغريبان نحو الشرفة، ولم نتحدث بعد ذلك... كان على عجلة من أمره ليلاقي ذلك الفارس، وعدت أنا بعدها إلى غرفتي مباشرة".
لم تكد خولة تنهي كلامها حتى دخلت عليهن إحدى الفتيات وقالت وهي تأخذ أنفاسها بمشقة:

- "خولة... خولة، تعالي إلى هنا، القائد ليث يطلبك..."

وحارت خولة فيما تفعل، ونظرت إليها مستفسرة فأستتلت الفتاة قائلة:

- "قال عليها أن تُحضر قوسها معها..."

وردت خولة مضطربة:

- "وهل تعرفين لأي شيء هذا؟".

- "لا أعرف... لكن الجنود اجتمعوا عند البوابة، أظنهم سيخرجون خلف أسوار المدينة..."

التفتت خولة نحو السيدة نجلاء وفي وجهها فزع، فما كان من الأخيرة إلا أن شجعته على تلبية الأمر دون إبطاء أكثر، بثلاث كلمات قالتها وهي ترخي نظرتها نحوها، وعلى هذا صعدت خولة إلى غرفتها وخرجت بعد بعض الوقت وقد ارتدت ثياب الحرب خاصتها وحملت قوسها وراحت تنزل الأدراج بخطى سرعة حتى وقفت خلف حصان القائد ليث وكان يمتطيه ساهما يتفقد جنوده اللذين اصطفوا بأحسناتهم

وقد تجهزوا بسيوفهم ودروعهم المغطاة بصفائح معدنية فيما يشبه الإستعداد للمقارعة.

شد القائد سير لجام حصانه حتى استدار نحوها وجعل يقول بعد نحنة صغيرة:
- " أنت هنا يا أنسة خولة، اسرعي وامططي فرسك هيا، فالأمير قد سبقنا منذ مدة، ولا داعي لطرح الأسئلة..."

وهكذا، فعلت خولة مثلما قيل لها، ودون أن تنبس ببنت شفه، ركبت فرسها التي كانت مربوطة على مقربة ودخلت وسط الركب المكون من ثلاثين فارسا وثلاث عربات كبيرة تجرهما أحصنة قوية وانطلقوا بعيدا عن أسوار المدينة وراحوا يتدفقون نحو الشمال الغربي عبر الغابات الخضراء الممتدة.

سار القائد ليث بفرسانه عبر طرق سهلة يعرفها، تمتد نحو الشمال حيث يقع البحر الوحيد في هذا العالم، وكان قد سمع بعضهم يتسائلون إن كانوا يعودون نحو أرض الماء مجددا، ولذلك أجابهم صارخا بينما يشد السير شدا:

- " لسنا ذاهبين إلى أرض الماء يا سادة، غايتنا قريبة، فقط كونوا على أهبة الإستعداد فربما يكون ضائدا الغنائم قد وصلوا قبلنا... هيا".

زايلت وجوه الفرسان أمارات القلق بعد هذا، وبدا للحظات وكأن همهم قد انحشرت بداخل أنوفهم، ولذلك لم تقدر خولة على أن تصمت أكثر مما فعلت، والتفتت إلى فارس كان على مقربة منها، وبعد بضع قفزات أتاها صوته متقطعا بينما ينضح بالحسرة:

- "ليتها كانت حربا يا آنسة... لكن إحدى القرى ماتت... ونحن... الآن ذاهبون لجمع الغنائم." ...
 - "ماذا؟".
 - "إن قرية جديدة قد ماتت." ...

صاح الفارس نحو خولة لما لم يصل جوابه إليها في المرة الأولى، وتلقت خولة كلامه فانقبض صدرها لسبب لا تعرفه، لكنها واصلت حث فرسها على الركض بسرعة، في لحظة ما، شعرت وكأنها رأَت شيئاً يتحرك على جانب الطريق تحت ظلال الأشجار القريبة، بدا كجسم ملفع يأتي عكسهم يتنقل بمشية غريبة، لكن الظلال كانت معتمة وباردة، وكان من المحتمل أن يكون ذلك مجرد وحش من وحوش الغابة، ولذلك لم تجرأ على إيقاف الركب لأجل شيء ليست متأكدة من كنهه، وإنما جال فكرها في المكان الذي يمكن أن يكون الأمير جابر قد وصل إليه الآن.

مرت ساعة أخرى، ووصل القائد ليث بجيشه الصغير إلى مشارف قرية صغيرة، وقد عرفوها بمجرد أن ثبتت قوائم الخيول على التربة المملوطة بالدماء المتناثرة، ثبت ليث حصانه في مكانه بعد مسكة صغيرة للسير بيده شد بها رأسه الثقيل ودار به دورتين وعاد ينظر نحو القرية التي كان يسكنها الهدوء وقال يردد بصوت خفيض بحيث لا يمكن أن يصل لأبعد من مسامع فرسانه:

- "تفرقوا الآن وكون على حذر، ولا يسير أحدكم منفردا... هيا".

ونزل الرجال عن ظهور أحصنتهم وتفرقوا يدخلون القرية في جماعات صغيرة مكونة من ثلاثة جنود أو أربعة، فيما يتقدمهم ليث على صهوة حصانه بعدما سل سيفه من غمده وأخذ ينظر حذرا بعينيه الماكرتين يمنة ويسرة، فيما بقيت خولة لوحدها مع الخيول تقف صامتة بغير حركة، لكنها أتت بعد ذلك متأخرة وراحت تسير فاغرة الفاه تبذل خطواتها الثقيلة بصعوبة، وكان قد أصابها وهي ترى ما تراه ما قد يصيب امرؤ إن هو راح يسير نحو جسد ميت لشخص عزيز على قلبه، تماما بمثل ذلك الفرع، وذلك الضيق المفاجئ الذي ينفجر في القلب فيضعفه ويؤلمه، ثم إنها فقدت شعورها بما حولها بعد فترة، حتى لم تعد ترى خطوات الجنود وهم يتسللون أمامها بسيو فهم المشهورة نحو الأكواخ البالية الباردة.

دخلت الطريق الرئيسي للقرية وهي تجر قدميها بمشقة توشك أن تقع في أي لحظة، كانت عيناها ترمشان بوجع، وتجمعت دموعهما وسقطت، وحين وضعت راحتيها على قلبها فلا أنها شعرت بأن ذلك ضروري لكي يبقى هادئا في مكانه، وإنها لم تكن قبل هذا قد خمنت كيف سيغدو شعورها إن هي وجدت نفسها في يوم ما تتجول وسط قرية قد تحول الناس فيها إلى تماثيل من الرمل الهش الذي يمكن أن تتساقط بمجرد هزة ريح صغيرة.

كان هنالك على مقربة منها أحد الفرسان يقف أمام كوخ صغير يتأمل تماثالا رمليا لامرأة بدا أنها كانت تهم بالهروب قبل أن تلفحها الريح القاتلة عند عتبة باب كوخها، وضع الرجل يده على التمثال يتحسسها واذ به ينهار عند قدميه فيغدو مجرد حفنة رمل

في لحظة واحدة، ولقد رأيت خولة ذلك كله فاهتز قلبها كأنما لم يكن ينبض قبل ذلك، أغمضت عينيها وعصرتهما بشدة، وحينما ابتعدت بخطوتين فإن موضعا في الأرض حيثما وقفت كان مبتلا بدمع عينيها.

مشيت تتجول بين الأكواخ ثم عادت إلى الطريق ودارت حول نفسها دورة كاملة، كان هنالك الكثير من التماثيل الرملية تقف حولها، منها ما هو متكسر على الأرض ومنها ما هو جالس ومنها ما هو في موضع ركض أو سقوط أو غير ذلك من الحركات التي يمكن أن يقوم بها أناس قد تجمدوا أثناء فرعهم لموت قادم.

الآن وحينما لم يكن هنالك من أعداء في الجوار فإن الجنود بدأوا يخرجون من الأكواخ بأيدي ممتلئة فيتوجهون بها إلى العربات فيفرغونها فيها. بينا خولة في حال من الحزن والرعب والحيرة مما يغشى بصرها وفكرها فإذ بأمر يطرق ذاكرتها فجأة، وكان من ذلك أن تمثل وجه فتاة صغيرة أمام عينيها، ولم تمضى إلا لحظة أو نحوها وكانت تهزول نحو موضع في أقصى القرية.

وصلت عند كوخ خشبي لطيف المنظر وحدقت إلى مدخله بعين دامعة، كان بابها مفتوحا، وظهر من عمق الظلام أن شخصا كان يتحرك بالداخل، لوهلة ظننته خولة أحد الفرسان اللذين جاؤا معها، غير أنها كانت مخطئة، فقد وجدت الأمير جابر وقد سبقها لتفقد عائلة الرجل الذي أكرمه وجنوده في تلك الليلة التي عادوا فيها من أرض الماء، وكان أن وجدته يقف أمام كتلتين من الرمل تعلقان بعضهما في الزاوية، ولم تتمكن

خولة من كبح حزنها فانفجرت باكية، وبينما يعود الأمير أدراجه نحو الخارج راحت خولة تسأله بنبرة مهلهلة:

- "هل هم جميعا قد...؟".

- "الطفلة غير موجودة..."

- "ماذا؟".

ردت وهي تمرر إبهامها على طرفي عينيها.

- "ليست هنا... ألم تكن هنالك طفلة صغيرة؟ ليست موجودة..."

ومر وجه الفتاة أمام ناظري خولة مجددا فشبهت باكية، ثم تذكرت أمرا.

- "الجرو... كان خائفا... عينان حمراوتان..."

- "ماذا؟".

سألها الأمير لما حار لكلامها.

- "عينان حمراوتان تحدقان في ظلام الغابة..." قالت خولة وهي تنظر لأسفل في

غير موضع محدد كأنما تكلم نفسها ثم عادت نظرت إليه واستتلت قائلة: "لقد

أخبرتني... قالت لي هذا لكنني نسيت إخبارك..."

- "من... ماذا قالت... ما الذي تحاولين قوله؟".

وهمت خولة بأن تكمل حديثها، غير أنها تراجعفت فجأة وراحت تصغي السمع كأنما

نحو موضع في عمق الغابة، فقال الأمير جابر وهو ينظر نحو ذات الجهة:

- "نباح نجرو..."

ولم تمضي إلا لحظات وكانت الشجيرات الصغيرة تتحرك على مسافة قريبة، ثم ظهر من تحتها جرو صغير راح يركض نحوهما بينما تتطاير أذناه خلف رأسه واستقر بين ذراعي خولة فقالت وهي ترفعه:

- "هذا جرو الفتاة الصغيرة... ألا يكون قد جاء من عندها؟".

ورد جابر:

- "ربما... ضعيه على الأرض ولنرى إلى أين سيقودنا".

وما إن أنزلت خولة الجرو عند قدميها حتى انطلق يركض عائداً نحو الغابة من حيث جاء أول مرة، وتبعاه قرابة المائة متر حتى توقف أخيراً في موضع وأخذ يدور حول إحدى الأجمات دون توقف، وحينما وصلا ونظرا خلف الأجمة فإنهما وجدا الفتاة الصغيرة تخبئ رأسها بين ركبتيها بينما تشهق باكية، كان هنالك تراب على كامل ثوبها، وكانت يديها مجروحتان في مواضع عدة، وجثت خولة بهدوء أمامها وراحت تخاطبها بصوت حنون كما لو كانت أمًا، لكن الفتاة لم تبدي رد فعل يذكر، إنما ظلت تبكي دون توقف، وحينما رفعت رأسها بعد ذلك فإنها نظرت بعينيها المبللتان الغاضبتان إلى خولة وصاحت قائلة:

- "دعيني وشأني... أنت لست صديقتي... لقد أخبرتك لكنك لم تصدقيني مثلهم..."

لم تصدقيني... إنني أكرهك بشدة، أكرهك".

وهما يعودان صوب القرية، كانت الفتاة الصغيرة قد غفت على كتف خولة لما أعيها البكاء أخيراً، وإنها فعلت ذلك على مضض، إذ كان قد مر وقت قصير جداً منذ

صرخت قائلة بأنها لم تعد صديقتها، غير أن خولة كانت قد نالت نصيبها من الحزن لهذا اليوم أيضا، فلم ترد أن تغضب الأمير جابر حينما سألها عما كانت تقصده الصغيرة بقولها أن أحدا لم يصدقها ولذلك فلم ترد له جوابها، وكان الأمير قد طرح سؤاله غير مصر عليه لما رأى حالها، وهكذا سارا عائدين بصمت نحو الجيش الصغير الذي كان يعود للتجمع بعدما أنهى عمله في جمع الموارد، وحينما لمح أحد الفرسان قدمهما فإنه أسرع نحوهما يقدم تقريره:

- "أجل يا سيدي... " قال مشيرا نحو موضع كان يشكل معتركا كثيفا من الشجيرات الصغيرة: "إنها هناك خلف تلك الأجمات الصغيرة، حوالي ثماني جثث، وكلها قد تم ذبحها بذات الطريقة الوحشية..."

ولم يكذ الفارس ينهي كلامه حتى رأى سيده يسير نحو ذات الجهة التي أشار نحوها، ولم يسع خولة أن تتفقد عينيه لترى أثر الخبر في نفسه، لكنها ذهبت نحو الفارس تسأله أن يفهمها ما كان يقوله، وليتها لم تفعل.

اجتماع

أقام الأمير جابر في المساء اجتماعا صغيرا حضره القائد ليث وبعض الفرسان من ذوي الرتب فجلسوا يمين العرش فيما أخذت خولة والسيدة نجلاء يساره، وبعد فترة طويلة من الصمت نطق الأمير جابر من فوق كرسي الإمارة:

- "نعم يا سادة... هل لدى أحدكم شيئا ليقوله؟"

ونطق القائد ليث يسأل:

- "بخصوص ماذا يا سيدي؟"

وقال الأمير في ضيق وضجر:

- "هل لدى أحدكم فكرة عما يحدث، فهذه أول مرة ننجح فيها في الوصول قبل أي أحد منذ أشهر... أي شيء، رأس خيط ربما؟"

قال هذا وجعل ينقل ناظره بين الجلوس دون أن يلقي جوابا غير الذي رآه في وجوههم المتأسفة، لكن ما فعله بعدها أنه بقي ينظر إلى خولة التي لم تكن قد رفعت بصرها نحوه، وقال يخاطبها بعد لحظة:

- "نعم يا أنسة خولة... هل لديك ما تخبريننا به؟"

وبهذا حدث ما لم تود حدوثه، وفهمت سريعا أن الأمير وإن كان لم يلح عليها في ذلك الأمر أثناء عودتهم فلأنه كان واثقا من أنه أمر يستحق أن يقام له اجتماع كهذا، وهذا ما جعلها تجفل مكانها، غير أنها تماكنت نفسها بعد ذلك فقالت:

- "لا أدري... لمن ينبغي علي أن أعتذر، لكن... " راحت تقول بصوت حزين مختنق:
 " لكن... لقد كان خطئي " ثم إنها رفعت رأسها وجعلت تنظر في الفراغ أمامها
 وأستتلت: " حسنا، ألم تتحدث الأميرة هند عن وجود شبح يتجول هنا وهناك في
 الأراضي... تلك الطفلة كانت قد أخبرتني أنها رأت شيئا مثل ذلك، حينما لجأنا إلى
 تلك القرية، أخبرتني أنها عثرت على جروها عندما كان يهرب من شيء غريب ومخيف
 جدا، له عينان حمراوتان ولا يمكن تمييز أي طرف من أطرافه، لقد... "

وقاطعها الأمير جابر بنبرة قاسية:

- " أحسنت عملا يا أنسة خولة... ولعلك ستقولين أيضا أنك نسيت إبلاغنا عن
 هذا".

- " أجل... "

بأسف عظيم قالتها، وأحنت رأسها بعد ذلك، وأتاه صوت الأمير صلدا فكأنما
 تتلقف أذناها الحجارة:
 - " ليتك لم تنسى... "

- " سيدي... " قاطعه أحد الفرسان قائلا فجأة: " أظن أنني لمحت اليوم شيئا يتحرك
 خلف الشجيرات في طريقنا... " والتفت إليه الأمير بنظرات حارقة فأجفل الرجل
 وواصل حديثه بصعوبة: " لم أتبينه جيدا، ولست متأكدا مما رأيته، في البداية ظننته
 شخصا يختبئ منا، لكن... قلت في نفسي لا بد وأنه مجرد غزال يرعى على مقربة من
 الطريق وقد هرب عندما سمع الضجة التي كانت حوافر الخيول تحدثها... "

- "نعم، وفي ماذا يفيدنا هذا يا سالم؟".

- "بالنظر إلى الوصف الذي أطلق على هذا الشبح الذي يتحرك في الأراضي خفية فأني أرجح أن يكون هو، لأن الحركة التي قام بها ذلك الشيء كانت سريعة جدا، لقد اختفى عن ناظري في لمح البصر..."

- "وأنا رأيته أيضا..."

هكذا نطقت خولة تقول بصوت خفيض وفي محياها خجل، ونظر إليها الأمير للحظات معاتبا ثم تنهد بعمق وقال واضعا يده على جبينه:

- "ستكون وجهتنا التالية نحو الشمال إذن..."

واتسعت ملامح القائد ليث بعد سماعه هذا، واستنكر الأمر حينما عقد حاجبيه

وجعل يُضيق عينيه في سيده:

- "سيدي، هل تفكر في..."

- "لابد من هذا... قد رأيتُ كيف ذبح بعض أهالي تلك القرية بوحشية وبنفس الطريقة، ومن ذا الذي يتقن التسلل تحت الظلال أفضل منهم!!... هذا الشخص، لابد وأن نمسك به في أسرع وقت... من المهم الآن أن نعزز المراقبة، أطلب من الرجال اللذين يقفون على الأسوار أن يفتحوا أعينهم جيدا".

- "بالطبع يا سيدي، سأفعل".

- "إذا كنا سنبحث عن الجواب فسنجده هنالك، أو على الأقل فسنجد بعضه... هذا كل شيء، يمكنكم أن تنصرفوا".

وإلى هذا أفضى هذا الاجتماع الصغير الذي عُقد على عجل، ثم إن الجميع قاموا بعدها عن أماكنهم وراحوا يغادرون القاعة الواحد تلو الآخر، فيما مكث الأمير جالسا هنالك يفكر لوحده.

في مساء اليوم التالي وبعدهما غطى الظلام ربوع أرض الغابة، وسطعت أوراق الشجر بلون الفضة، كان الوقت يمضي ثقيلًا، رغم أن الهواء كان خفيفًا ومنعشا، وحيث راحت نجوم السماء تسطع وتتلاألأ دون توقف، ولم يكن هنالك ما يعيق المرء عن أن يأمل خيرا في قادم الأيام إذا ما هو قرر أن يغادر مضجعه ويقضي بعض الوقت يتأمل السماء في الخارج، تماما مثلما فعلت خولة والسيدة نجلاء عندما جلستا أمام عتبة القصر تتبادلان أطراف حديث لم يخلو من رقرة.

- "لكنني أفقد نفسي شيئا فشيئا، بمرور الأيام صرت أنسى عالمي... ولا أفكر فيه إلا نادرا، وكأن ذاكرتي تضحل وتتلاشى، أصبحت أشعر وكأنني أدوب هنا معكم بماضيّ وبذاكرتي وبأفراحي وأحزاني... صرت لا أفكر إلا في مستقبلي هنا... هل أنا من أخطط للبقاء معكم، أو أن هذا العالم هو من يخطط لإبقتي هنا، لا أعلم... ما أعرفه أنني بت أهتم كثيرا لمصلحة أرض الشجر وأهلها، أفرح وأحزن لأجلها، ولا أذكر والذي إلا في أوقات قليلة..."

هكذا راحت خولة تغمغم واضعة ذقنها فوق ركبتها، بنبرة فيها شجن، ووحشة تتجلى مع كل حرف كانت تقوله، كانت عينها على مدرجات الورد في الأسفل غير أنها لم تكن تراها، ونطقت السيدة نجلاء تقول بعدها:

- "لم يبدو لي أبدا وأن هذا هو ما يجعلك تغتمين هكذا..."

- "ماذا إذن؟"

- "تظنين أن جابر غاضب منك؟"

- "أوليس غاضبا؟"

- "ليس تماما"

- "أولست المسؤولة عم حدث لأولئك الناس، لو أنني قلت ما عرفته حينها، هل

كان سيصيبهم ذلك؟"

- "إنك تُحملين نفسك ما هي منه بريئة، وتلومينها على ما لم تقترف... انظري إلي

لحظة..."

وونظرت إليها خولة بعينين يتفجر منهما الدمع:

- "هذه الأشياء تحدث منذ مئات السنين يا ابنتي، حتى لو أخبرتهم بما عرفته

وأحيطت القرية بالحرس فإن هذا القاتل كان سيذهب نحو قرية أخرى ليفعل نفس الذي

فعله... تموت القرى منذ زمن طويل جدا، وهو ليس بالأمر الجديد علينا"

- "فلماذا هو غاضب مني إذن؟"

- "ليس غاضبا، هو حزين فقط، حزين على شعبه اللذين لم يستطع حمايتهم، وهذه

عادته، يتغير حاله إذا كان به حزن أو غضب... حتى أنا قد لا يحدثني حتى يذهب عنه

الذي أصابه... بالأمس جعل الغريان تصطف مثل البساط تحت قدميك واليوم تظنينه

غاضبا منك!!... ثم، هل أخبرك بسر؟"

- "ماذا؟".

- "إن جابر يخطط لأن يسأل الساحر عما إذا كان هنالك منفذ يمكنك من العودة إلى عالمك".

وردت خولة وفي صوتها يأس مسبق:

- "أرأيت؟".

ودهشت السيدة نجلاء لرد خولة وتلعثمت للحظة:

- "ماذا، أم أنك لا ترغبين في العودة؟".

قالت مازحة، فغمست خولة وجهها بين ركبتيها مجددا وغمغت:

- "لا أدري حقا، لم أعد أعرف ما الذي أريده... ثم إنها عادت ترفع رأسها واستتلت وفي محياها حيرة "هل هي محاولة للتخلص مني؟".

وتبسمت السيدة النجلاء لكلام خولة وردت بعد لحظة:

- "لا، لم يبدو لي وكأنه كان متحمسا للفكرة... لكن ما الذي تقولنيه يا ابنتي، أم أنك...؟".

وذبلت ملامح خولة خجلا، وأبتعدت بناظريها خلف أسوار القصر:

- "تعرفين كل شيء أليس كذلك؟".

ومرة أخرى، ظهر على وجه السيدة نجلاء ما يشبه ابتسامة واسعة، وبعدها

أغمضت عينيها لثانيتين فتحتهما وقالت تنظر في الفراغ مبتهجة:

- "لنقل أنني أعرف، وأعرف أيضا أنه كان يخطط للذهاب إلى الأرض الوسطى ليقابل الساحر بنفسه في قادم الأيام لولا الذي وقع لتلك القرية".

- "هل يحتاج الأمر إلى تخطيط مسبق".

- "يحتاج، أجل... لأن الدخول إلى الأرض الوسطى والتحدث إلى الساحر دون أن يكون هو صاحب الدعوة سيكلف صاحبه شيئا ما، فالساحر لا يحب الظهور كثيرا، ولا يجمع الأمراء إلا لأمر طارئ، ولذلك يفرض عقوبات عليهم إذا ما هم زاروه من تلقاء أنفسهم، وحسبما أعرف، فإن لا أحد منهم قد فعل هذا إلا لحاجة عظيمة، حاجة تستحق أن يدفع لأجلها ثمنا غاليا..."

- "كم هو متحمس للتخلص مني..."

- "لا تعاندي..."

- "ماذا أفعل؟"

- "انتظري... فقط انتظري، في قادم الأيام ستتغير أشياء كثيرة، جابر يشعر بقرب وقوع أمر عظيم سيغير معالم هذا العالم، وما أعرفه أنا أن أحساسيه لا تخطئ..."

- "أجل... لا تخطئ، وأنا أؤيد كلامك أيضا".

هكذا جاء صوت القائد ليث قويا واثقا حينما أتى من خلفهما فجلس بجوارهما وشابك يديه فوق ركبتيه ونظر إليهما لثانيتين فقالت السيدة نجلاء تسأله:

- "هلا تحدد في أي موضع أنت تؤيدني يا ليث؟"

وتبسم القائد مليا:

- "في أن أحاسيس أميرنا لا تخطئ... وأجزم بهذا".

وقالت السيدة نجلاء تمدحه:

- "لم يولك ثقته من فراغ طبعاً".

- "لا... في الأصل يثق أحدنا في الآخر أكثر مما يثق بنفسه..."

قال القائد هذا وتبعه بضحكة صغيرة، وكذلك ضحكت السيدة نجلاء بدورها، وعاد

يقول بعدها:

- "ما بها ضيفتنا الصغيرة، أم أن هنالك ما لم يعجبها في ضيافتنا؟".

وأجابته السيدة نجلاء قائلة:

- "بل تظن أن أميرنا غاضب منها".

ورمقتها خولة بنظرة جانبية، غير أن سمة العتاب زالت عن وجهها لحظة أن رأت

القائد ليث ينفجر ضاحكا، وقال مباشرة بعد أن لملم نفسه:

- "لا أظن هذا يا سيدتي، حقا إنني لا أظن هذا..."

وقالت السيدة نجلاء بخبث طيب:

- "أخبرها بما تظن إذن يا ليث، أخبرها حتى يزول عنها الذي قد رأيت..."

ورفع القائد حاجبيه مستذكرا وقال بعدها:

- "فلأخبرها إذن... لم يحب جابر أن يتحدث عما يؤرقه يوما، ففي العادة إذا كان

هنالك أمر يمكننا حله ويريد منا القيام به فإنه يخبرنا به ولا يكابر على هذا، دون أن

يفصل أو يخبر عن السبب... كما قد رأيتم بعد عودتي من أرض الرياح وبعد أن ظن

الناس أنني في عداد الموتى، اتضح بعدها أن ما فعله معي كان صائبا أكثر مما لو أنه فعل غير ذلك، فقد كللت المهمة بالنجاح وعدت من هناك سالما في النهاية، وكل هذا دون أن يخبرني عن التفاصيل كاملة، في النهاية أنا ذهبت برسالة على رأسي وعدت بأخرى دون أن أعني ما أفعله.. والآن تقولين أنه غاضب منك، بل هو غاضب من نفسه، إنه ليس شخصا يتهرب من مسؤولياته أبدا، بل لو كنتِ المسؤولة حقا عما حدث فإنه سيظل يلقي باللوم على نفسه، تماما مثل يفعل الآن... هو أمير هذه الأرض ويعرف جيدا ما للناس عليه من مسؤولية حمايتهم، ولا يتنكر لهذا، فإذن يا أنسة خولة وفري حزنك هذا لوقت آخر، إنك تهدرين دموعك عبثا، ولو شئت أن تعرفي الحقيقة لكنت ذهبت وتحدثت إليه بنفسك... فلاذهب أنا الآن، اعذراني عن تطفلي عليكما لكنني سمعت حديثا يدور بشأن الأمير ولم يكن من عاداتي أن أتجاهل حديثا يدور بشأنه".

طلعت شمس اليوم التالي وأطلت بدفئها المعتاد على القصر وكل الأشجار المحيطة به وأضئت أوراقها الصغيرة، كان الهدوء يعم المكان بطريقة غريبة لكن بحلول التاسعة ظهرت عدد من الخيول السريعة وهي تقترب من بوابة القصر، كان على ظهورها رجال قد تغطت دروعهم بالتربة والدماء وأثار المعركة، يتقدمهم الأمير جابر والقائد ليث بعيون غاضبة، ودلغا إلى الداخل مغاضبين بخطى سريعة، كانت بعض الفتيات تتحدثن أمام القصر وكانت خولة بينهن فنظرت وإذا بالأمير جابر قد غطى التراب رداءه ولونت الدماء وجهه الخشبي ودرعه، ولم يكن حال ليث بأحسن

منه حالا، فحاجبا عينيه الغاضبين كان قد تغير لونهما إلى اللون الأبيض وكان واضحا أنه قد تلقى لكمة قوية على وجهه.

استدارت خولة نحو إلى الفتيات وسألتهن عما حدث فردت إحداهن بنبرة خفيفة:
- "لقد خرجوا في الصباح الباكر، أظن أنها قرية أخرى... لكنهم لم يأتوا بشيء هذه المرة، كل العربات عادت فارغة".

وعادت خولة تنظر نحو الأمير والقائد، الخيول التي كانت تقاد فارغة نحو مرابطها، لم يكن ثمة ما يُحمل عليها، كان الأمر أشبه بأنهما عادا من معركة خاسرة.

جلس الأمير جابر مغتما على كرسي الإمارة فيما جانبه القائد ليث وأخذا يفكران لوقت طويل جدا، إلى أن رفع الأمير رأسه عن الأرض وقال بعد تنهيدة:
- "هل لدينا خسائر؟".

ورد القائد بصوت مغتم:

- "لا يا سيدي".

- "الجرحي؟".

- "قطع ذراع أحد الرجال فيما تعرض آخر لطعنة في بطنه، لكن سيعيشان لمدة أخرى... في المقابل قضينا على ستة منهم، ولولا أنهم فروا هاربين لقضينا عليهم تماما".

- "لا يهم على كم قضينا... تموت القرى في أرضنا منذ فترة ولا نصل إلا متأخرين إليها، هذا لا يعقل، أي نوع من الرجال قد عينت لنقل الأخبار يا ترى؟".

- "هم نفس الرجال اللذين كانوا قبلا، لكن شيئا ما قد تغير، ربما سنعرف عندما نذهب إلى الشمال يا سيدي".

ونظر إليه الأمير بما يشبه أنه قال شيئا صائبا منذ أشهر.

- "إذا استمر الوضع هكذا فلن يمر وقت طويل قبل أن تأتي الرياح المميتة على المدينة وتقضي علينا جميعا..."

وفي هذه اللحظة سُمع طرقٌ على الباب وظهرت السيدة نجلاء وفي عينيها قلق ودنت حتى وقفت وسط القاعة وقالت:

- "هل تريدان أي خدمة؟".

ورد الأمير جابر يقول بنبرة حادة:

- "لماذا لاتزال هنا؟".

وأصاب السيدة نجلاء حرج مثل الذي كانت تخاف أن يصيبها حينما وقفت خلف الباب لوقت طويل مترددة، فتلكأت للحظة وقالت:

- "لأنني لم أطلب منها" ثم سكتت للحظة وأردفت "أخبرها أنت إذا أردت هذا، لكنني لن أفعل، لن أقدر..."

- "لم؟".

- "لأنني أعتقد أنه ليس من صلاحياتي يا بني".

- "كنت تطردين بعضهن فيما سبق!".

- "أجل، لكن..."

- " لكن ماذا... أأست أنا من طلب منك هذا؟".

- " ولهذا تحديدا لن أقدر... أرجوك أن تفعل ذلك بنفسك".

هكذا دمدمت المرأة آخر كلامها وأتبعته بانحناء صغيرة تعبر فيها عن أسفها،
وحيثما كانت الحيرة تأكل وجه القائد ليث عما كانا يتحدثان بشأنه ورأى أن الأمير لم
يبدى ما ينبغي لأمر أعصى أوامر أن يبيده فإنه رفع رأسه عن الأرض ووضعها على
ركبتيه متنهدا وجعل ينظر نحو موضع في الجدار المقابل كأنما ليشغل به نفسه عن
حديثهما، غير أن صوتا غريبا راح يتأجج في الخارج في تلك اللحظة، كان من الكثرة
والغرابة أن دفع بثلاثتهم إلى ترك القاعة.

في الخارج كان جميع من في القصر قد تجمعوا على مقربة من بعضهم فيما
ينظرون بعيون فرجة إلى السماء فوقهم، حيث كانت الغربان قد تجمعت وراحت تدور
في حلقة دائرية وهي تصدر من مناقيرها الحادة أصواتا شرسة وجافة، كانت كأنما تنعق
منذرة، وحيثما صل الثلاثة فوقوا أمام الجمع ينظرون بأفواه فاغرة فإن القائد ليث قال
من لحظته.

- " سيدي.!!"

ورد الأمير وقد تيبس جسده تماما عن الحركة:

- " هي ذي الإشارة يا ليث. ..."

- " إشارة ماذا؟".

- " إشارة لشيء عظيم سيقع". قال ذلك ونقل ناظريه نحو القائد:

- "سننطلق نحو الشمال يا ليث، جهز فرقة للخروج ولنمضي بسرعة، ينبغي أن نصل قبل أن تشرق الشمس غدا".

- "سيدي!!"

ولم يلقى القائد جوابا من سيده، لأنه كان يعود مغتما في تلك اللحظة إلى الداخل، وحينما التفت ورأى خولة تنظر إليه بعينين سائلتين فإنه تقدم نحوها وقال مشيرا بيده إلى السماء التي كانت قد تغطت بأجنحة سوداء صغيرة:

- "هي لم تفعل هذا قبلا".

- "هل أخبرك شيئا؟".

- "إنه لا يعلم تماما ما الذي يحدث..."

وقالت السيدة نجلاء بعد ذلك:

- "ما الذي أمرك به الآن أيها القائد؟".

- "سنرحل نحو الشمال في أسرع وقت" ونظر إلى خولة بعد ذلك "هل ستأتين معنا؟".

ونقلت خولة عينيها الخائفتين إلى السيدة نجلاء فرأت أنها لم تقل شيئا فعادت خفضهما:

- "لا أعلم إن كان س..."

وقاطعتها السيدة نجلاء وهي تأخذ بيدها:

- "ستذهبين معهم طبعاً، سأذهب الآن وأتحدث معه، وسأرى إن كان كما تقولين حقاً... غاضباً منك."!!

هنا جاء أحد الجنود وقدم التحية أمام القائد ليث ودمدم بصوت لاهث:

- "سيدي..."

- "ماذا هنالك؟"

- "بدأ الناس بالتجمع عند البوابة..."

- "ولم هذا؟"

- "بسبب ما تفعله الغريبان يا سيدي، إنهم يتسائلون عما يحدث، ثمة خوف في أعينهم."

ونظر ليث نحو الأسفل حيث كانت تظهر أعالي البوابة من فوق الأشجار المثمرة

وعاد يخاطب الجندي:

- "حسناً، عد إلى موقعك، سأخرج بنفسي وأتحدث إليهم..." ثم إنه التفت إلى

السيدتين وانحنى لهما لطفاً: "عن إذنكما..."

بعد بضع دقائق استطاعت السيدة نجلاء أن تنفرد بالأمير جابر في الديوان، وكان

قد علق سيفاً على ظهره وارتدى قفازات سوداء حتى لم يعد يرى منه غير موضع رقبته

وأذنيه وما عدا ذلك فإنه كان ملفعاً بالسواد من رأسه حتى أخمص قدميه تماماً، وفيما

كانت عيناه تشعان ويتفجر منهما الغضب، فإنه رد بصوت هادئ ناظراً في عيني المرأة

مباشرة:

- "إنك لا تفعلين ما أطلبه، لكنني تصرين على سؤلي بدل ذلك..."

وردت السيدة نجلاء:

- "لكنك لا تريد هذا، أعلم أنك لا تريدها أن ترحل، فكف عن عنادك وأخبرني ما يدور في خلدك... ولا تقل لي أنك غاضب منها فقط لأنها نسيت أن تخبرك عن أمر ذلك المتسلل".

- "ليس هنالك ما أخبرك به..."

- "فلماذا تطردها إذن؟"

كانت نبرة السيدة نجلاء مُلحّة، وكانت ملامح وجهها تصدقها، ولذلك لم يقدر الأمير على النظر في وجهها طويلاً:

- "إنها تشوش عليّ..."

- "تشوش عليك أليس كذلك؟" قالت السيدة نجلاء بمكر وقد اتسعت وجنتاها:

"ألم تفكر في أنها لو رحلت فإن ذلك سيعيدك إلى المتاهة التي خرجت منها بصعوبة؟ إنك سوف تعزل نفسك مرة أخرى".

- "ولم ذلك؟"

- "لسبب كلانا يعرفه".

- "أخاف أن تصاب بمكروه، هي ضيفة عندنا، وكان من الخطأ أن أقحمها في كل

هذا..."

- "لكنها سعيدة بما تفعل".

وعاد الأمير بوجهه الصلب الأسود وعينيه القمريتان نحوها ونطق يقول بصوت خفيض:

- "سنخرج الآن لنتجه نحو الشمال، هل تظنين أنه من الصائب أن آخذها معي إلى هناك؟".

- "أظن أنه لن يصيبها أي مكروه ما دامت بقربك... ولأصدقك القول فإنني أفهم جيدا ما يجري بداخلك، تخاف أن تجد خولة مخرجا من عالمنا بعدما تكون قد أحببتها، أليس كذلك؟".

هكذا تسربت كلمات السيدة نجلاء إلى سمع الأمير جابر وانتشر صداها في جسمه حتى سرت رعشة في عروقه، ولشدة ما أصابه من الخجل فإنه جعل يشد قبضته ويضغط أعلى أسنانه حرجا، ثم لم يجد ما يقوله بعد ذلك، ورأت السيدة نجلاء في عينيه رعشة ففهمت أنها لم تجانب الصواب إنما أصابته تماما.

- "أخبريها أن تستعد للخروج معنا..."

وقفت السيدة نجلاء بعدها تراقب الأمير جابر وهو يغادر القاعة، بفخر بالغ، وقفت للحظات تشد على قلبها ثم خرجت من بعده.

شؤم

جاءت الطيبة العجوز تمشي على وهن تُسبِّق عصاها تضرب بها الأرض ضربات خافتة ومتباعدة، وحينما وقفت أمام الفرسان عند مدخل القصر فإنها جعلت تضع ذراعها الحرة خلف ظهرها المعقوف بينا راحت تضرب بالعصى و - برفق بالغ - رقبة أحد الأحصنة قائلة:

- "أين سيدكم، ذلك الشاب الغريب الأطوار، هل رأيتموه؟".

ورد الفارس الذي كان يركب على ظهر الحصان قائلاً:

- "سيأتي بعد لحظة يا سيدتي. ..."

- "وأين ليث؟".

- "خلفك يا سيدي".

والتفتت الطيبة بهدوء خلفها فرأت القائد ليث مرتدياً بدلة الحرب ممتطياً حصانه الجامح بينا ينظر إليها بعينين جارحتين، وهمت بأن تكلمه فجاءها سعال خفيف أبان عن ضعف صحتها، وظهرت في صوتها حشجة حينما قالت تخاطبه:

- "ليث... إلى أين تذهبون هكذا؟".

ورد القائد:

- "إلى الشمال يا حضرة الطيبة".

- "إلى الشمال إذن!... هل تاقت أيديكم إلى العراك يا ولدي؟".

وتبسم ليث ضاحكا لكلامها، ثم رفع يده مشيرا نحو البوابة التي كان مصراعها مفتوحان بالكامل:

- "إسأليه عن هذا..."

ونظرت فإذا بالأمر ياتي ممتطيا جابه الليلي اللون الذي كان يمشي بخطى مؤدبة كأنما يتفاخر أمام جميع الأحصنة الأخرى حتى وصل عند العجوز فترجل عنه الأمير ونزل أمامها:

- "حضرة الطيبة، هل أنت بخير؟... تبدين مريضة."!!

وردت العجوز بينا تضع ذبابة عصاها على صدره:

- "أيي، لست مريضة، أنت المريض... أخبرني، ما الذي حل بالغربان حتى صارت تتصرف هكذا؟"

ورد الأمير مبديا جهله التام بما يحدث:

- "لو تخبريني أنت، بما أنك جئت حتى هنا، فلا بد وأنت تعرفين شيئا!"

وهنا أنصت الفرسان جميعهم بما فيهم القائد ليث وخولة التي كانت تصل في تلك اللحظة وهي تجر فرسها من رباط رأسها، ونطقت العجوز تقول حينئذ بينا تجاهد لتفتح عينيها نحو زوبعة الغربان السوداء التي كانت تدور في السماء فوق القصر غير بعيد عنهم:

- "هذا نذير شؤم، تفعل الغربان هذا لتخبرك بشيء عظيم قد وقع، ولو أتيت الوقت لوالدك لربما قد أخبرك بما يعنيه هذا... لكن ربما أكون قد سمعت شيئا في

صغري... فيما مضى تناقل الكبار كلاما عن شيء مشابه قد حدث، ربما حتى قبل مئات السنين، كانوا يروون قصصا عن أنّ الغريبان هاجت فوق القصر وراحت تنعق وتدور حول بعضها، مثلما تفعل الآن تماما، كانوا يقولون أيضا أن الأمر يتعلق بالساحر الأعظم، بالطبع لا يُتوقع أن يكون أمرا حميدا... ولكنهم لم يذكروا أن شيئا أصاب المدينة حينها، ولا أن الأمير قد فعل شيئا حيال ذلك، كانوا يكتفون بذكر هذا المشهد فقط على أنه حادثة غريبة... ولأنه لم ينتج عنه أي تأثير واضح على أي شيء كان فقد تم نسيان الحادثة ولم تعد تروى إلا نادرا، ربما أكون وحدي من بقيت على قيد الحياة وأعرف هذا...”

وهنا قال الأمير جابر وقد لمعت عيناه بحيرة:

- ” فالأمر إذن يتكرر للمرة الثانية، غير أنه لو كان يتعلق بالساحر فعلا لكان قد دعانا إلى الأرض الوسطى حتى هذه اللحظة، لكنه لم يفعل... أمر محير حقا.”

نهدت العجوز تنهيدة تكاد لا تسمع ثم قالت وهي تفتح عينيها:

- ” دعني لا أويصك فيما ينبغي، ولتكن رحلتكم سهلة، وليكن التراب سبيلكم...”

هكذا ودعتهم العجوز وراحت تعود أدراجها بخطى قصيرة متأنية بينا يتراكم حزن غريب راح ينبت في صدرها فجأة مثل شتلة سوداء صغيرة، وكانت قبل أن تولي بظهرها قد دنت من خولة وسألته بصوت خفيض إن كان هذا الماعز الأسود - كما سمته - لا يزال يزعجها، فيما أجابته خولة بإيماء سريعة وهي تحرك رأسها مبتسمة.

عشرة أحصنة خرجت من بوابة المدينة وانطلقت على أطرافها الأربعة تجري نحو الشمال جامحة، هناك حيث تنمحي السحب نهارا، وتشتعل النجوم في السماء ليلا، وحيث يختنق هذا العالم الصغير المرتجف، ركضت الخيول عبر الغابات والسهول الواسعة والوديان الشحيحة، ولا مست رؤوسها أوراق الشجر وفرقت حوافرها على حجارة الأنهار الضيقة، كانت تلك التي تحمل المؤونة تجري في المؤخرة، وكان الجابر الأسود يفيض بهم كالسهم في المقدمة، وبحلول الظهيرة شدت الألجمة وجلس المحاربون ليتناولوا غدائهم تحت الظلال، قبل أن يعاودوا السير مجددا بعدها دون إبطاء يذكر، وحين كان وقت العصر كانوا قد ساروا في الطريق المؤدية نحو أرض الماء ثم انحرفوا عنها في موضع قريب من البحيرة التي لفضت فيها الأميرة سمراء أنفاسها، ولما تنحى المساء وهبط أول الليل وقفوا على قمة هضبة عالية يشاهدون الجبال التي باتت تسد الأفق جهة أرض الغابة، كان الظلام يرتمي سريعا من فوقهم، وكان المنحدر الطويل تحتهم يبدو غير ذي نهاية، وقال الأمير جابر وهو يدور بجابه في ذات البقعة:

- "هيا بنا، سنجد مكانا لنتراح فيه بالإسفل..."

وهكذا مضى خلفه الآخرون وراحت الخيول ترتكز على قوائمها الأمامية حتى توازن نفسها وهي تهبط المنحدر الذي كان مفروشا بحصى صغيرة متدرجة. كانت الرقعة التي نزلوا بها واسعة ومستوية، وكانت تحفها أشجار مرتفعة، ومن خلف الأشجار كان الظلام يحشر نفسه مثل الأشباح المختبئة ويسد المشهد، غير أن

القمر أنار الرقعة بما يكفي، وكانت حيوانات الغابة لا تكف عن إظهار تدمرها من الزوار الغير مرغوب فيهم عبر إصدار أصوات وخشخشات عشوائية هنا وهناك من خلف الشجيرات الصغيرة.

بعد أن ربطت الخيول على مقربة، جلست خولة على حجر صغير وشردت في موضع قريب حيث كانت تُرصد بعض الصخور الصغيرة في حلقة دائرية تمهيدا لوضع الأغصان الجافة في وسطها ومن ثم إشعال النهار من أجل طهو الصيد الذي كان يفترض أن يظهر في أي لحظة.

كان الأمير جابر و القائد ليث قد غابا في الظلام بين الأشجار منذ بضع دقائق مضت، وما هي غير لحظات وظهر ليث يعود باسم الوجه بينا يشد أرنيين بريين من أذانهما كانا حتى اللحظة لا يزالان يرفسان بأقدامهما الخلفيتين احتجاجا على إخراجهما من الغابة.

جلس القائد بجانب خولة بعدما ناول صديه لأحد الجنود حتى يقوم بسلخه وإعداده، ثم نظر إليها نظرة خاطفة وتنهد شابكا يديه ببعضهما فوق ركبتيه وقال بعد ذلك:

- "كيف أنت؟"

وقالت خولة:

- "بخير..."

وقال ليث:

- " ما يشغلك؟ "

- " لا شيء... أو ربما، كل شيء... أين الأمير، ألم تكونا قد ذهبتما معا؟ "

- " بقي في الغابة، لقد شعر ببعض الألم. ... "

- " أوتعرف عنه هذا أنت أيضا؟ "

وأطلق ليث نصف ضحكة:

- " أنا قائد جنده، وصديقه الأقرب، وأمين سره. ... "

وطأطأت خولة رأسها كأنما أثقله هم مفاجئ:

- " لماذا تركته لوحده؟ "

ورد ليث بصوت ينم عن ثقة:

- " لا داعي لهذا، سوف ينزع قناعه ويراقب القمر لبعض الوقت وسيكون بخير بعد

ذلك، ما كان قليل من الألم ليقتله. ... "

- " قلت أنك أمين سره، فهل تعرف السبب الذي جعل الساحر يفعل به هذا؟ "

- " هذا أمر لم يخبرني به يا أنسة. ... "

- " لكنه ليس ثمننا يدفعه لقاء شيء فعله، أليس كذلك؟ "

- " لا، أبدا... ربما لا تزالين تظنين أنه تعمد قتل والديه رغم كل ما عرفته؟ "

- " أبدا. !! "

- " جيد. "

بعد نصف ساعة كان لحم الأرنب قد نضج وأصبح ذا رائحة طيبة، وظهر الأمير جابر يأتي من وسط الظلام فجاء وجلس بجوار ليث وخولة، ولم يتحدث أي منهم حتى استأذن ليث أن يذهب ليحضر حصصهم من الطعام قبل أن تضيع بين أيدي الجنود اللذين كانوا يتسامرون حول النار بينما يجعلون الأرنبيين قطعاً كثيرة، ونطق الأمير لما بقي وخولة لوحدهما:

- " ألم يؤذك برد الليل؟".

وردت خولة بنبرة من أرغم على الإجابة، بينما تصالب ذراعيها:

- " كنت ذهبت بقرب النار وأدفأت نفسي".

- " طبعاً، كنت لتفعلني ذلك...".

- " أجل...".

...

- " أزال غضبك؟".

ولم يغير الأمير موضع نظره حين كان يتأمل رجاله وهم يتناطحون ضاحكين حول حلقة الجمر الحمراء التي كان يتطاير من الشرر، وشابك يديه وقال بعدها بصوت مفعم:

- " لا تزول الأشياء إلا إذا كانت".

...

- " سوف تصمتين طبعاً".

- " أوليس هذا رد أيضاً؟".

- "لا..."

...

- "هل أخبروك بشيء عن الأرض التي نحن متوجهون إليها، أسمعت كيف يعيش الناس هنالك وكيف يقضون حياتهم؟".

وهنا قاطعهما مجيئ القائد ليث حينما أتى حاملا ثلاثا من قطع الخبز بعدما قام بحشوها بشيء من لحم الأرنب، فناول كلا منهما حصته وجلس في مكانه وقضم قضمة صغيرة ومضى يلوكها بينما يقول بصوت مختنق:

- "هي أرض سوداء يا أنسة خولة، مظلمة، ضباب أسود يطوف طوال السنة، وبرد لاذع، وبشر يرتدون جلود الحيوانات وينظرون بعيون واسعة، لا يحبون الضوء، ولا يضحكون أبدا، وإذا حدث وسمعت لهم ضحكة، فإنها لا تسمع مرة ثانية، لأنهم يحبون أن يموتوا وهم يضحكون فقط أو وهم يقتلون شخصا آخر، و..."

- "رويدك يا ليث، أراك تحمست لقتالهم منذ اللحظة!"

وحك القائد جبينه في موضع به علامة جرح قديم لم يزل يظهر أثره، ثم ابتلع ما بفيه وطفق يقول بعدها:

- "أجل يا سيدي، لم أنسى هذا الجرح أبدا، فطوال المعارك التي خضتها لم يصبني أحد غيرهم، ولن أنساه حتى أقتل مئة رجل منهم..."

وهنا انفلتت من صدر جابر ضحكة جميلة، أدهشت سمع خولة تماما، فأصابها خجل وحيرة، ثم نطق الأمير يقول بعد ذلك بنبرة جادة:

- "سينبلج الصبح بعد ساعات قليلة، وينبغي علينا أن نصل إلى هناك قبل ذلك، لم يعد لدينا الكثير من الوقت لنضعه في تناول الطعام..."

ونطقت خولة بعده تسأل بحيرة:

- "هل لي أن أسأل لماذا يجب أن نصل إلى هناك في الظلام بينما أهل تلك الأرض لا يحبون الضوء، ألا يعني هذا بالضرورة أن قوتهم تزيد في الليل بينما تضعف في النهار أم أنا مخطئة؟"

ونطق القائد ليث يجيبها:

- "بلى، أنت محقة... لكن وصولنا إلى هناك في الظلام سيرافقه طلوع الشمس بعدها مباشرة أو بعد فترة قصيرة، وتلك غايتنا، أن نواجههم في أول ضوء النهار حيث يصبح نظرهم في أضعف حالاته، إن ضوء النهار الأول يؤدي أعينهم كثيرا يا أنسة، وإذا انتظرنا حتى منتصف النهار فستكون أعينهم قد اعتادت قليلا وسيكونون ذا قوة وقدرة... وأما عن مواجهتهم في الليل وفي عقر دارهم فهذه ليست با الفكرة الذكية..."

وقال الأمير بعده وفي نبرته هم وحيرة:

- "ما يقلقني يا ليث هو القنطور ولا شيء آخر، فمن عادته أن يتجول عند أطراف القبيلة حينما يكون وقت التغيير، قبل طلوع الشمس بوقت قصير فقط... وهو الوقت الذي قد يوافق وقت تنفيذ مهمتنا..."

وأتبعت خولة كلامه على عجل قائلة:

- "أقلت القنطور؟".

ونظر كلاهما إليها بعجب فأردفت:

- "أتعني ذلك المخلوق الذي يشبه جسده جسد الحصان والثور معا؟".

- "من... من أين تعرفين هذا؟ إنك لم تريه من قبل".

قال القائد ليث والحيرة تملأ فمه، وقاطعه الأمير جابر مظيفا:

- "لحظة، لحظة، كيف...؟".

وقالت خولة:

- "هذا المخلوق معروف عندنا، هو من الأساطير القديمة التي تناقلها الناس في

حكاياتهم منذ زمن، وله صور وأشكال عدة أشهرها هذا الذي أخبرتكم عنه، لكن ألا يعني هذا أن...".

وبانت على أساريرها بهجة، حتى لقد لمعت عينها بسعادة ولذلك أردفت تقول في

عجل:

- "ألا يعني هذا أن شخصا ما في السابق قد غادر عالمكم نحو عالمنا، أليس هذا

هو المعنى الوحيد لهذا الأمر؟".

وهنا نظر الرجلان نحو بعضهما البعض وعادا بعدها يحدقان في خولة التي كانت

تغرق وسط هالة من الفرح، ثم قال القائد بحماسة:

- "بلى، بلى... في الواقع لن يمكنني أن أجد تفسيراً آخر ليكون أفضل من هذا، ومثلما دخلت أنت، يكون هذا الشخص قد خرج أيضاً، ما علينا الآن سوى أن نبحث في هذا الأمر أكثر انطلاقاً من هذه الفكرة".

وهزت خولة رأسها موافقة، ونظرت إلى الأمير بعدها فكان يبدو وكأن طيراً حط على رأسه، ثم إنه راح يقوم من مكانه حتى استوى واقفاً:

- "ليث، تأكد إن كان الجميع قد انتهوا من تناول عشاءهم ولنمضي في سبيلنا بعدها".

قال ذلك وراح يبتعد نحو حصانه، وقالت خولة وقد ساءت لها ردة فعله:

- "ما الذي قلته الآن، هل قلت شيئاً أغضبه؟"

وقال القائد:

- "لا، لا أظن هذا".

- "لكنه ترك طعامه هنا أيضاً!"

ونظر القائد حيث كان موضع جلوس الأمير جابر، وتأمل قطعة الخبز المحشوة

باللحم لبرهة وقال بعدها:

- "عندما لا يرغب المرء في تناول حصته من الطعام فإن لذلك تفسير واحد يا

آنسة..."

قال ذلك لما كان يمسح فمه من اخرقضة قضمها من طعامه ثم هوى نحو حصة

الأمير بيد قوية وجذبها إلى وجهه، وعلى ذلك تأملته خولة للحظات ثم أخذت ببصرها

نحو السماء المرصعة، هناك حيث كان القمر انعس يبقَى ظاهراً للعيان كعروس تفرش رداؤها الأبيض وسط ظلمة معتمة.

الوقت الآن آخر السحر، ولم يعد يفصل بين الليل والنهار سوى دقائق قليلة، وحيث كان ثمة بوابة خشبية بدائية الصنع تقف على الجهة الأخرى من الطريق وتربط بين جدارين من الأوتاد التي كانت تعلق عليها أغصان شائكة وجماجم بشرية وحيوانية وأنياب طويلة وجلود حيوانات نافقة فإن المتسللين كانوا يربضون أيضاً بداخل معترك من الأجسام المظلمة ينظرون إلى كل ذلك بعيون حذرة، كان ثمة دخان يصعد من خلف البوابة، ولاحظت خولة أن الظلام من فوق تلك البوابة ظلّ يبدو أشد وأكثَر عتمة من أي موضع آخر، ولذلك تلفتت يمنة ويسرة ثم راحت تسأل القائد ليث عن الأمر وقال يجيبها وهو يبعد بيده غصنا كثيف الأوراق من أمام وجهيهما:

- "هي ذي أرض الرماد، وما سُميت هكذا إلا لأن الظلام الكثيف الذي ترينه يعود لجوها وطبيعة تربتها..."

وأدارت خولة وجهها نحوه بينما يضيف قائلاً.

- "نعم، تختلف عن أي تربتها قد رأيتها، هي رماد حيثما مشيت، صخور سوداء ورماد وأوساخ في كل شبر بعد هذه البوابة، وإذا تسائلت عن هوائها فهو سديم أسود، وكأن وكأن زجاجة عطر من صنع ساحرة شريرة قد تكسرت بالداخل، نعم، شيء مثل هذا..."

- "فكيف يتنفسون إذن، ألا يتأذون من كل ما ذكرته؟"

- " في الأصل نحن لا نعددهم من البشر، رغم أنهم كذلك... لكنه السحر، بإمكانه منحهم هكذا قدرة على العيش في وسط سام جدا. "...

عادت خولة بعينها نحو البوابة:

- " أيمكنك أن تخبرني بما تعرفه عن القنطور؟ "

وقال ليث:

- " لا يحب مغادرة أرضه كثيرا، لأنه مثل الناس هنا أيضا... يضعف بصره على ضوء النهار، لكن خلف هذه البوابة يصعب جدا على أي وحش من الوحوش الأربعة الأخرى هزيمته، حتى عقرب أرض الرمال سيبقى عاجزا أمام قوته. "...

- " وهل في يده رمح طويل يظل يحمله معه؟ "

والتفت ليث إليها للحظة ثم عاد بوجهه نحو البوابة:

- " بت أشك في أنني أعرف عنه أكثر منك... على كل، هو يختلف عن الوحوش الأخرى، من حيث الذكاء، فإن حصل وواجهته يوما فستشعرين بمدى وعيه بما يجري حوله، حتى ليبدو لك وكأن بداخل رأسه السميك ذلك دماغ بشري مثل الذي عندنا... بمقدوره أن يُقدّر الأوضاع والخطر الذي يحيط به ومن ثم ترينه يتصرف وفقا لذلك. "

- " هو ذكي إذن. "

- " أجل، يبدو أنه أخذ حصة شعبه من التفكير لإنهم باستثناء القتال والأكل لا يعرفون شيئا غير ذلك. "

- " ماذا أيضا. "

- "لديه حلقة ذهبية سميكة تتدلى من جلدة أنفه، بإمكانك أن تصبحي من عليّة القوم لو تمكنت من الحصول عليها".

ونظرا نحو بعضهما في هذه اللحظة، وحينما أوشكت خولة أن تسأله إن كان قال ذلك جادا فإن صوت الأمير جابر أتاهما من الخلف حينما جاء يجر غزالة صغيرة ميتة من ساقها:

- "هل هنالك أي حركة؟".

قال وهو يفلت ساق الغزالة حتى أسقطها خلفهما مباشرة، وأجابه ليث وهو يتراجع إلى الوراء بضع خطوات ثم وهو يستقيم واقفا أمام سيده:

- "لا يا سيدي، لم يعد المتجولون بعد، ولم تتحرك البوابة من مكانها، لكن ولا شك سيظهرون الآن في أي لحظة، يوشك الصبح أن ينبلع، وعليهم العودة إلى جحورهم".

- "فافلذن ما ينبغي عليك فعله."

وأخذ ليث يجر الغزالة من ساقها وراح بها نحو الطريق حتى وصل عند البوابة ثم أخرج سكيناً من بين ثنايا ثيابه وجعل يبعج به بطن الحيوان حتى سال دمه ثم أخذ يجره عائداً به نحو موضع قريب بينا يفيض دمه على الأرض وأخفاه بين الشجيرات وعاد إلى موقعه واند فيه بسرعة وقال بينا تتطلع عيناه نحو الطريق الخالية، قال بصوت جاد بينا يهمس:

- "أظني سمعت صوتاً يأتي من تلك الناحية، انتبهوا..."

وشد الجنود أيديهم على السيوف وخفضوا رؤوسهم وحام صمت ثقيل في الأنحاء حتى لم يعد هنالك ما يسمع غير بعض النقر والصرصرة.

كان كل من الأمير جابر وليث وخولة يحتلون المقدمة، ومن خلفهم انقسم الجنود إلى قسمين اثنين كجناحي غراب سيثب نحو السماء بعد لحظة، ونطق أحد الرجال بصوت محدّر:

- " انظر نحو الميسرة يا سيدي."

ونظر الجميع وإذ بستة رجال كحل العيون اشداء يرتدون جلود الحيوانات يأتون حاملين فؤوس في أيديهم ودروعا على أكتافهم ويمشون على عجل بخطى سريعة كأجيج النار عندما تسحب نفسها على هشيم يابس.

كانوا ستة رجال ثقال الهيئة مدرعين عليهم جلود الحيوانات يغطون رؤوسهم بجماجم الذئاب ولهم خطوات تमित العشب وتكسر الحصى، كان هنالك قلاذات عظمية وتمائم تتدلى حول في كل موضع من أجسادهم، كانوا يمشون بأقدام حافية، لكن وإن كانوا بشرا حقا مثلما أُخبرت به خولة عنهم فإنه لم يكن هنالك ما يمكنها رؤيته من ذلك فيهم، هكذا حدثت نفسها بينا تحاول ربط صورهم بصور شعب الفايكنغ اللذين اعتادت على رؤيتهم في شاشة التلفاز تمثيلا فوجدت تشابها عظيما بينهم، لكن إن كان هنالك ما ركزت عليه في تلك المقارنات التي قام بها دماغها خلال أجزاء فقط من الثانية فإنه كان ما يبقيه أولئك الشعب خلفهم بعدما يكونون قد انتهوا من أي مواجهة، كان منظرا تشمئز منه القلوب ذلك الذي ارتسم في فكرها،

وحاولت بيأس أن تفكر في شيء أقل وحشية لكنها لم تقدر، وحين أيقظها صوت الأمير جابر ونظرت نحوه فإنه كان يُغيّر مكانه نحو شجيرة متقدمة بينا يكلمها:
 - "أبقي دائما خلف ليث، ولا تتقدمي أبدا ولا تندفعي وسط المعركة، أفهمت؟".
 وأومات خولة برأسها موافقة، وكانت نظرات الأمير جابر وهو يتلقف جوابها بنظرة جانبية، مطمئنة بشكل أعاد شحذ همتها بالكامل.

وصل رجال أرض الرماد عند البوابة، وأخذوا يتأملون الدماء تحت أقدامهم بينا يتهامسون بكلام مبهم فيما بينهم، كانت أعينهم تلمع بغضب، وراحوا يدورون حول أنفسهم فجأة، ثم أخذوا يشتمون الهواء كالضباع الحذرة، كان هنالك بينهم رجل مهيب الهيئة أكثر من أي واحد آخر، وكانوا كلما غيروا تصرفاتهم إلا وغيروها تقليدا وتبعاً لذلك الرجل فقد كان مثل قائد القطيع يسبقهم في كل حركة، كان الوحيد من بينهم من أخفى وجهه تحت قناع من جلد أبيض، وأنزل فأسه من على ظهره فجأة فارتكز بها وبركبتة على الأرض ومسح الدم بأصابع ثلاثة ورفع يده يتشممها بروية ثم قربها إلى فمه وجعل يلحق سبابته ملتذا، كان المكر باديا في عينيه المظلمتين، وتوجه بهما نحو الغابة حيث كان خط الدماء ينتهي عند أجمة صغيرة، ثم إنه حدث رفاقه بكلمتين مبهمتين وراح يتقدم نحو الغابة أخذا بفأسه بين يديه الإثنتين دون أن يبدو عليه أنه حذر من أي شيء يمكن أن يفاجئه.

على الجهة الأخرى، تاهب المتسللون وشدوا على أسلحتهم وهم يشاهدون محارب أرض الرماد وهو يتقدم نحوهم يتتبع رائحة الدم بحذر ولهفة، كان الأمير جابر قد أبرز

نصله الحاد استعدادا للإنقضاض عليه في اللحظة المناسبة، كان الرجل قد توغل با الفعل بين الشجيرات وصار يبحث يمنا ويسرة، كان رفاقه لا يزالون واقفين وسط الطريق ينظرون نحو الغابة.

فجأة تحرك مصراعي البوابة وطار منها الأزيز عاليا، كان صوتا مثل النذير حرك الخوف في صدور محاربي أرض الشجر، وترك جابر الرجل يبحث وألقى ببصره نحو البوابة فرأى عددا من المحاربين الملفعين بالجلود والأوبار وهم يخرجون على أظهر خيول قوية ظلماء جامحة، سهلت الخيول وشخرت وهي تدور في خلط حول بعضها إلى أن خرجت كلها، كان عدد المحاربين عندما تجمعوا أمام البوابة جميعا قد بلغ قرابة العشرين محاربا بما فيهم أولئك الخمسة اللذين عادوا لتوهم، ولهذا فقط اضطرب الأمير جابر وصار يتراجع إلى مكانه السابق بحذر، مشيا على أطراف قدميه وأصابع يديه مثل عنكبوت أسود.

أخفى نفسه بجانب ليث وقال بعدها بصوت مضطرب:

- "اللعنة، هذا ما خشيت، ليث... ينبغي أن نبعدها من هنالك حتى نعزله لوحده وإلا فقد يشعر بنا البقية، هل يمكنك فعل ذلك؟".

وجعل ليث ينظر نحو الرجل من أرض الرماد الذي تتبع الدماء والذي كان حتى اللحظة لا يزال يسحب قدميه الثقيلتين بين الأجمات بشراسة، نظر نحو الموضع الذي ترك فيه جثة الحيوان لبضع لحظات أيضا حتى يُقدر الموقف ثم زم شفثيه عازما:

- "لا يمكنني معرفة هذا ما لم أجرب".

ذلك وراح يسحب نفسه بعدها بحذر بين الشجيرات بينما يده على مقبض الفأس لا تبارحها، كانت المسافة وبينه الغزالة تقارب الخمسة أمتار فيما كان محارب أرض الرماد قد ضيقها إلى نحو خمسة عشر مترا فقط.

ظلت عينا ليث تزيغان بين الرجل وبين موضع جثة الحيوان بين لحظة وأخرى، ومرّ الوقت ثقيلًا حتى وضع يده على ساق الغزالة أخيرا واستدار عائدا بها يجرها بطيء شديد بينما تتسارع ضربات قلبه، لكن فجأة وفي اللحظة التي ظن فيها أنه قد ابتعد كفاية، وإذ به يسمع صوت ارتطام من خلفه، وما كاد يسحب فأسه ويلتفت خلفه وأثر الرعب باد على وجهه حتى رأى جثة الرجل ترقد أمامه بينما قد رشق سهم حاد في عنقه، تأمل ليث عين الرجل التي أصبحت بيضاء بالكامل وابتلع ريقه، وللحظات ظل متيبسا مكانه لا يدري ما يفعل بعدما أصابه اضطراب مفاجئ، ولم توقظه إلا صيحات محاربي أرض الرماد حينما راحت تتعالى وتقترب شيئا فشيئا، وحينما فطن بعدها لما يحدث، نظر حوله وإذ بالأمر جابر وخولة وكل الرجال الآخرين قد برزوا من أماكنهم ووقفوا يشهرون أسلحتهم في وجه العدو اللذي كان بالفعل قد بدأ هجومه عليهم.

عاد ليث بسرعة إلى موقعه وراح يسأل جابر مضطربا:

- "سيدي، ما الذي حدث؟".

ورد جابر وهو يحرك معصميه استعدادا للمعركة:

- "لقد كُشف أمرنا يا ليث، لا مفر الآن من المواجهة، علينا أن نصدّهم لبعض

الوقت".

- " لكن عددهم زاد كثيرا يا سيدي".

- " أعلم، لنتقدم الآن نحوهم".

لم يفهم ليث ما الذي كان يفكر به الأمير جابر تحديدا، غير أنه لم يعتد على تجاهل ثقته بسيده، ولذلك فقد أطلق صرخة هيجاء ووثب من فوق الشجيرة التي كانت أمامه وصار يجري مهتاجا نحو أعداءه، صال وجال في ميدان المعركة وضرب عنق أحدهم وجرح آخر وتعرض إلى ركلة قوية على صدره أوقعته أرضا، ومن هناك فتح عينه نحو السماء فرأى كأنما شبها كان يطير ويتقاذف بين فروع الأشجار بخفة بالغة، ثم راحت الأصوات تخبو شيئا فشيئا حتى غاب عن وعيه، ومضى وقت لم يُقدره حتى فتح عينيه مجددا وقام يرتكز على فأسه بصعوبة، ثم شعر بأحدهم يقترب منه ويسنده بذراعه.

- " سيدي، سيدي... هل أنت بخير؟".

ونطق ليث بصوت متعب، بينما يحاول الوقوف لوحده:

- " أين الأمير، أين الأمير جابر؟".

ورد المحارب:

- " هو بخير، لا تقلق... هل يمكنك السير؟".

كانت الأرض تدور بالقائد ليث، وأحس بألم عظيم في بطنه وظل عاجزا على أن يرى أكثر من ضبابية بيضاء تتخللها أشكال سوداء تتحرك أمامه بسرعة، وقال بعدها قبل أن يهوي على الأرض بثانية:

- "أين الأمي..."

- "أيها الأمير، أيها الأمير... سيدي، إنه يستيقظ!"

كانت أول كلمات يسمعها ليث منذ أن فقد وعيه وسط المعركة، وحينما فتح عينيه بما يكفي وجد نفسه يرقد تحت ظل شجرة وقد عريت بطنه وربطت بقطعة قماش بيضاء بينما ينبعث منها ألم فضيع يشبه النار الحارقة.

جلس معتدلاً بصعوبة بعدها وتناول قربة ماء وقربها إلى جوفه، وجاءه الأمير جابر وثنى ركبته بجانبه وصار ينظر إلى موضع الجرح على بطنه :
- "كيف صرت؟"

ورد ليث:

- "لست أعلم ما حل بي حتى أعلم كيف أصير..."

وجلس الأمير جابر بجواره:

- "لقد أصبت في القتال."

وراح ليث يتأمر الرباط حول بطنه:

- "أظن أنني بدأت أكبر على هذا."

- "لم تكبر، بل كانوا كثرًا وكنا قلة."

- "هل أصيب أحد غيري؟"

- "قتل رجلان منا."

برق خيوط غضب رفيع في رأس ليث فور سماعه هذا، وأحس أن الدم قد تجمد في أوصاله، ثم رفع رأسه وأسنده على جذع الشجرة وقال وفي صوته ما يشي أنه قد كره نفسه:

- "بلى، لقد كبرت أكثر من هذه الشجرة".

وقام جابر واقفا عند حينئذ وقال بصوت غائر:

- "حاول ألا تفقد الكثير من الدماء فقط..."

تأوه ليث قليلا بعدها حتى عدل جلسته ورد ثوبه على بطنه وراح يسبق خولة إلى الكلام حينما رآها تأتي نحوه وفي فمها أسف بالغ.

- "أتراه يعزلني لهذا؟"

وقالت خولة بوجه باسم:

- "يعزلك؟"

- "ألم أنم وسط المعركة بينا كان رجالي يخوضونها لوحدهم؟"

وجلست خولة حيث جلس الأمير جابر قبل لحظة وتطلعت بعينها نحو الخيول المربوطة على مبعدة ثلاثين مترا، حيث كان الجنود يأخذون قسطا من الراحة تحت الظلال الباردة وهم يضمون جراحهم وقالت.

- "قاتلت بشجاعة لا نظير لها".

- "ونمت نوما لا نظير له أيضا".

- "لحسن حظك أن جابر تداركك في آخر لحظة" قالت خولة وهي تنظر في وجهه:
ولم تخبرني أنه بارع كل هذه البراعة.!"

وابتسم ليث بصعوبة:

- "ليس من قد رأى كمن قد سمع".

- "كان الوضع صعبا".

- "أجل... هلا أخبرتني ما الذي حدث منذ أن سقطت تلك الجثة خلفي، ثم إنني لم أشكرك على إنقاذك حياتي، إنني..."

- "لست أنا من فعل ذلك..."

ونظر إليها شزرا

- "أجل، إنني لم أقدر على فعلها..."

قالت ذلك وكاد يطفح دمع من عينيها فأخفت وجهها بين يديها، فتداركها ليث

قائلا:

- "ما بك يا أنسة، إنه ليس وقت الكاء كما ترين، أخبريني ما الذي حدث".

وأخذت خولة وقتها حتى ذهب عنها البكاء فمسحت عينيها وعادت تقول وقد بقي

في صوتها شجن:

- "كان الأمير هو من أخذ عني القوس وأرداه قتيلا، في البداية كان ذلك الرجل يشتم

الهواء بحذر، ثم صار ينظر نحوك مباشرة، وكأنه كان يقدر على رؤيتك، وحينما أخبرني

الأمير أن أطلق عليه بسرعة، ترددت... وأنا أصوب نحوه، خفت كثيرا، لم أقدر، لقد خفت ألا أصيبه، أرجوك أعذرنى."...

- "لماذا عدت للبكاء الآن مجددا، فقط أخبريني ما حدث، إنني أنا من ينبغي عليه أن يعتذر منكم، لا بد وأنني أفسدت الأمر تماما".

واصلت خولة تقول بعدئذ:

- "في لحظة كان ذلك الرجل يقف خلفك مباشرة وهو يحمل فأسه فوق رأسه، حينها أخذ الأمير مني القوس وأطلق عليه بسرعة..."

- "ثم؟"

- "ثم شعر الآخرون بوجودنا، ذلك الرجل وهو ممدد على الأرض أطلق صوتا غريبا نبههم، بدا كعلامة تحذير أكثر منه صرخة موت..."

- "وكيف انتهت المعركة إذن، ألم يكن عددهم كبيرا جدا..."

- "تمكن الأمير من صدهم حتى جاءت خيولنا..."

- "صدهم عبر القفز من شجرة إلى أخرى..." قالها ليث ضاحكا وأردف: "يالاه من رجل، خيالة أرض الرماد لم يقدر عليه، ثم إنه وجد نفسه في بيئته المفضلة، إذا كان هناك ما يقدر على تسلقه والتمسك به فسيصير من الصعب جدا إيذائه".

- "أجل".

قالت خولة وراحت تطالع الأمير جابر وكان يتفقد رجاله، ثم سألت بعدها:

- "هل كان هناك خلل في الخطة، أعني... لماذا فاجأنا ظهور أولئك الخيالة فجأة".

وقال ليث مجيباً:

- "في العادة لا يكون مثل هذا، أعني أن تخرج فرقة في وقت التبديل، وأغلب الظن أنهم خرجوا مسرعين نحو قرية قريبة تكون قد ماتت في وقت قريب ولذلك خرجوا على عجل، وإلا فليس هذا من عادتهم، أو كانت خطتنا لتكون غير التي كانت..."
ونطقت خولة تقول بعده:

- "حدث أمر أثناء القتال أيضاً، فقد فتحت البوابة مرة أخرى، في البداية ظننا أن فرقة أخرى ستخرج لقتالنا..."

وقاطع ليث حديثها:

- "لهذا سمعت بوق الحرب قبل أن أفقد وعيي مباشرة..."

- "لم تخرج خيول مثلما اعتقدنا، بل..." وشد كلام خولة انتباه ليث أكثر مما سبق، ذلك حينما فهم شدة الخبر في صوتها: "بل كان ذلك القنطور نفسه، كان الظلام دامساً في الداخل، رغم أن الشمس كانت قد أشرقت، لم أتبينه جيداً، لكنني شعرت وكأنه يقف أمامي مباشرة، في حين كان الجميع يخوضون المعركة ويقاتلون بسيوف حمراء ووقفت أنا في مكاني أنظر إليه متييسة..."

- "كان من الشجاعة أن تحاولي النظر إليه مباشرة، صدقيني، لا أحد من أولئك الرجال كان سيرغب في أن ينظر في عينيه مباشرة..."

- "لكنه قتل معظمهم..."

- "من؟"

قال ليث ونظر في وجهها فكانت عيناها تبدوان باردتان جدا، ثم إنها قالت بتلقائية دون أن تزيح نظرها من مكانه:

- "الأمير... قتل أولئك الرجال جميعا، والخيالة واللذين كانوا على الأرض أيضا، أما أنت فسقطت بعدما تحامل عليك أربعة منهم، قتلت اثنين و..."

- "خولة، خولة..."

وهزت خولة رأسها حتى تفك شرودها.

- "أسفة، لا تغيب المشاهد من أمام عيناى أبدا.."

- "لا عليك... ستسسينها بعد فترة".

ومرت بضع دقائق من الصمت وعادت خولة تقول من تلقاء نفسها فجأة:

- "أثناء القتال تسلل رجلان منا وقاما بجر ذلك الرجل الذي تتبع الدماء وجراه الخيول وربطاه على ظهر واحد منها، الآن لا يزال السهم عالقا في عنقه..."

عقد ليث حاجبه وواصل سماعها.

- "هو هناك، انظر... لا أدري لماذا أراد الأمير جابر إحضار جثته أيضا".

والتفت ليث إلى موضع قرب الخيول فكان هنالك ظل لثلاثة أجساد ترقد جنب بعضها، تأملها بتمعن حتى بانَت الفكرة في رأسه فعاد يقول بنباهة:

- "ليست جثة، بل لا يزال على قيد الحياة، وسوف يستجوبه".

وقالت خولة مندهشة:

- "كيف، وقد اخترق السهم عنقه؟".

- "لقد تعمّد جابر ألا تكون الإصابة قاتلة... انظري، هو الآن يتوجه نحوه، أظنه قد استيقظ..."

كانت عينا خولة بالفعل تطاردان الأمير جابر في هذه اللحظة، وكان يبدو عليه وكأنه قد سمع شيئاً يأتي من الناحية التي ترقد فيها تلك الأجساد الثلاثة، ولذلك فقد مشى نحوها حتى وصل عند أول جسد ولبت يتأمله للحظات ثم انحنى نحوه ورفعته حتى أسنده على جذع شجرة وأثنى إحدى ركبتيه أمامه وراح كأنما يحدثه.

لم يكن بمقدور القائد ليث وخولة أن يتبينوا الأمر جيداً بسبب من أن الأمير جابر كان يغطي بجسده على الأسير الذي كان يحاول أن يتفل على القناع الخشبي دون أن ينجح في ذلك، ثم إن كل ما قدر على الإتيان به رغم أن يده لم تكونا مقيدتان كان أن ضيق حاجبيه بغضب وهر مثل ذئب قُطع حلقة ولم يقدر في إظهار نغمه على الذهاب لأبعد من ذلك.

مرت دقائق منذ راح الأمير جابر يتحسس جبين الأسير بيده، وحينما انتهى فقد وضع يده الأخرى على السهم واستله من عنق الرجل فمالت رأسه على صدره وفاضت روجه بعد ذلك عالياً.

ظل الأمير جاثياً أمام جثة المحارب لبعض الوقت ثم قام بعدها والتفت نحو ليث وخولة، وفي مشيته تلك نحوهما، كان يبدو عليه أنه قد استرق حملاً ثقيلاً حملة في صدره، وقف أمام خولة وفي يده شيء لم يكن يعرف كنهه، كما لم يكن متأكداً من أنه

سيكون من الصائب أن تراه خولة، غير أنه ومما عرفه من ذلك المحارب أنه شيء يعود إلى عالمها، شيء لم يتم صنعه في هذا العالم، ولذلك فتح يده ببطئ أمامها.

- "وجدته مع..."

قال وقطع حديثه أن ملامح خولة أخذت تتبدل في لمح البصر لحظة أن وقعت عيناها على ما كان يحمله، ورأى رعبا يتفجر في وجهها وهي تقول بصوت فيه فزع:

- "هذه نظارة.."

ونظرت إليه بعد ذلك:

- "هذه نظارة صهيب، من أين...؟"

ثم رأت في عيني الأمير جابر أنه جاء بها من عند ذلك المحارب الميت، وفي اللحظة التي فهمت فيها هذا، إذ بوجهها يشحب ويأخذ في التبدل مثل سماء تلبدت في لحظة، بمثل تلك السرعة فاضت عيناها وراحت في بكاء مرير جدا.

بعد دقيقة كاملة، رفعت يدها المرتعشة ببطئ وتناولت عنه النظارة وأخذت بها إلى

صدرها، أغمضت عينيها المبتلتين وقالت بصوت مختنق:

- "هل علمت عنهم شيئا؟ كانوا ستة".

ورد الأمير جابر بصوت ينخره الأسف:

- "لا لم يبدوا وأن أحدا منهم قد نجى".

أوراق

طارت العصافير من أعشاشها وحلقت حتى ملأت السماء صخباً، وعرت الريح الأرض من غبارها وزفرت من الشمال الغربي البارد، وكان الجنود ينتهون لتوهم من دفن محارب أرض الرماد في حفرة ضيقة، بعدما غطوه بالتراب حتى استوت الأرض من فوقه، كانت خولة قد دخلت الغابة لتفكك كومة الحزن التي تكونت في حلقها، بينما جلس الأمير جابر وليث رجلاً إلى رجل بعد ذلك، لكن كان قد بقي لحزن خولة طيف بينهما، وعندما تحدثا بأمرها قليلاً قال الأمير بعدها وكان في حديثه غم وحيرة، قال بينما يحكم قبضته بعصبية شديدة:

- "آه منك يا أكثم، آه منك... كم خبأت عني بعد أكثر من هذا؟".

وقال ليث يسأله:

- "لكن عما تلومه هذه المرة يا سيدي؟".

- "هنالك اجتماع سيقام في الأرض الوسطى، والأوراق... أوراق السحر يا ليث،

ظهرت واحدة أخرى".

وتنامت نظرة الإندهاش في وجه القائد مثل ضوء شمعة حتى ارتعشت عيناه وقال

بعدها:

- "ألا تفصح فأفهم؟".

- "كتاب السحر، لم تسرق منه ورقة واحدة".

- "تقول سُرقت؟".

- "نعم، إن آخر جاسوسة سخرها الساحر الأصغر لخدمته قد سرقت إحدى الأوراق القوية، فيها تعويذة تمكن مستعملها من إعادة بعث أشباح الموتى، غير أنها وقعت بين أيدي الأمير آرون حينما أمسك جنوده بها فقتلوها وانتزعوها منها... ورغم أن آرون لم يجد داعيا لاستخدامها بسبب غباءه المفرط، فإنه سلمها إلى الأمير شهاب، أمير أرض الرياح مقابل بعض الطعام، وأي طعام يا ليث... بشر، بشر أحياء كي يتم التهامهم، على أن يتم ذلك على دفعات، حوالي خمسين رجلا وامرأة...".

- "ولكن هذا لا يعقل".

ورفع الأمير جابر رأسه نحو ليث بنظرة ساخطة:

- "رفاق خولة كانوا أيضا ضمن الصفقة".

وقال ليث وقد انفجر لهب الشمعة في وجهه.

- "اللعنة على كليهما".

فقال الأمير مغتما:

- "الآن لن تكون اللعنات ذات فائدة كبيرة".

- "لكن كيف وقع رفاقها في قبضة الأمير شهاب، أم كان حظهم سيئا بحيث كانت

أرض الرياح هي الموضع الذي دخلوا منه إلى عالمنا.!"

- "هذا بالضبط ما حدث، وقع خمستهم بين أيدي الحرس مباشرة بعدما استيقظوا

أمام البوابة الأولى...".

- "مساكين أولئك القوم، وقد صيرهم القدر إلى طعام لأولئك الوحوش البشرية... وظهر أن هذا القائد كان يعرف أشياء كثيرة كنا نجهلها".

سكت الأمير جابر يفكر للحظات وعاد يقول بعدها:

- "هناك أمر يتعلق بأرون، إنه يعد لشيء بالغ الأهمية، لم أتبينه جيدا فلم يكن الرجل يعلم الكثير عنه، ولسوء الحظ فلست أقدر على التواصل مع الساحر لأسأله، ولا الأميرة هند أيضا بمقدورها فعل هذا بعد أن فقدت زهرتها، وأعلم أن أكثرهم كان يعد لأمر مهم ظل يحتفظ به سرا، وأما شهاب فيقف في صف آرون، يا لهما من حقيرين... وأنا هنا لا أعلم ما الذي يحدث في الأرض الوسطى، أشعر بالعجز يا ليث، حينما لا أعرف ما يحدث حولي، أو ما الذي ينبغي علي فعله، فإنني أشعر بعجز بالغ وأكره نفسي، عقلي تشوش الآن كثيرا..."

- "أفلا تنظر في أمر خولة، وقد تخففان عن بعضكما؟".

والتفت الأمير جابر نحو الغابة بنظرة نعسة:

- "أخفف عنها ماذا، إن حزنها يفوق أي كلمة، فماذا أقول لها إن ذهبت وجلست بجوارها، دعها تبكي قليلا لوحدها..."

كان في صوته ألم وغصة، وقد أنهى كلامه بأن أغمض عينيه مطولا وأحنى رأسه لأسفل، وسكت ليث لفترة طويلة، حتى انتبه لأمر فجأة:

- "لحظة، ألم تقل خولة أنها كانت برفقة ستة أشخاص وليس خمسة؟".

- "ماذا؟".

ورفع ليث يده يحركها كأنما يبعر الأفاكار التي لم يكن في حاجة إليها، بينما تلمع عيناه ببريق بارع:

- "قالت ستة، وأما أنت فقلت أنهم كانوا خمسة..."

- "أجل، لم أنتبه... حتى أنّ الأمير أرون احتفظ بهم في قفص لوحدهم بعد استلامهم، وقد كان هذا المحارب هو المشرف عليهم طيلة فترة سجنهم ولذلك وجدت بعض صورهم في ذاكرته، ثم... وتنبه الأمير جابر أخير لما كان ليث يرغب في قوله، ولذلك تلعثم قليلا وأردف بعدها: "لم يكن بينهم رجل كبير السن!"

- "فإذن لم يكن والدها من ضمنهم!!"

هتف ليث فرحا، بينما راح الأمير جابر يلوم نفسه:

- "كيف لم أنتبه لهذا؟"

- "لو أنك تذهب الآن لتخبرها، فربما تستأنس بالخبر فيخف عنها بعض الذي أصابها، أو دعني أنا أذهب، إذا كنت لا ترغب في ذلك..."

كان ليث يلقي كلامه فرحا، وكان تعمّد أن يستأذن للذهاب للبحث عن خولة وإخبارها عن الأمر بنفسه لأنه فهم أن الأمير قد رفض التحدث إليها لا لأنه لم يكن سيقدر على أن يجد كلمات مناسبة يعزيها بها، بل لأنه صار ومن شدة اهتمامه بها، لا يقدر على الجلوس بقربها والإكتفاء بمراقبتها وهي تبكي، إنّ اهتماما مثل الذي صار الأمير جابريكنه لخولة كان أقوى حتى من أن يتحملة أمير بصفات الأمير جابر، انطلق القائد ليث يبحث عن خولة حتى سمع صوت بكائها يأتي من خلف جذع شجرة،

كانت تشهق شهقات مواصلة ولا تكاد تأخذ أنفاسها، وعندما وقف أمامها وهي على تلك الحال فإنه ظل لا يعرف في أول الأمر كيف يكلمها، للحظات ثم نطق قائلاً:

- "هلا توقفت عن البكاء يا أنسة؟ إنني سأخبرك أمراً".

قال القائد بصوت مبشّر واحتاج بعد ذلك إلى دقيقة أخرى حتى توقفت دموع خولة وصارت تنظر في عينيه مباشرة بينما تهزها شهقات متقطعة:

- "إن والدك لم يكن معهم".

وردت كأنما بغير وعي منها:

- "ماذا؟".

- "إن سيدي الأمير جابر رأى صورهم في ذاكرة ذلك القائد الذي مات قبل لحظة، ولم يكن بينهم من شاب شعر رأسه، أولم تقولي أنهم كانوا جميعاً رجالاً صغار السن يتعلمون تحت يديه؟".

ومررت خولة باطن يدها تحت عينها وقامت واقفة وراحت تغمغم بحروف مبتلة:

- "ما الذي تقوله يا ليث، من الذي لم يكن معهم؟".

- "والدك، والدك لم يتم أسره عند أرض الرماد يا ابنتي".

- "هل أنت متأكد؟".

- "أولم تسمعي ما قلته قبل لحظة".

- "لكن ماذا... ماذا لو كان محتجزاً في مكان آخر، ألا يمكن أن... ثم إن دموعها

انهمرت مجدداً وكأنها لا ترغب في تصديق الخبر وأنشأت تقول بشجن: "لكنهم ماتوا

جميعاً، طلاب والدي ماتوا كلهم، لماذا قاموا بقتلهم... لم يكونوا سيؤذون أي أحد، يا لهم من وحوش أولئك الناس، ليتني قتلت ذلك الرجل بنفسي، سأعود وأقتلهم جميعاً، يا إلهي... أين أنت يا أبي”.

كاد يغمى على خولة بسبب من ثورة الفزع التي طالتها، ولذلك أسرع ليث يلتقطها بذراعيه حتى أبقاها واقفة وحدثها بكلام حكيم هداً من روعها ثم طلب منها بما ملك من عطف القادة أن تعود معه نحو الفيلق حتى يمضي الجميع عائدين نحو أرض الغابة.

مثلما خرج المحاربون في الظلام عادوا في الظلام أيضاً، لم تكن مدينة أرض الغابة تبدو وكأنها في انتظارهم، فقد كان الناس بداخل بيوتهم، والقليل منهم فقط كانوا يبقون عند عتبات البيوت أو كانوا يتمشون في الأزقة على أضواء الفوانيس المعلقة، واللذين كانوا يطلون من النوافذ سريعاً ما كانوا يغلقونها فور اختفاء طقطقات الحوافر خلف الزوايا، مرت الخيول مطأطأة الرؤوس مثل أصحابها، كأنما بللتهم السماء بحزنها، كانت عينا خولة مسمرتان في موضع بين أذني فرسها طوال الرحلة، لم تقدر على أن تفكر في شيء آخر غير المصير الذي انتهى إليه طلاب والدها، وفكرت في كل الطرق الشنيعة التي يمكن أن يستعملها إنسان متحجر القلب

ليأخذ بها روح إنسان آخر، في النهاية وهي تدخل غرفتها بذلك الوجه المريض الذي عادت به، كان صدرها مثقلاً كأنما صب الحديد بداخله، هوت على سريرها وهي لا تزال ممسكة بالنظارة في يدها، بكت حتى ابتل الفراش وغلبها النعاس بعد فترة طويلة.

هذا وفي موضع آخر غير بعد عنها، ولأنه قد حز في نفس الأمير جابر أن يبقى غير مدرك للأمر التي باتت تحدث من حوله، ولما زاده قلقاً تأكده من أنها أمور خطيرة يعلم بها أعداءه من دونه، ناهيك عن أنهم قد يكونون هم المخططين لها، فإنه دخل غرفته وأغلق على نفسه وأخرج الزهرة الزجاجية وراح يحاول التواصل مع الساحر ويعيد ذلك مرارا وتكرارا، كان في كل مرة يبذل قصار جهده، وبعد مرور ساعة كاملة، كان قد تمكن من أن يرى في الظلام نورا بحجم دمعة، وحين كان يفتح عينيه بعد أن تفشل المحاولة، كان يشد يديه ويعض على أسنانه غضبا، ولكي يستعيد هدوءه وتوازن أفكاره قبل المحاولة التالية، كان يستحضر صورة خولة أمامه، كان يمسك يديها الشبحييتين ويستحضر وجهها في أجمل موضع رآها فيه يوما.

صباحا، وقف الأمير جابر رفقة القائد ليث يمشطان شعر حصانيهما، كانا قد ظلّا

صامتين لنصف ساعة، ونطق ليث يقول في مرحلة ما:

- "إلى أين تركتها تذهب؟"

- "من؟"

- "خولة، أتحدث عن الآنسة خولة..."

وتوقفت يد الأمير جابر في مكانها، بدا كأنه يريد سماع ذلك مرة أخرى، لكن ليث فهم الأمر من فوره، فهم أن الأمير لم يكن على علم بمغادرتها، وطاف الصمت مجددا حولهما وعاد كل لما كان يفعل، إلى حين نطق الأمير فجأة:

- "أين التقيتها؟"

- "عند مدخل السوق، ذهبت لأقضي بعض الحاجات فالتقيتها..."

- "وطلبت منك ألا تسألها إلى أين تذهب!!"

- "أجل..."

- "يا لها من متسرعة..."

- "ماذا تعني؟"

- "لابد وأنها تحترق شوقا لأن نخوض حربا مع الأمير أرون"

- "اعذر ثقل فهمي!"

وتوقف جابر عن تمشيطة رقبة حصانه مجددا:

- "إنها لا ترغب الآن في شيء أكثر من أن تقتحم أرض الرماد بنفسها وتبحث في

كل شبر فيها عن والدها".

دهش ليث لما يسمع، وبان ذلك سريعا في وجهه، حتى لم يجد ما يرد به لشدة

ارتباكها، وأظاف الأمير جابر قائلا:

- "طبيعي هذا" وهز رأسه بسرعة: "ففي النهاية لم نعرف أنها والدها قد فقد

حياته..."

- " ولم نعرف بأنه موجود في أرض الرماد أيضا".

- " أجل... "

- " ليتك تحدثت إليها بالأمس".

- " أفضل أن أرتب أفكارى أولا".

- " أظن أن الأمور بدأت تطل على منحدر عظيم يقود إلى نهاية مجهولة، أمل ألا نكون قد تأخرنا أكثر مما ينبغي... "

أنهى ليث حديثه صارخا، ذلك لما لاحظت عيناه القويتان فجأة أمرا أثار انتباهه، ورفع الأمير جابر بصره نحو السماء فكان الغراب في حالة بحيث بدا وكأنه أخذ في التفتت، وأظاف ليث معلقا:

- " الغربان تتفرق... "

لم يعلق الأمير جابر بعدها، إنما عاد يمشط شعر جابره بصمت مطبق، بينما يتعالى التوتربداخله.

اعتزال

انسلخ يومان آخران، وحين كان مساء اليوم الثالث وكانت الشمس توشك أن تخبو في مخبأها، راح كل من البرد والظلام ينسحبان كالغطاء فوق المدينة، في الناحية الشرقية وحيث يقع كوخ العجوز المداوية، كان هنالك دخان يصاعد من فتحة السقف عاليا، وريح طيبة تتسرب من الداخل، في لحظة قامت العجوز المداوية من سريرها فجمعت ظلفتي النافذة الخشبية الصغيرتين إلى بعضهما، ارتدت بعدها تتعكز نحو قدر الطعام فجلست بجوار الموقد وهي تسعل، نظرت إلى الجمرات فانعكست ألوانها في عينيها الدامعتين والشبه مغلقتين، كان صوت احتراق الحطب وانكسار الجمرات وتساقطها يبعث في نفس خولة راحة بديعة، كانت تسقط ذقنها فوق ذراعيها وتقرب قدميها من الموقد، ومنذ مجيئها كانت قد تحدثت مع العجوز لساعات طويلة وأخبرتها بكل الذي حصل، ولذلك فقد تحتم أن يكون بينهما سكون وصمت كهذا، كما أن العجوز آثرت أن تتركها لحالها كي تجتر أفكارها بما فيها من أسى وألم، عسى أن يجف منبع حزنها ويتبدد، في غمرة الهدوء، والعجوز تدفع بغصن تحت القدر، إذ بصوت خفيض يصدر على الباب فجأة.

أخذ صوت القرع انتباه خولة ظنّت أن يكون الطّارق هو الأمير جابر، وحينما سحبت العجوز المزلاج وفتحت الباب التي راح يصدر منها أزيز مثل خيط متعرج، ظهر القائد ليث يقف مثل الوحش اللطيف أمامها.

نقل القائد خوذته من فوق رأسه إلى تحت إبطه وقال يجب خولة لما سألته عن سبب مجيئه، قال هامد:

- "إنما أتيت لأتفقد حالك يا أنسة، أولست الآن واحدة من جنودي؟".

- "ألم يرسلك جابر؟".

- "لا، لا، لم يرسلني... غير أن...".

وأخذت العجوز خيط الكلام عن خولة، إذ كانت تلقي بسمعتها وبصرها:

- "غير أن ماذا؟ أخرج تلك الفولة من فمك...".

قالت وراحت ترمقه بنظرات متوعدة، وأصاب القائد من نظرتها فنحن مرتين وراح

ببربر:

- "الواقع أنه لم يأتي على ذكرك... غير أن تصرفاته توحى بأنه متوتر بعض الشيء،

ولم يكن من السهل عليّ أن ألاحظ هذا عليه أبدا، إذ كان يبرع في كتم أفكاره مثلما

تعرفان جيدا، ما أعنيه يا أنسة خولة هو أنه وإن لم يطلب مني... أي أن أتبه بأخبارك،

فإنني فهمت حاجته لذلك... كوني واثقة مما أقوله، أتيت لأخبرك أيضا أنه لم ما كان

سيصدر جهدا في سبيل تحرير والدك إن نحن توصلنا إلى مكانه بشكل مؤكد".

ونظرت إليه خولة بطريقة مبركة.

- "لا تنظري إلي هكذا يا أنسة إننا جميعا واقعون تحت هذا وسيدي يعتقد بأن العثور

على مكانك هو أمر مؤقت فقط ولا مفر منه أبدا...".

مضت دقائق وخولة لا تقول شيئا، دقائق انشغلت فيها العجوز بتحريك حسائها وإيقاد شمعة أخرى، فيما استغلها ليث في عرض يديه أمام النار ليدفأهما، وطال صمتهم حتى نطقت خولة أخيرا تقول بنبرة مرتخية، بينما لا تزال النار تضطرم في حدقتي عينيها:

- "أنا بخير يا سيد ليث، كما ترى... ليس بي شيء، احتجت فقط لبعض الراحة، ربما أعود في وقت لاحق..."

- "أعلم يا آنسة، أعلم... لكن الأمير أخبرني أنه أوشك أن يتصل بالساحر في مرات عدة..."

ورفعت خولة رأسها من فوق ذراعيها عند هذا:

- "حقا!"

- "ما فهمته من حديثه هو أن أمرا ما ينقصه، وإلا كان نجح في ذلك... قلقه زاد كثيرا منذ عودتنا من أرض الرماد، يقول أن حادثة ما ستقع خلال أيام فقط، وإذا فشل في التحدث مع الساحر ومعرفة ما يجري فإن عواقب هذا الجهل سوف تكون وخيمة، وخيمة جدا، على أرض الشجر... حسنا، سأذهب الآن، وسأعلمه أنك بأحسن حال، لكن اعلمي أنه بحاجة إليك... كوني بخير يا آنسة."

غادر ليث يعود أدراجه تحت جناح الظلام بعدما تمكن من رفض دعوة العجوز للبقاء وتناول العشاء بطريقة مهذبة، تاركا وراءه غيمة من الحيرة تطوف تحت سقف الكوخ فوق رأسيهما، ظلت خولة تحديق في النار دون أن تحرك ساكنا لفترة طويلة،

بينما زاد شرورها أكثر من أي وقت مضى من ذلك اليوم، حتى حينما وضعت العجوز الطعام ليبرد، وسألتها إن كانت ستجلس هناك الليل بطوله فإنها لم تنتبه لحديثها إلا بعد أن تكرر مرتين أو ثلاثة، وقالت تجيلها:

- "ما رأيك؟"

وردت العجوز وكانت توجه وجهها صوب رف خشبي تأخذ منه صحنا خزفيا بيدها:

- "مخاوف ذلك الفتى حقيقية أكثر من هذا الصحن حتى".

ثم مشت بالصحن نحو القدر وجعلت تفرغ منه فيه بينما عينا خولة تتبعانها، كذلك أردفت:

- "علينا أن نخاف نحن أيضا".

- "نخاف؟"

ناولتها الصحن بيدها

- "كلي، سيبرد. ..."

أخذت خولة الصحن بين يديها وقالت بصوت ناعم:

- "سأذهب غدا. ..."

- "بالطبع ستفعلين يا ابنتي. ..."

هذا وجلستا تحتسيان حسائهما بصمت، بينما تنطفئ الجمرات وتغلق أعينها تواليا فوق بعضها، إلى أن طرقت أحدهم باب الكوخ مرة أخرى، واستأذنت خولة أن تقوم لتفتح الباب هذه المرة، وحينما وقفت وكان هنالك عينان غائرتان ذابلتان تنظران إليها من

فوق جسد هزيل محمول على ركبتين مثنيتان إلى الأمام فإن المرأة من خلفها وكانت تطل برأسها مثل سلحفاة تطارد طرف جزرة، فإنها قالت بما يبين اشمئزازها:

- "بئس الطارق... بئس المخلوق الذي أتى بابي" وقامت بعد ذلك ومشت ترتكز على عصاها حتى وقفت بجانب خولة: "تُرى أي ريح سيئة حملتك إلى هنا؟".

ونظر العجوز بين ساقيه نظرة بطيئة ثم عاد بعينيه المجدعتين نحو زوجته، فكان أن أردفت وهي ترفع عصاها نحو رأسه:

- "ماذا، ألم تضع حجرا في رأسك حتى هذا اليوم.!"

وبصعوبة كتمت خولة ضحكتها، ذلك بعدما كان يتلبسها غم عظيم قبل لحظة، وإن راحت تدفع الشيخ وتجزئ له الدخول فلأنها وجدت في ذلك مهربا، ودلف الرجل بخطى واسعة حتى وقف وسط الغرفة، وتيبس ينظر واقفا لما تلقفت عيناه قدر الحساء وكان فيه شيء قد تبقى، حمله لما بدى أنه دقيقة كاملة ثم ابتلع ريقه ونظر إلى زوجته التي كانت تقلب الجمرات بطرف العصى مبدية عدم اكتراثها لوجوده.

- "الجو بارد..."

- "إننا لم نكن نجهل هذا أبداً."

ردت العجوز بتهكم

التفت العجوز بعد ذلك نحو خولة وقال مستنكرا شحوب وجهها:

- "كنت تبكين أليس كذلك، هل أحزنك ذلك الولد؟".

نظر بعد ذلك ناحية اليمين حيث كان سرير زوجته ثم ذهب وجلس عليه مغتما، فيما بقيت خولة واقفة وسط الغرفة تراقب ما يحدث، ثم إنَّ العجوز أرخت أطرافه على السرير لدقيقتين ثم راح يقول بعد أن مضغ شفثيه قليلا:

- "إنني بخير، إن كنتما تتسائلان عن هذا..." ثم عدل جلسته فرفع ظهره عن الجدار البارد: "أوه، انتظري يا ابنتي، إنك ولا بد تتسائلين كيف علمت بأنك هنا، ولماذا أتيت بحثا عنك..."

- "وأنت بحثا عني؟"

- "وعن أي شيء سأبحث هنا إذن".

ونحنحت زوجته باستهتار من مكانها، ودون أن تلتفت، فسكت العجوز ظنا منه أنها سترد بشيء في مقابل ذلك، حتى حين رآها لم تأتي بشيء يذكر عادبوجهه نحو خولة يقول بعدها:

- "هيه، قلت أنك ولا بد تتسائلين عن كيف عرفت مكانك، أو عن السبب الذي يجعلني أتقفى أثرك، ولأهـب أنك فعلت... فإذن سأجيب عن هذا السؤال بكلمة واحدة، إذ كنت لا تحبين أن أطيل الحديث هنا، في هذا المأوى الصغير الدافئ..."
قالها بينما يقلب عينه في السقف والزوايا: "الأمير جابر، لا بد أنك عرفت هذا قبل أن أخبرك، أليس كذلك؟".

وردت خولة:

- "لا، لم أعرف".

- "آه، حسنا إذن، فليكن... لكنه ليس شيئا آخر... كنت قد أكلت لتوي، وخرجت لأتمشى حتى يذوب الطعام في بطني بسرعة، ولكنني... سمعت صوتا يأتي ناحية المقبرة الصغيرة، تسللت وكأني لا أخاف أن أجد دبا يسلخ الأشجار بأظافره لأنه لم يجد ما يأكله... لكنني وجدت ذلك الفتى يسلخ الأشجار بقبضته، كان يضرب جذع الشجرة حتى كاد يفصل أعلاها عن أسفلها، لم يكن يبدو لي أنه سيتوقف عن ضربها، نزلت عنده واستمررت بمراقبته، أتريين صوت الدببة؟ كان يققع مثلها، وتخرج أنفاسه باردة، وحينما انتهى، كان الدم يقطر من أصابعه، استدار نحوي ونظر إليّ وكأنه أشعل فتيل العالم عن طريق الخطأ... صعدا المنحدر بعدها وجلسنا على تلك الصخرة التي تعرفينها، نظرت واذ به كان يبكي..."

في هذه اللحظة، كانت المداوية قد توقفت عن خلط الجمرات في محاولة منها لإعادة إحيائها، وكان قد أصاب خولة خبط شديد في قلبها، فيما ارتخت نظرتها وشدت قبضتها بغير شعور منها، وأما العجوز وكان يفرقع أصابع يديه فواصل يتم حديثه بعد أن توقف للحظة:

- "ذلك الفتى خائف من شيء ما، شيء أثار رعبه... ولعلك فهمت الأمر الآن يا ابنتي، أتيت لأخبرك أنه سيكون أمرا حسنا أن تكوني الآن بجانبه..."

وقالت خولة بصوت مرتعش:

- "ومما هو خائف؟"

- "لا أعرف، لا أعرف تحديدا، إنه شيء أراد إخفاءه... أسمع الغريبان؟"

- "ماذا؟".

- "انظري من النافذة، سترينها..."

مشت خولة نحو النافذة فأبعدت مصراعيها وأطلت، فكانت الغربان تغطي المشهد في الأعلى، تحلق بنعومة كما الأوراق اليابسة حينما تدور فوق سطح ماء بحيرة، غير أنه كانت تصدر منها أصوات مزعجة، حتى أعلى وأكثر حدة من أي وقت مضى:

- "تبدو متابعدة عن بعضها أكثر من المرة السابقة!!"

ونطقت العجوز وهي ترفع رأسها عن الموقد بعدها:

- "قد حان الوقت إذن؟"

ونظر الإثنان، فأردفت:

- "ذلك الفتى لا يغضب من فراغ، أليس كذلك؟"

وأصدر العجوز صوتا يرد به عليها:

- "صه... قللي خيرا يا امرأة".

ثم إنه قام عن مقعده وراح يخطو نحو المخرج محتجا، بمثل تلك الخطوات التي قد يمشي بها رجل حينما يكون قد تجاوز السبعين من عمره فيزعجه أن تعرف زوجته شيئا هو لا يعرفه.

بعد وقت قصير كان العجوز قد اختفى بعيدا في الظلمة، وجاءت المداوية خلف خولة وقالت لها بصوت ينم عن خوف كامن.

- " اذهبي الآن يا ابنتي، لا تبقي واقفة هكذا".

- " أهذا ما تقولينه؟".

- " نعم".

واستدارت خولة نحو الباب المفتوح وهي لا تزال تجمع يديها على صدرها، وعادت المرأة لتقول بعدها وهي تمد لها لحافا خفيفا ليدفئها في الخارج:

- " أسرعي الآن كي لا تتأخري، أسرعي وساعديه على تحقيق ذلك التواصل، فعالمنا الآن بأكمله بحاجة كما".

خفت أصوات الغريبان في السماء بعد وقت قصير من مغادرة خولة، كانت تبدوا وكأنها تعبت من النعيق أخيرا، غير أنها بقيت تدور في دوامة عظيمة، مئات من الغريبان تفرد أجنحتها وتطوف حول بعضها منذ ساعة، بدأ الناس يألفون الأمر ولذلك لم يدم وقوفهم على عتبات الأبواب غير بضع دقائق ثم عادوا لبيوتهم بوجوه متدمرة، في السهل الصغير قرب مزرعة العجوز الذي جاء بالخبر إلى خولة، كان الأمير جابر لا يزال يجلس على العشب يسقط رأسه بين ركبتيه مغتما، كانت الريح تزر من الغابة القريبة، وبسمعه القوي استطاع التقاط هفهفات أقدام راحت تأتي خلفه، جاءت خولة تمشي بخطوات متلكئة، لكن حينما كان قد بقي بينهما ما يربو عن عشرين خطوة، أخذت نفسا عميقا ومشت نحوه بسرعة طبيعية:

رفع الأمير جابر رأسه الثقيل عن الأرض وقال وعيناه تنظران صوب الغابة:

- "لماذا أتيت؟".

لم تفه خولة بشيء لتجيبه، كانت تضع يديها خلف ظهرها، وكان النسيم يلاعب خصلات شعرها وأحست ببرد لطيف يمر خلف أذنيها، مرت دقائق وهما يحدقان نحو الغابة بصمت مطبق:

- "اجلسي".

- "كنت... كنت..." قالت خولة وهي تخرج المكعب الزجاجي من خلف ظهرها: "كنت قد مررت بالقصر قبل مجيئي إلى هنا... دخلت غرفتك و... لم تكن الأشياء في مكانها!!".

- "ثم؟".

- "ظننت أن...".

- "ظننت أنني استطعت أخذ غفوة بطريقة ما!!".

هكذا وبشكل غير متوقع، دار الحديث نحو راية أخرى، راية الاعتذار الذي كان لا يزال حتى اللحظة، معلقا لم يتم اسقاطه، وتلاشت من رأسها صور الفوضى التي وجدتتها في غرفته، فيما يشبه أن نوبات غضبه قد تخطت مقدرته على التحكم في مشاعره، تماما مثلما حكى القائد ليث، إذن وقد كان هذا، فإنها رفعت المكعب نحوه بكلمات يديها وقالت في حياء بالغ:

- "فلتجرب ثانية".

وأدار الأمير رأسه ليلقي نظرة، للحظات قليلة، ثم أخذ المكعب الزجاجي في يده وجعل يتأمله.

- "لا ينفع، مهما فعلت، لا ينفع..."

- "فلتجرب مرة أخرى..."

بصوت لحوح، وعينان تلمعان بالرجاء، وقلب منقبض، قالت خولة وهي تجلس أمامه مباشرة، وهكذا، نظر في عينيها مطولاً، وحينما عاد يقبل المكعب في يده أتى الغراب ذو الجبين الأبيض يفرد جناحيه فنزل على كتفه وكأنما قد ظهر من العدم فجأة، ولمحه الأمير بطرف عينه دون أن يعيره كبير اهتمام، غير أن الغراب راح يرغب فجأة بصوت سريع متقطع.

- "خولة... خولة... خولة..."

وحينئذ سار في نفس خولة من الخجل ما لو صُب على شجرة في الربيع لانكملت أغصانها الخضراء من شدة ما أصابها، ارتعشت عيناها فهربت بهما إلى حجرها، بينما تحاول بفكرها المضطرب أن تعالج فكرة أن الطائر إنما قد تعلم وحفظ اسمها من كثرة ما تردد على مسمعه، وإن كان هنالك من يفعل هذا، فإنه لن يكون سوى الأمير جابر نفسه، يبقى أنه كان من السهل على الأمير أن يخفي ارتبائه بسهولة بالغة خلف قناعه، أخذاً في التصرف وكأن شيئاً لم يكن، لكن فاجأه أن خولة نطقت تسألته:

- "هل أنت من علمه هذا؟"

وأوماً الأمير نافيا علاقته بالأمر تماماً، وقال ينطق بتلكما الحرفان كما لو كان يكذب على نفسه:

- "لا..."

ثم إن الغراب رفع منقاره من ريشه وغرد مرة أخرى:

- "خولة... عيناه.. خولة... خولة... جميلة... جميلة... خولة".

ولم يجد الأمير بعد هذا بدا من أن يتخلص منه بسرعة، ولذلك أدنى يده فقفز الغراب عليها ثم رفعه قليلاً ففرد الطائر جناحيه ووثب عالياً وذاب في الظلام بينما ينعق نعقات متقطعة، ونطقت خولة قائلة وكأنما تعود من سهوها:

- "لم يكن عليك أن تطرده هكذا".

وقطع حديثها أن الأمير جابر، ودون أن يبين نيته بشكل مسبق، أمسك يديها برفق

وراح يحرق في عينيها قائلاً:

- "ليكن... سأجرب مرة أخيرة".

وردت خولة بينما تتسارع نبضات قلبها:

- "حسناً".

أغمض الأمير عينيه وراح في تركيز شديد فيما تتأمله خولة بصمت مطبق، بعد مرور دقيقتين وهما يجلسان القرفصاء في مقابل بعضهما، شعرت خولة بأن يدي الأمير قد تبيستا فجأة، حاولت أن تحرر يدها من يده فلم تقدر، كانت يدا الأمير تطبقان عليهما مثل كمامة حديدية، وتسرب خوف إلى صدرها.

- " جابر. "!

نادته بصوت مرتعش.

- " جابر. "!

وفتح الأمير عينيه فجأة، فاقشعر جسد خولة وكادت تصرخ لولا أن تحررت يداها فجذبتهما من يديه بسرعة، غير أنها لم تجرأ على الوقوف من مكانها، إنما دقت النظر في عينيه ولم تكونا تبدوان كعينيه السابقتين أبدا، كان بؤبؤي عينيه الرماديان قد اختفيا وذابا في بياض عينيه بالكامل، نظرت إلى المكعب الزجاجي على الأرض بينهما فكان هنالك لهب خافت يحرق الوردة بداخله، أعجبها كثيرا أن ترى وردة خضراء تحترق دون أن تتأذى، ولذلك عادت تتمالك نفسها بعد وقت قصير جدا، وظلت جالسة تراقب الأمر بهدوء لربع ساعة كاملة، حكّت كتفيها للدفع أحيانا وتلفتت تنظر حولها لما كانت تصيبها وساوس أو تسمع أصواتا في أحيان أخرى، لكن عندما التفتت هذه المرة تعود بوجهها، فلأنها سمعت الأمير ينادي باسمها، كان لون عينيه قد عاد لمكانه، وذهب التحجر عن جسده، وقال وهو يرفع المكعب عن الأرض:

- " تبا لهم جميعا... ". ثم إنه قام واقفا وأردف: " هيا بنا، لنعد إلى القصر. "...

وقامت خولة واقفة بدورها:

- " ما الذي حدث؟ ".

وظل الأمير لا يبعد عينيه عن المكعب حتى اللحظة، غير أن اللهب بداخله كان يخبو وينطفئ ببطء لحظة بعد لحظة:

- " غدا هو موعد الاجتماع، من حسن الحظ أنني... " ونظر إليها بعدها: " شكرا، شكرا جزيلًا على حضورك. "...

- " إنني لا أفهم، ما الذي يحدث؟".

- " سوف أخبرك في الطريق، هيا بنا. "...

ومشى الإثنان يعودان نحو القصر وقد زال التوتر الذي كان بينهما كأنما لم يكن، في غير مبعدة، كان العجوز لا يزال يراقبهما بينما يقف عند باب كوخه، لكن حينما غابا بين الأشجار فإنه تثائب قليلا ونظر بطرف عينه إلى الغربان الهائجة في السماء، تأمل حقله الصغير شاردا الفكر لبعض الوقت ثم عاد يرجع إلى الداخل ويدها خلف ظهره.

مع ظهور شمس الصباح التالي وعلى جابر أسود قوي وفرس بيضاء جميلة كان الأمير جابر وخولة يتقدمان فرقة من الفرسان يقودانهم عبر درب غابي جهة الغرب حيث تقع الأرض الوسطى، وحيث يقبع الجبل العظيم بقمته السوداء التي تعتلها غيوم تمتد مثل المظلة الكبيرة.

لم تكفّ حوافر الخيول عن الفرقة منذ أن خرجوا من أرض الشجر، ذلك أن الدرب كان صلبا رغم أنهم كانوا يتوغلون وسط غابات ما تلبث أن تنقطع واحدة حتى تتصل بها أخرى، لم يكن القائد ليث هذه المرة حاضرا بينهم، لأن الأمير جابر كان قد استدعاه في الليلة الماضية بعد عودته إلى القصر مباشرة وأمره بأن يتوجه إلى أرض الماء

بسرعة، وكان قد أرسل معه رسالة يخبر فيها الأميرة هند أنه قد تمكن أخيرا من أن يتواصل من الساحر، وأنه أخبره بأن اجتماعا خطيرا على وشك أن يقام في الأرض الوسطى، وأن عليها الحضور أيضا، طبعا لم تكن الرسالة بهذه البساطة، ولا كتبت على رأس القائد ليث كما حدث في المرة السابقة، لكن حينما وقفت الأميرة هند وسط البلاط الزجاجي الأزرق ووضعت يدها على جبين القائد ليث لتقرأ الرسالة، فقد راحت تقرأها بقلب تتسارع نبضاته:

“ أعلمك أيتها الأميرة هند أن الأمر خطير جدا، يتعلق الأمر هذه المرة بالساحر الأصغر نفسه، فقد اشتد به المرض، ولم يعد يقوى على التحكم في قوته كما كان في السابق، وأغلب الظن أن ساعاته باتت محدودة، وهو الأمر الذي سعت أرض الرماد لإخفائه من خلال سرقتها زهرة أرضك، هذا مع علمهم بأنني أنا أيضا لم أكن أقدر على التواصل مع الساحر، ينبغي أن تتواجدي هناك قبل منتصف نهار الغد”.

هكذا أعاد الأمير جابر تذكّر الرسالة بينا ينطلق شاقه طريقه بين الظلال الوارفة، قبل أن يخرج مباشرة إلى طريق مترب واسع وسط سهل فسيح يفضي إلى قاعدة الجبل الأعظم، وبين الغابات التي تركوها خلفهم والأشجار الكثيفة التي كانت تتسلق قاعدة الجبل، خفت الخيول سرعتها حتى توقفت تماما عن الحركة، كانت الريح تهب باردة ومنعشة، ومع تجمع الغيوم في الأعلى بدأت السماء تتغير ويسودّ لونها رغم الوقت المبكر، حلقت الطيور من فوقهم وهي تزعق، وحينما صهل جابر الأمير وهو يقف على قائمته الخلفيتين فلأن رعدا عظيما دوى فوق الجبل فجأة، كان دويّه قويا حتى لكأن

كبد السماء كان سيُشق بعد لحظة، وقالت خولة بعدما أدهشها منظر البرق وهو ينزل إلى قمة الجبل:

- "ما الذي يحدث؟"

ورد الأمير وهو يشد لجام جابره بقوة:

- "لدي تخمينات سيئة، وتخميناتي عادة لا تكون سيئة."

عادت خولة بعينيها نحو الجبل، وتسلسل خوف بارد إلى صدرها، وحينما انتهت كان الأمير قد ابتعد بجابره، وانطلقت خلفه نحو معترك من الأشجار حيثما كان يبدوا وكأنه فتحة مناسبة لتعبر منها الخيول خلف بعضها.

لم يكن هنالك ما يؤخر وصولهم غير ضيق الطريق ووعورتها، ولم يكونوا على عجلة من أمرهم أيضا، فالحدث وكما علم الأمير جابر لم يكن ليقام قبل حلول منتصف النهار تماما، ولذلك لم يكن الفرسان يحثون خيولهم على الركض كما لو كانوا في معركة ووقع على عاتقهم أن يتلقوا الصدمة الأولى، إنما تركوها تمشي براحة بينا تشخر وتتطاير الأنفاس من مناخيرها بيضاء دافئة، وبيننا كل قد أخذ منه القلق مأخذه، نطقت خولة مرة أخرى:

- "هل سيأتي من يمثل أرض الرمال أيضا؟"

ورد الأمير جابر يجيبها:

- "لا..."

فقالت:

- "لماذا؟".

فقال الأمير جابر:

- "لأنه لا يوجد".

- "ماذا تعني، ألم يعينوا أميراً جديداً عليهم؟".

- "ليس بعد، يبدو أن من يفترض به أن يصير الأمير الجديد لأرض الرمال لديه ما يشغل فكره..."

ونظرت إليه بطرف عينا حينما لم تفهم مقصده، وعاد الأمير يكمل حديثه:

- "لم يتمكن من الوصول إلى النوم العميق بعد، لكنه سيفعل، هي مسألة وقت فقط..."

مشت الخيول بين العوائق حتى خرجت بأصاحبها إلى فسحة خضراء صغيرة تحت الشمس وراحت تسير على درب معشوشب ضيق يرتفع بجانبه جدار حجري مهيب قرابة العشرين متراً، كان الجدار مغطى بنباتات العليق المتسلقة ذات الاشواك اللاذعة، بينا تنزل من أعلاه حتى منتصفه جبال قديمة معلقة عليها توابيت خشبية في أسفلها، كان منظرها باعثاً على الرهبة، ولذلك دهش الفرسان بينا يتأملون المشهد، كانت قد صنعت باهتمام بالغ بحيث زينت بنقوش وتفصيل جميلة بينا غطيت أطرافها بالفضة فلم تكف أشعة الشمس عن اللمعان فيها، وكون الأمير جابر كان وحده من زار المكان من بين الجميع فإنه وحده من لم يلتفت ليلقي نظرة، بعد بضعة أمتار ظهرت فجوة مظلمة أسفل الجدار أمامهم، كانت تبدو كمدخل يفضي إلى كهف تحت

الأرض، وشعر الأمير جابر بأن خولة توشك أن تسأله عن الأمر ولذلك سارع يجيبها من تلقاء نفسه، راح يقول بصوت فيه حصافة، كالذي لا يود قول أكثر مما سيقوله:

- "إنها مقبرة الأمراء، هنا رقد جميع الأمراء السابقين..."

وكان الأمير قالها بحيث يمكن للذين في الخلف أن يسمعوها أيضا، وأما خولة وإذ لم يذهب بها الحال لأن تسأله عن سبب دفن والديه قرب مزرعة العجوز المزارع، بعيدا عن المقبرة المخصصة لدفن الأمراء كما قد قال قبل لحظة، فلأنها أدركت أنه لم يكن الوقت المناسب للإحياء مثل هذه التفاصيل المؤلمة، وأنَّ إجابة سؤالها الذي أبقتة لنفسها لا بد يأتي في وقته، تماما كما جاءت كل الأجوبة الأخرى، غير أنها قالت وهم يتجاوزون المدخل المظلم:

- "إلى أين يقود هذا المدخل؟"

ورد الأمير يقول بمثل تلك النبذة الأولى:

- "هذا هو مدخل الكهف حيث يُنصَّب الأمراء الجدد، وحيث يحصلون على قواهم..."

ثم إنه رفع ذراعه وأشار بأصبعه نحو أحد التوابيت المعلقة وكان الأخير من بينها وأردف: "هذا يخصنا، جدي يرقد بداخله..."

هكذا بدا الأمير بالنسبة إلى الفرسان لطيفا هذا الصباح على غير العادة، وهو يخبر رجاله بأشياء لم يعتادوا على سماعها، أو يتوقعوا يوما أن يسمعوها منه شخصيا، بعد أن كانت أسرارها وحكرا على الأمراء فقط، لكن كان واضحا أن هنالك شيئا فيه قد

تغير، فإذن وهم يركلون بطون الخيول برفق حتى تتقدم، كانوا واثقين جميعا من أن خولة هي السبب.

بعد نصف ساعة من السير صعودا وصل الأمير بجنوده إلى رقعة بطحاء في شكل دائرة واسعة، تحفها الأشجار من كل جانب، كانت رقعة صغيرة في منتصف الجبل بحيث تبدو وكأن الجبل يحتفظها بصدرة الأخضر وذراعيه المتصلين، ويمر في وسطها نهر مائي صغير يفصلها إلى نصفين اثنين، غير أنه وبغية الوصول إلى الجانب الآخر كان قد بني جسر صغير من أخشاب تظهر قديمة ومتآكلة، كان الجميع - حتى أولئك الذين كانوا قد سبقوهم إلى هنا - ينظرون إلى صرح كبير أسطواني الشكل يقف على الجهة الأخرى من النهر على ارتفاع أربعين مترا، آلاف من القطع الصخرية القديمة المغلفة بالطحالب والأتربة كانت تشكل هذا البناء الكبيرة الذي تتخلله صفوف من النوافذ المتراسة المملوءة بالظلمة جنب بعضها في شكل طوابق دائرية مزخرفة ترتفع فوق بعضها حتى القمة، الآن التفت الذين سبقوا في الوصول نحو الأمير جابر والذين معه وكانت نظراتهم تفيض نقما، ناطقة بما يشبه أنه غير مرحب بهم.

في اليمين كان يقف عشرة محاربين بأشكال متشابهة، بجلود الحيوانات التي تغطي الأكتاف والأذرع العارية والوجوه المسودة بالرماد والفؤوس المعدة في الأيدي في ما يشبه أنهم على استعداد دائم لإفترار شجار في أي لحظة، وهو ما كان يميز جماعة أرض الرماد عن أي جماعة أخرى، كذلك وقفوا يكشرون عن أنيابهم بنظرات متوعدة، كانت بينهم فتاة ورجل هزيل الهيئة، كان الرجل معقوف الظهر يقف كأنما

يوشك أن يخر في أي لحظة، وقف ممسكا بعصاه السوداء الملتوية، ذات الرأس المخيف، كان يغطي جسده الضعيف فرو رمادي اللون، بينما يتدلى من عنقه طوق طويل من أنياب بيضاء مجلجلة، وكان يربط حول معصميه وساقيه النحيفتان العاريتان عقودا مصنوعة من أنياب صغيرة الحجم وقطع خشبية، وتبرز من أصابع يديه وقدميه أظافر سوداء طويلة، كان مظهر مخيفا وباعثا على التقزز في آن واحد، ونطق رجل من أتباع الأمير جابر يقول وفي نبرته استهزاء واضح:

- "هل هذا هو أمير أرض الرماد الذي قيل أنه بارع في القتال مثل عقرب؟ هه..."

ورمقه الأمير جابر بنظرة غير ذات برود واضح، ودون أن يعلق على كلامه، عاد بوجهه نحو ذلك الرجل الذي كان يبدو وكأنه قد تجاوز المائتي سنة من عمره. في الميسرة كان هنالك جماعة أخرى، وبنفس العدد، غير أنهم كانوا في مظهر يختلف تماما عن جماعة الميمنة، فقد كانت ثيابهم نظيفة وواسعة، وذات أكمام فضفاضة تنزل أطرافها للأسفل، وتميل ألوانها إلى اللون البني ويرتدون أحذية ذات أعناق طويلة، كانوا يعلقون سيوفا على ظهورهم، وكان فيهم رجل عليه وقار وهيبة، تميز عن غيره بحاجبيه الأبيضان ولحيته الطويلة، غير أنه وبدل السيف كان يعلق نشابا ميكانيكيا على ظهره، وفهمت خولة سريعا أنه إنما هو أمير الرياح نفسه، وتذكرت كلام الأمير جابر حينما أخبرها مرة أنه قد يحدث وأن تضطرها الأيام لمواجهة، وسرت لذلك قشعريرة في بدنها، وزاد من حدتها أنه وفجأة، هبت من العدم

ريح تحمل صوتا يشبه فحيح الموتى، كان صوتا قويا ومسموعا بحيث أخذ بأبصار الجميع نحو قمة الصرح التي كانت تقف أمامهم شاهقة. في صدور كل المحاربين من الأراضى الثلاثة، كان هنالك شغف عظيم ينمو بجانب الحيرة والخوف من المجهول الذي كان في انتظارهم، ذلك أنه لم يسبق وأن زار غيرهم - من دون الأمراء - هذا المكان على امتداد مئات السنين التي مرت منذ نشأة هذا العالم لكن ولسبب غير واضح كان الساحر الأصغر قد طلب من الأمراء اللذين استطاعوا التواصل معه أن يحضروا معهم رفقة.

الآن وفي موضع غير بعد عن هذا المشهد، أي من خلف الصرح ومن خلف خط الأشجار الذي يحد البقعة من الجهة المقابلة، وحيث كانت تقف تلك المسلات الستة التي ذكرت في أول القصة، فإن ستة خيوط سوداء من الدخان راحت تتصاعد من فوق كل واحدة منها وترتفع لأعلى حتى فاقت الصرح طولا وصارت مرئية من مسافة بعيدة، هذا إضافة إلى أنه كان يطوف أمام كل مسلة من تلك المسلات ساحر شائن الخلقة دميم المظهر ملحف بعباءة سوداء مخيفة، غيرة مسلة واحدة، بحيث أن كل واحد منهم يمثل أرضا من الأراضى الخمسة.

الأمراء الثلاثة وحدهم من فهموا أمر خيوط الدخان التي ظهرت في الغابة الخلفية، أما الجنود فكانوا لا يدرون من الأمر شيئا، وكانوا كلما ظهرت خبية أخرى من خبايا هذا الجبل إلا واكتفوا بالإندهاش منها، هذا وبيننا العيون في ترقب، إذ

بأصوات خيول تأتي هائجة من خلفهم راحت تندفع فجأة، التفت الجميع وما هي إلا لحظات وظهر القائد ليث على صهوة جابره النبي تتبعه من خلفه الأميرة الخفية هند وفتياتها المحاربات بكامل أسلحتهن وزينتهن، وتوقفن بخيولهن اللاهثة من كثرة الركض بجانب جنود أرض الشجر بينما تقدم القائد ليث والأميرة هند نحو الأمير جابر، وقالت الأميرة هند وكان على جسدها الخفي عباءة من حرير أزرق مطرز بالذهب، كانت تضع على يديها زوجا من القفازات ذات الأعناق الطويلة وقالت بينما تشد خيط اللجام نحوها:

- "هل تأخرنا؟".

ورد الأمير جابر:

- "لم تتأخري...".

وقال ليث:

- "سيدي، خيوط الدخان تلك!! هل هنالك حريق في الغابة؟".

وقال الأمير يجيبه:

- "لا يا ليث، ذلك مكان يجتمع فيه السحرة الوسطاء اللذين يمثلون الأراضي الخمسة...".

في لحظة شرود، والكل يتأملون خيوط الدخان المتصاعدة خلف الأشجار على الجهة المقابلة، إذ بدخان أسود يُخلق من العدم راح يظهر أمامهم فجأة ويتشكل، حتى صار في هيئة عباءة سوداء بالية.

كان هذا هو الساحر الأصغر حينما ظهر يطوف في الهواء يخفي ذراعيه تحت كمين واسعين بينا يحمل صولجانا بيده الخفية وتتدلى من تحت قلنسوته خصلات شعر طويلة رمادية اللون مشهرة طول عمره، وقال الأمير جابر حينئذ بصوت خافت: - "ها هو قد ظهر..."

ولم تمضي غير لحظة وانفجر من وجه الساحر المخفي تحت القلنسوة المتدللية صوت مثل الرعد الأجوف، صوت سحيق في نبرته ما ينم عن خور ومرض. قال بحشجة كثيفة:

- "ليتقدم الأمراء إلى الحلقة..."

قال وراح جسده بعد ذلك يتلاشى كورقة تحترق حتى لم يعد لها أثر، وما كن من الأمير جابر والأميرة هند بعدها إلا أن ترجلا عن حصانيهما وراحا يمشيان خلف الأميرين آرون وشهاب نحو الجسر الخشبيالذي يقطع النهر فعبروه تباعا ثم التفوا حول الصرح وصعدوا بضعة أدراج حجرية بين الأشجار حتى انتهوا إلى حلقة دائرية تقف المسلات عند أطرافها.

كانت خولة قد بقيت تنظر نحو جماعة أرض الرماد لا تبارحهم بناظريها، وعندما سألها القائد ليث عن الأمر فإنها أجابته قائلة:

- "تلك الفتاة، كأنني أعرفها!"

وقال ليث:

- "أرى أنها تنظر نحوك أيضا!"

- "أجل..."

وقف الأمراء جنب بعضهم أمام الحلقة، وظهر الساحر الأصغر يتوسط المشهد بينما يحيط به السحرة الستة أمام المسلات كل يطوف في الهواء بقلنسوة منكسا رأسه، وعاد صوت الساحر يخترق الأجواء بمثل تلك النبوة المريضة:

- "أتم يا معشر الأمراء... إنكم لم تستطيعوا إنقاذي... وإن كان لي شيء من اليقين أن الذي سعى لموتي يقف الآن بينكم، وقد كنت أرسل جواسيسي في أراضيكم من أجل حمايتكم فكنتم تقتلونهم، إن من كان يتسبب في موت القرى لم يمنحني وقتا لأعين ساحرا آخر يحل محلي مثلما عينني معلمي بعده... ولهذا فإن الخراب سيحل على هذا العالم، ستعود الفوضى، سترجع الحروب وسيعود القتل كما في السابق... بموتي سوف ينتهي عهد السحرة، وعهد الأمراء أيضا، لن يكون هناك أمراء بعدكم... ولن يكون هناك أمان لشعوبكم... لمئات السنين حُكم هذا العالم بنظام الساحر الأعظم، وقد كان وضع قوانينه ليخلق عالما مثاليا يخلو من المظالم، أما الآن وقد خان أحدكم الأمانة، فإنه قد انتهى هذا النظام إلى الأبد..." هذا وراح يخرج من ظلام وجهه ما يشبه سعالا قاسيا، حتى أنه رفع يده إلى فمه للحظات ثم أنزلها وهي تقطر دما، سكت قليلا واستتلى حديثه بعدها: "إن معلمي عندما حبسنا في هذا العالم... كان قد جمع عمود السحر الأسود الذي كان منتشرا عند القبائل في ذلك الوقت في كتاب واحد، وكما علمت مؤخرا... فأنتم جميعا على دراية بأن بعض أوراقه قد ضاعت... ربما ما لا يعرفه بعضكم هو أن الأوراق قد فقدت منذ زمين بعيد جدا،

لكنها ظهرت الآن فقط، وهي تحمل في طياتها تعاويذ خطيرة، بل شديدة الخطورة... وأما الكتاب الذي ضاعت منه الأوراق فقد خبأه سيدي بداخل هذا الهيكل، ويقع على عاتقي أن أدمره قبل موتي، ولهذا استدعيتكم... لهذا البرج مدخل واحد، سأخبر عنه لاحقاً، وسوف تتسابقون للحصول على مفتاح هذا المدخل، المفتاح موجود هناك في الأعلى حيث يجلس سيدي ميتا... إن من يعثر عليه أولاً سيتعين عليه أن يدمر الكتاب للأبد، ولهذا فسيحصل على شيء في المقابل، سوف يتحرر من قيده، سأضع عنه معاناته الجسدية فيما يحتفظ بقواه مثلما كانت، إلى جانب أنه سيحصل على فرصة لمغادرة هذا العالم..."

الآن ولأول مرة رفع الأمير آرون رأسه نحو الساحر، لشدة ما أثار كلام الساحر انتباهه، ثم إن خبراً كهذا - أي خبر الخروج من هذا العالم - قد أحدث وقعه في صدورهم جميعاً، وراح كل يفكر فيه وقد زادت أنفاسه.

اختفى الساحر بعدها، والتفت الأمير آرون أمير أرض الرماد نحو أمير أرض الرياح بنظرات ساخطة وقال له:

- "أراك اندهشت لرؤيتك الأمير جابر والأميرة هند يحضران معنا هنا.!!"

ورد الأمير شهاب وهو يضع يديه خلف ظهره في هيبة:

- "ولم هذا أيها الأمير آرون، أليس من حقهما القدوم إلى هنا أيضاً؟"

وقال الأمير آرون بصوت يشبه فحيح الأفعى:

- "ألهدا سعيت بكل ما ملكت من حيلة لإبقائهما بعيدين؟" وضيق أمير أرض الرياح حاجبيه بعصبية، فيما أضاف الأمير آرون بخبث: "ظننت بذلك أن تستأثر بكل هذا لنفسك بعد أن تهزمني!!"

وقال الأمير شهاب:

- "ما الذي تقوله أيها العقرب الماكر، إنني أحذرك أن تذهب إلى أبعد من هذا!!" باندهاش وترقب، وقف الأمير جابر والأميرة هند يراقبان ما يحدث، فيما عاد الأمير آرون يقول وقد استشاط غضبا:

- "إلى هنا انتهى الأمر بيننا، إنك ما خدعت رجالي وأخذت تلك الورقة منهم إلا لهذا، إنك ما دفعت إليهم بتلك الوجبة إلا لأجل هذا الأمر الذي ظللت تخفيه عني، بعدما حسبتك حليفا لي!! أراك تخدعني في أول فرصة، إنك..."

وقاطعة الأمير شهاب:

- "لا تلمني على سذاجة رجالك أيها الأمير آرون."

- "سأريك ما هي السذاجة... قال الأمير آرون والتفت نحو الأميرة هند والأمير جابر وصار يوجه إليهما حديثه: "إذا كان الأمر هكذا، فدعاني أخبركما أن هذا المخادع قد استغل رجالي، بداية في مبادلتهم بتعويذة قوية ببضعة رجال سيئي الطعم، ثم في سرقة زهرك أيها الأميرة، وكل هذا فقط ليستأثر بهذا الأمر لنفسه. لقد كان يعرف بأمر هذا الاجتماع ولذلك سعى لإبعادكما منذ فترة طويلة..."

وقالت الأميرة هند التي لم يكن يظهر منها سوى رداؤها الحريري، قالت ترد عليه
بتهكم:

- "يبدو أنكما قد كنتما صديقين لفترة طويلة، والآن اكتشفت أنه قد قام بخداعك!"
ونطق الأمير جابر يقول بعدها:

- "الآن فقط اكتشفت أن الأمير شهاب إنما أراد بإبعادي أنا والأميرة هند عن هذا
الاجتماع أن ينفرد بك هنا فيهزمك بسهولة ويحصل على مكافأة الساحر! لكنه لم
يتوقع أن يرانا هنا في النهاية... يبدو أن مذاق لحوم البشر قد أثر على عقلك فصرت
لا تبصر ما تفعل" والتفت بعدها نحو الأمير شهاب: "وأنت، لنقل أنك عرفت بأني
لم أكن أقدر على التواصل بوسيط أرض الغابة، وسخرت الأمير آرون لسرقة زهرة
الأميرة هند، ترى ما الذي كنت تخطط لفعله مع الأمير أكثم لو أنني لم أقم بقتله وأبعده
عن طريقك؟".

هنا انطلقت من فم الأمير آرون ضحكة قوية، واستمر يقهقه بشكل هستيري بينما
تجلجل العظام والأنياب المعلقة في معصميه وحول رقبتة، وحينما أوشك أن يكف
عن ضحكته ويسترسل في الحديث ليشبع فضول الأميرة هند والأمير جابر لما
أدهشهما رد فعله المفاجئ وراحا يتفرسانه بتلك الطريقة، فإن الساحر الأصغر عاد
للظهور مرة أخرى فوق الصرح ودوى صوته في الأرجاء عاليا:
- "الآن ليجتمع الأمراء عند البرج لنبدأ هذا الأمر البديع معا..."

وما كان من الأمراء الأربعة إلا أن تناسوا ما كان يدور بينهم اللحظة وراحوا ينزلون الدرجات الحجرية حتى وقفوا عند قاعدة البرج وأنظارهم لأعلى، وأردف الساحر قائلاً: - "سوف تتسابقون أيكم يصل إلى قمة البرج ليعثر على المفتاح أولاً، من يعثر عليه يبقى هنا، وأما الآخرون فيعودون إلى أراضيهم فور انتهاء المنافسة... لا تهم الطريقة التي تتسلقون بها، فليستعمل كل واحد مهاراته، لكن يمنع أن تؤدي المنافسة إلى موت أحدهم... من يلحق الضرر بالآخرين حدّ الموت يستبعد من فوره، والآن فلتبدأ متى ما كنتم مستعدين لذلك."...

لعشرين طباقاً كان يرتفع البرج العتيق أمامهم، آلاف الأحجار المزخرفة والبالغة القدم بحيث تعطيه مظهرها يبدو فيه وكأنه آيل للسقوط في أي لحظة، نوافذ ظلماء تنمو عليها نباتات وطحالب، فيما تبرز من بين الشقوق حشرات صغيرة سرعان ما تجري هاربة نحو الظلمة، فتات يتساقط، وصمت قائم يغلف البرج كأنما طلعت روحه منذ أمد، الآن ولحظة أن أعلن الساحر بدأ المنافسة، إذ بالأمير جابر والأمير آرون يثبان نحو أول طباق ويتشبان به كل بطريقته، كان الأمير جابر أسرع قليلاً، غير أن خفة الأمير آرون أدهشت المتفرجين من الأراضي الأخرى، ذلك أنه لم تكن هنالك أي علاقة بين هيئته الغربية التي تدل على العجز وبين القفزة التي قام بها حتى اعتلى قمة الطابق الأول وراح يتسلق صاعداً البرج بسرعة تكاد أن تجاري سرعة الأمير جابر، لقد كان يستحق تماماً لقب العقرب، أما الأمير شهاب فكان قد ارتفع عن الأرض مثل ريشة تحملها الرياح بثبات تام، بينما لا تزال ذراعاه خلف ظهره، كان متزناً

في صعوده نحو قمة البرج غير أبه لما يفعله الآخرون تماما، وكان سريعا بحيث أمكنه أن يتجاوزهما بطابقين أو ثلاثة، الأميرة هند كانت قد اختفت عن الأنظار منذ البداية ولم يعد بالمقدور أن تطأها الأعين، لم يكن يُعرف موقعها، ولذلك ركّز الناظرون أبصارهم على الأميران آرون وجابر هنالك حيث كانت تقام المنافسة الحقيقية، كان الخوف والقلق يترسمان على الأوجه، رغم أن أحدا من الناظرين لم يكن يعرف الحقيقة الكاملة لما يحدث، ولمح القائد ليث أمارات القلق بادية على وجه خولة فقال يطمأنها: - "لا تقلقي عليه، الأميرة هند تقف في صفه وسوف تساعدك..."

وحينها نظرت إليه للحظة ثم عادت تحديق نحو البرج بينما تتسارع خفقات قلبها. من مجموعة أرض الرماد اللذين كانوا يقفون على مقربة، كانت الفتاة الوحيدة التي بينهم لا تزال تطالع خولة بين لحظة وأخرى، فيما يشبه أنها كانت تداري فعلتها عن رفاقها اللذين انشغلوا بمراقبة سيدهم.

بالوصول إلى الطابق التاسع كان الأمير آرون قد نشب طرف عصاه في شق عميق ودفع نفسه بقوة نحو الطابق التالي، ما قربه من الأمير جابر، كان يشبهه - بظهره المحدودب الذي يغطيه الفرو - عنكبوتا ذئبيا يحاول اصطياد فريسته، لكن وفي غمرة هيجانه وقلقه من الخسارة علق العقد الذي في ساقه بغصن ناتئ فانفلت وتساقط منه الأنياب الصغيرة لأسفل، لكنه تمكّن في آخر لحظة وكما أراد تماما من أن يضع يده على ساق الأمير جابر ويتعلق بها.

نظر الأمير جابر إليه وحاول إسقاطه غير أن قبضة الأمير آرون كانت قوية جدا، مثلما أنها التصقت بقوة بساقه، حتى أنه أحس بلسعة في قدمه، وهنا استغل الأمير آرون ذلك ووثب وثبة عالية جعلته يقف معه على خط واحد، وراحا يتبادلان اللكمات وهما معلقان بتلك الطريقة على ارتفاع عشرين مترا، لم يتمكن أي منهما من أن يلحق بالآخر ضربة مباشرة، ومن ثم فقد ابتعد عن بعضهما واتخذ كل منهما طريقه، في حدود الطابق الرابع عشر وكان الأمير جابر قد سبق الأمير آرون مجددا، وإذ شعر بشيء ما يشده لأسفل مرة أخرى، فإنه نظر وإذ بالأمير آرون قد علق طرف عصاه في حذائه، ولم يمهل وقتا هذه المرة، إنما جذب ساقه بالعصى بقوة جعلته يفلت الحجر الذي كان يتشبث به وراح يهوي عائدا نحو الأسفل.

في غمرة الهلع الذي أصاب رفاق الأمير جابر، كانت خولة قد أغلقت عينها وانفلتت منها صرخة سريعة، حتى إذا طمأنها القائد ليث بأن الأمير باقٍ في السباق لم يسقط، أبعدت يديها عن وجهها ونظرت، وإذ به قد تعلق في الطابق الثامن بعدما نشب نصله الحاد في تجويف صغير بين الحجارة، وهنا اشتد بالأمير جابر غضب قوي جدا، ونظر لأعلى بينما يأخذ أنفاسا ساخطة، كان الأمير آرون يتجاوز الطابق الخامس عشر، وكان قد بقي أمامه القليل فقط حتى يصل، بينما لم يتمكن من رؤية الأمير شهاب في أي موضع. ومن ثم فقد قدر بأنه بالفعل قد بلغ القمة. لكنه في لحظة، لمح جسما يهوي من قمة البرج قادما في اتجاهه، وعرف سريعا أنما هو الأمير شهاب، وأن الأميرة هندي من قامت بضربه بعدما استغلت الوضع الذي كان بينه وبين الأمير

آرون لتشق طريقها نحو الأعلى بسرعة ودون أن يعيق طريقها أحد، وقد تمكنت بطريقة ما من ضرب الأمير شهاب وافقاده وعيه، ومن ثم فقط سقط في النهار مثل نسر ميت.

أسرع رجال الأمير شهاب نحو النهر فأخرجوه مغمض العينين وجعلوا يأخذونه إلى العشب لأجل إسعافه، وقد كان في وجوههم - وهم يحيطون به - غيظ عظيم وسخط، بعدما أدركوا من حال وجه أميرهم أنه لن يقدر على الوقوف على قدميه قبل فترة طويلة، هذا فيما كانت عيون الباقين لا تزال مسمرة نحو البرج حيث كانت المنافسة لا تزال قائمة، كان الأمير جابر وحده من لم يصل بعد إلى القمة، وإذ كان الأمير آرون قد وصل لتوه إلى السطح الدائري ووقف ينظر مشدوه البال حائراً عند طرفه، فلأنه كان هنالك - في منتصف السطح تماما - كرسي حجري يجلس عليه هيكل عظمي هرم وقد رفع بصره المجوف إلى السماء بينا سقطت قلنسوته المخرومة خلف رأسه، كانت ساقه اليمنى مفقودة، وكان قد بقي عليه خرقة تغطي موضع الصدر وقليلاً من ساقه اليسرى، وكان يمسك - بخمسة أصابع من عظم - عصي قديمة وكأنها انتعزت من شجرة تزامن ظهورها مع ظهور هذا العالم، فيما تدلت من أسفل عقد ملفوف حول عنقه لؤلؤة سوداء بحجم حبة عنب كبيرة، غير أن الأمير آرون بدا وكأنه لم يهتم لكل ذلك، وراح ينظر يمناً ويسرة بعين حذرة، ثم أخذ يتشمم الهواء من حوله مثل ضبع مترصد، كانت عصاه في يده، وكان يقف مثل عجوز لديه آلام في ركبته، ولخبثه الشديد ودهائه، فإنه دار حول نفسه دورتين سريعتين، ثم راح يمشي نحو الهيكل

العظمي بخطوات قصيرة، حتى إذا اقترب منه وثب وثبة خاطفة مر بها من فوق الكرسي عابرا إلى الجهة الأخرى حيث حطّ خلف الأميرة هند مباشرة ووجه إليها ضربة قوية على مؤخرة رأسها ألقتها بعيدا عند حافة السطح.

ظهرت تلايبب الأميرة هند بعد سقوطها مباشرة، وظهرت - على غير مبعده من وجهها - عظمة ساق بشرية، ووقف الأمير آرون أمامها بقدميه العفنتين وساقيه المغلفتين يتطلع إليها من تحت الجمجمة التي يغطي بها وجهه القذر، وقف وراح يقول بازدراء بينا ينقل عصاه الاي تضربها بها إلى يده الأخرى:

- "لم تنسي أن تضعي عطرك قبل المجيء أليس كذلك؟ ها قد أودى بك إلى الخسارة، ولكنك كنت تخططين لضربي أنا أيضا أيتها القذرة..." ثم نقل بصره نحو عظمة الساق وتابع كلامه بمثل تلك النبوة المستهترة: "وأنت يا شهاب، خططت وخططت لسنوات وأشهر، ثم تلقيت ضربة من عظمة ساق رجل ميت، أيها الكذوب الماكر".

هذا وارتد نحو الكرسي وراح يقف أمامه حائرا في أمره، دار حوله دورتين ثم فكر قليلا فيما يفعل، لكن لم يكن هنالك ما يشير الإهتمام فيه غير الحجر الأسود المعلق في عنق الهيكل العظمي، كان لامعا ويبعث على الدهشة، ومد يده يريد انتزاعه، لكنّه تراجع عن ذلك في آخر لحظة، لقد تنحى من موضع وقوفه بحركة سريعة جدا، بالقدرة الذي احتاجه لكي يتجنب ركلة الأمير جابر الذي كان قد أتى من خلفه في تلك اللحظة.

وقف الإثنان بعد ذلك يحدقان نحو بعضهما بترصد، وكان الواحد منهما يفهم عقل الآخر بقدر جيد، ولذلك حدث وأن اندفعا نحو ذات النقطة في لمح البصر، والتقى النصل الحاد بالعصى أمام وجهيهما وصارا كل واحد منهما يحاول دفع غريمه نحو الحافة، ورغم أن الأمير جابر كان يفوق الأمير آرون حجما إلا أنه كان يدرك جيدا بأن مظهره لا يعكس قوته الحقيقية، وإنما هو مظهر خادع، كان ليأخذ به أي شخص لا يعرفه على حين غرة.

مرت دقيقة كاملة دون أن يظهر ميل واضح إلى أحدهما، فابتعدا عن بعضهما وراحا يدوران في خط واحد مثل عقربي ساعة، ونطق الأمير جابر يقول حينئذ:

- "قد خدعك ذلك الخبيث إذن!!"

ورد الأمير آرون من عنده:

- "قد نال جزاءه..."

وقال الأمير جابر:

- "لم يكن والدك ليتم خداعه بهذه السهولة."

- "ما كان والدي ليُخدع، لا بسهولة ولا بصعوبة."

- "أخبرني لماذا ضحكت عندما ذكرت الأمير أكثم، هل هناك شيء كنت تود أن

تقوله؟"

- "لا، على الأقل ليس الآن، لكن كان لدي أسرار سيهمك أن تعرفها، وسأسعد أيضا

أن أبيعك أياها..."

- " في مقابل ماذا؟! ".

- " حسنا، بعض السيقان الصغيرة الجيدة؟ ".

- " تعرف جيدا أن هذا لن يحصل ".

- " أفأعطيك أيها إذن دون مقابل، لو كانت موجودة؟ ".

- " لو كانت موجودة ".

- " نعم، لو كانت موجودة... "

وهنا توقف الأمير جابر عن الدوران وتوقف معه الأمير آرون أيضا على الجهة

المقابلة، ونطق الأمير جابر يقول بعدها:

- " أكان يسيرا عليك أن تقتل أناسا تاهوا في أرضنا؟ ".

- " من، أولئك الغرياء؟ ".

- " ينبغي عليّ أن أقتلك لأجل ذلك ".

- " هل صحيح أنهم جئوا من عالم آخر؟ لم أصدق، حاولوا كثيرا معي، لكنني لم

أصدقهم، هل تعرف عنهم شيئا؟ ".

- " لماذا، أتريد المزيد منهم؟ ".

- " أجل... "

...

- " ها... لكن لماذا تدافع عنهم، أكان يهملك أمرهم إلى هذه الدرجة؟ ".

- " يهمني أمر شخص كان يبحث عنهم ".

ولمعت عينا الأمير آرون وصار يلحق شفثيه الوسختين بلسانه:
 - "فإذن يوجد المزيد منهم، رائع، كنت أعرف هذا.."

عاد الأمير جابر إلى الدوران وكذلك الأمير آرون من جهته.
 - "لن تعيش طويلا حتى ترى أحدا مرة أخرى.."

- "من يعرف.!"

- "لقد وضعتك هدفا لي منذ اللحظة.."

ورد الأمير آرون بازدراء تجلى في نبرة صوته:

- "هممم، لربما أبوح لك بسر ما فتعفو عني، ما رأيك؟"

- "سر آخر؟"

- "أجل.."

- "يتعلق الأمر بما تريد قوله، فينبغي أن تبلغ قيمته قيمة روحك.."

- "ستبلغ، ستبلغ... على الأقل ستنفرج عينك حينما تسمع."

- "فدعنا ننتهي من هذا إذن، قد أضعنا وقتا بما يكفي.."

هذا وحرك الأمير جابر معصمه فاختمى النصل الحاد الذي كان يخرج من من تحته، وكذلك ألقى الأمير آرون عصاه بعيدا عنه واندفع الاثنان نحو بعضهما فيما يشبه أن يكون قتالا جيدا تكتنفه قوانين مفهومة.

كان التقائهما قويا سُمع له صوت من الأسفل، كان يشبه صوت ارتطام حصانين ببعضهما، ونتج عنه أن سقط الأمير آرون مرميا عند الحافة، ذلك لما باغته الأمير

جابر بلكمة قوية على الجمجمة التي يغطي بها وجهه مما تسبب في كسرها وسقوط جزء منها، وبينما وقف الأمير جابر يراقبه على مبعده، قام الأمير آرون مستندا على يديه كأنما لم يصب بشيء البتة، رفع رأسه وكان في عينيه المظلمتين شر متقد، جمع قبضتيه ووثب مثل عنكبوت إلى وسط السطح وتشابك الإثنان مرة أخرى، وراحا في سبل من اللكمات المتتابة:

- "سوف... لن أوضع... موضع... الغبي مجددا... ينبغي أن..."

قال الأمير آرون فأسكته ركلة قوية على بطنه طرحته أرضا.

- "ماذا؟ أن تهزمني؟" كذلك قال الأمير جابر وهو يدنو منه بنظرة شفقة: "أنت قوي بالفعل يا آرون، لكن أنا لذي أسبابي للفوز هنا، ولا ينبغي أن..."

وأسكته ضربة مفاجئة حطت على وجهه الخشبي هو الآخر، وكانت من القوة بحيث أحدثت فيه أثرا، ذلك لما كان الأمير آرون من الدهاء والخبث بحيث تظاهر بأنه فشل في تجنب تلك الركلة التي أسقطته قبل لحظة، وإنه تعمد تلقيها إلا ليقرب من عصاه بشكل يسمح له بأخذها دون أن ينتبه له الأمير جابر، وقال بينا يصلح وقفته:

- "لا تؤاخذني، لكنني لا أكثر كثيرا لأسبابك، إنني أنا من ينبغي أن يفوز هذا اليوم، قد بقيت جاهلا لمقدرة الأوراق حتى وقت قريب مضى، وهذا يكفي، كان من الغباء أن أفرط في ورقة تعيد بعث الموتى..."

أحدث كلامه نبضا قويا في صدر الأمير جابر وعاد بوجهه نحو الأمير آرون متانسيا تماما ألم تلك الضربة.

- "ما الذي قلته؟".

وقال الأمير آرون وهو يصلح مكان الجمجمة على وجهه.

- "دعك من هذا، لناخذ سلاحنا الآن ولنتقاتل مثل رجلين يستحق أحدهما أن يفوز بتلك الجائزة، أو دعنا من شروط الساحر، ولنتقاتل حتى يأخذ أحدهما نفس الآخر..."

الآن أكمل الأمير آرون ما أراد قوله، لكنه لو أراد قول أكثر من هذا فإنه ما كان ليقدر على تحريك لسانه، ذلك أنه خر ساقطاً في موضع وقوفه بعدما تلقى ضربة قوية على مؤخرة رأسه.

رفع الأمير جابر بصره عن جسد الأمير آرون المطروح على الأرض فرأى الأميرة هند تقف خلفه، كانت تحمل عظمة ساق الساحر الأكبر ثم أفلتتها من يدها قبل أن تعود للاختفاء مرة أخرى فسقطت عند رأس الأمير آرون تماماً، ونطق الأمير جابر في لطف وعبث:

- "لم يبقى إلا أن تضربيني أنا أو تضربي الساحر بساقه! هل أنت بخير؟".

- "ليس كثيراً، يؤلمني رأسي بشدة..."

- "قد رددت له دينك بسرعة".

- "لا بد أن تلك الضربة التي وجهتها له على وجهه قد أفقدته حاسة الشم لفترة من

الوقت ولذلك لم ينتبه لوجودي هذه المرة".

- "لكنك تعطرت كأنما تذهبين إلى عرس أو ما شابه، وجعلت بهذا من نفسك هدفاً

واضحاً أمامه".

- "من أين لي أن أعرف أننا سندخل في عراك كهذا، ظننت أنه اجتماع ككل الاجتماعات السابقة، لكن لولا أن الساحر منعنا من أذية بعضنا لأخرجت روحه للحظة، لقد أغاضني أنه كشف أمرى..."

- "دعك من ذلك..."

التفت الإثنان نحو الكرسي حيث كان واضحا أن عملهما سيكون مع تلك العظام البالية.

مرت سنون طويلة على هذا الهيكل وهو جالس هنا، مستسلما للريح والمطر في غير حول منه ولا قوة، هذا بعدما كان يعد في يوم ما أعظم ساحر عرفته الأمصار قاطبة، لكن الآن كان هنالك حشرات صغيرة تجري هاربة من ثقب وجهه، لم تكن له رائحة يُشمئز منها، لكن في جمجمته كان هنالك رشات من بؤس الزمن، الآن وبيننا يتأملانه بحيرة، ظهر الساحر الأصغر يطوف في الهواء فوقهما فجأة وراح يكلمهما بصوت واهن أكثر من السابق:

- "فإذن قد تحالفتما أنتما الإثنان، مع أنني أعلنت أن الهدية ستكون من نصيب أمير واحد، لا بأس بهذا... إن ما تبحثان عنه موجود هنا تحت هذا الكرسي الحجري تماما..."

ثم إنه صمت بعدها وبقي يحلق في مكانه مثل طعم الصنارة.

تقدم الأمير جابر وانتزع اللؤلؤة السوداء من عنق الهيكل العظمي ودسها تحت درعه ثم التفت هو والأميرة هند كل إلى جهة وصارا يطوفان السطح من مكان لآخر يتلمسان الحجارة تارة أو يدوسانها بأقدامهما تارة أخرى على أمل أن تتحرك باب ما فجأة، هذا بينا الساحر يراقبهما من أعلى كمن يراقب طاولة شطرنج بغم مطبق، انتبهت الأميرة هند إلى شيء فجأة، فتوقفت عن البحث وراحت نحو الكرسي ومالت لتتفقد المنطقة التي يقف عليها.

- "هلا أتيت لحظة..."

قالت تنادي الأمير جابر، فذهب نحوها وانحنى بدوره يتفقد الحجارة حول قاعدة الكرسي وكانت تختلف عن الحجارة الأخرى بشكل دقيق تصعب ملاحظته، وهنا نطق الساحر الأصغر:

- "إذا كسرتما الكرسي فقد لا يفتح المدخل حتى لو عثرتما على مكانه".

وفكر الإثنان قليلا، ثم قال الأمير جابر:

- "وكأنه يقول أن لدينا فرصة واحدة، فلن فعلها بحذر بالغ..."

وردت الأميرة هند:

- "للأمام أم للخلف؟"

- "لا هذا ولا ذلك، أرى أن ندفعه بحيث يدور حول نفسه..."

وهكذا ذهب كل منهما في جهة وجعلوا كأنما يدفعان الكرسي في شكل دائري، وكان أن تحرك الكرسي فعلا وراح يدور مثل الرحي ببطء شديد حول نفسه، فرح

الإثنان فرحا عظيما بحسن توقعهما، لكن حينما رفعاً أيديهما عن الكرسي وكان قد دار نصف دورة نحو الجهة الأخرى فإنه لم يحدث وأن سُمع الصوت الذي يفترض به أن يشبه صوت تحرك حجارة مدخل، لقد كان ذلك صوتاً أطلقه الساحر حين اشتد به سعال جاف فجأة.

توقف الساحر عن السعال وعاد ينظر بتأمل، وتنهد الإثنان لفرط الخيبة، لم يكن هنالك في الأرجاء شيء قد تحرك، لكن واتت الأمير جابر فكرة وقال يطرحها:

- "هل نعيده إلى مكانه؟".

وقال الأميرة هند:

- "ما دام لم يحدث شيء، فلنفعل".

- "لا، لا أقصد أن نعيده من الجهة التي دفعناه بها، بل نواصل دفعه كما فعلنا".

- "ألم تلاحظ أنه صار أكثر ثقلاً كلما دفعناه، أخاف أن نكسره!".

- "ربما هذه هي الفكرة، أن يدور حول نفسه دورة كاملة، على أن يزيد ثقله كلما اقترب من إكمال الدورة...".

- "وكأنه أراد أن يرى العالم من حوله للمرة الأخيرة!".

قالت الأميرة هند في جدل، ورد الأمير جابر وهنالك انشراح وتهلل في صدره:

- "أجل...".

تبسم الساحر الأصغر من أعلى وهو يراقبهما بينما يضعان أيديهما على أطراف الكرسي مرة أخرى، كان كلما تحرك شبرا صار أثقل، شعرت الأميرة هند بألم شديد في

رأسها، غير أن الصوت الذي صدر لحظة أعادا الكرسي إلى مكانه أنساها فجأة كل ذلك الألم، كان صوتا يشبه تحرك حجارة مدخل هذه المرة، وحينما وقفا خلف الكرسي فإنهما راحا يحدقان بذهول إلى ما كان يشبه فتحة صغيرة ظهرت في السطح فجأة، غير أنها كانت فارغة لا تحتوي شيئا بداخلها.

عاد الإحباط يخيم عليهما بعد ذلك، وعادا يبحثان حول الكرسي عن أي شيء لافت، وفي هذه اللحظة راح الساحار يقول بينا ينزل نحوهما حتى وقف أمام الفتحة:

- "دهشتي تعادل دهشتكما... قد كنت أعرف أن المفتاح مخبأ هنا، لكن الآن يظهر عكس ذلك... حسنا، لربما، لربما." وبدا وكأنه قد تذكر شيئا فاستتلى يقول بينا انتبه الإثنان لحديثه: "في السابق أخبرني معلمي أنه اختار لبناء هذا الصرح رجلا كان يعدّ أمهر البنائين في زمانه، رجل كان من البراعة بحيث جعل لهذا البناء مدخلا واحدا، وإذا ما حاول أحدهم أن يلج إليه من غير المفتاح ومن غير هذا المدخل فسوف يتهدم البناء على نفسه ويدمر الكتاب معه، لكن ذلك يعني أنّ الفائز لن يحصل على جائزته... الآن وحيث أن المفتاح غير موجود في مكانه فقد يكون ذلك الرجل أذكى مما ظنّه معلمي..." قال هذا وراح يدنو من حافة السطح مثل الشبح الذي يطوف فوق الأرض بينا يتبعه الأمير جابر والأميرة خولة من خلفه: "هنالك في قاع النهر ترقد عظام ذلك الرجل... بالطبع لم يكن معلمي ليبقي على حياة شخص يعرف سر البرج، ولذلك ألقى به من هنا... قد يكون ذلك الرجل سرق المفتاح بطريقة ما، وإذا كان هذا صحيحا فلا شك أنه الآن غارق معه في الأسفل..."

هكذا اختفى الساحر الأصغر تماما بعد هذه الكلمات المحيرة، فيما حمل الأمير جابر جسد الأمير آرون على كتفه وراح ينزل به الصرح متشبثا على فتحات النوافذ نحو الأسفل، وخلف الأميرة هند التي كان قد بلغ التعب منها مبلغه.

عندما ألقى الأمير جابر بجسد الأمير آرون أمام رجاله فإنهم نظروا إليه بوجوه مسعورة، ذلك أنه حينما ألقاه أمامهم فإنما ألقاه كمن يلقي بنصف جسد غزالة ميتة، فعل ذلك ببرود شديد وعاد أدراجه نحو أصحابه، أما الأميرة هند فكانت في هذه اللحظات تخبر رفيقاتها عن أمر المفتاح الذي ستعين عليهم البحث عنه في قاع النهر الذي كان يبدو عكرا بسبب الغيوم السوداء التي تجمعت فوق الجبل.

بعد وقت قصير اقترب الجميع من النهر الهادئ فوقفوا أمام موضع بحيث قدروا أنه ما كانت لتغرق جثة رجل تم رميه من أعلى البرج في ماكن يجانبه كثيرا وجعلوا يرسلون أبصارهم إلى قعره غير أنها عجزت جميعها عن أن ترى أكثر من انعكاس الغيوم على سطحه، هذا وبينما الجميع منهمكون في التفكير في حيلة تمكنهم من البحث عن المفتاح في الماء المشوش فإن أذنا من جماعة أرض الرماد قد كانت تمد سمعها باهتمام شديد نحوهم، وحينما انطلق القائد ليث في سرد فكرته التي اقترح فيها أن يغوص بنفسه في قاع النهر ويبحث بشكل عشوائي علّ الحظ يسعفه، فإنهم سمعوا صوتا ينادي باسم خولة من خلفهم، والتفتوا وكانت تلك الفتاة من جماعة أرض الرماد تأتي راكضة نحوهم كأنما تخشى أن يعترض أحدهم طريقها.

استقبلت خولة الفتاة بوجه بهيج وعانقتها بشدة، وحينما انتهى عناقهما فإن خولة انطلقت تسألها عن حالها بأحرف سريعة لا تتوقف، وما كادت الفتاة تجيبها حتى أتاها صوت الأمير جابر بقوة:

- "ما الذي تفعلانه؟"

قالها بصوت يقطر حيرة، وكان سؤاله ترجمة للنظرات التي كانت تحتويها أعين الجميع من حولهما، ولذلك نطقت خولة تجيبه:

- "هذه رشاً، صديقتي... كانت أول شخص تعرفت عليه هنا، وكانت معي في السوق قبل أن..."

وقاطعها القائد ليث:

- "فما الذي تفعله مع أولئك الوحوش إذن؟"

وهنا نظرت خولة إلى رشاً وكان هنالك دمع في عينيها، فأمسكت بيدها وقالت بصوت جريئ واثق:

- "هي ليست من تلك الأرض..."

وقال الأمير جابر:

- "دعيها تجب عن نفسها يا خولة"

ونطقت رشاً تقول بصوت مرتجف:

- "لست من أرض الرماد، لقد بقيت هنالك عنوة، ولو أنني حاولت الهرب لقاموا بقتلي فوراً"

- "منذ متى وأرض الرماد تجند نساءً؟ لم يُعرف عنهم هذا يوماً".

وخفضت رشا رأسها في حياء وخوف ولم تقل شيئاً، غير أن خولة نطقت تقول مدافعة

عنها:

- "وليكن... هي لا تريد العودة معهم، أليس كذلك يا رشا؟".

وهزت رشا رأسها نافية.

- "اتركيها يا خولة، فلتعد إلى جماعتها..."

قال القائد ليث وكان في حديثه أيضاً، ما يترجم نظرات الواقفين التي كان يتخللها

نقم وحدة، وأما خولة وبعد أن حدقت في وجوههم ملياً، فإنها صاحت بعناد وغلظة:

- "لن أتركها، بل ستبقى معنا..."

ورفعت رشا بصرها نحو الأمير جابر وقالت في ترجي:

- "يمكنني أن أساعدك في البحث عن المفتاح يا سيدي، فبصري قوي جداً، وسأقدر

على رؤية قاع النهر بسهولة!"

الآن تذكرت خولة ما حدث في الغرفة التي كان تاجر العبيد قد احتجزهما فيها،

وكيف أنها استطاعت رؤية الأمير جابر وهو يلعب غرابه في شرفة قصره رغم عجزها

هي عن فعل ذلك بسبب بعد المسافة، وهكذا دق قلبها فرحاً وغبطة، وهمت بأن تدعم

كلام صديقتها غير أن لغطاً غاضباً وعجيباً راح يأتي من خلفهم فجأة، كان هنالك ثلاثة

رجال أشداء من جماعة أرض الرماد يأتون نحوهم بينما يحملون فؤوسهم الثقيلة في

أيدهم، وقفوا على بعد أمتار ونطق أوسطهم بصوت متوحش:

- "أعيدوا إلينا الفتاة حالا..."

ورّد عليه الأمير جابر قائلاً:

- "هل يهمكم كثيرا أمرها؟ فهي تقول أنها ليست منكم."

وقال الرجل بمثل تلك النبوة الأولى:

- "هي تخص أميرنا، ولن نعود بدونها..."

- "ونظرت خولة إلى رشا فخفضت رأسها مجددا ودون أن تنبس ببنت شفة، ثم فاجأها

أن الأمير جابر رفض أن يعيدها، ذلك لما رد يقول بصوت قويّ واضح:

- "ستبقى الفتاة معنا، ما دامت تريد هذا..."

وقال الرجل:

- "لا أظن أنه قد بقي لدينا هنا ما نتقاتل لأجله، ولا أظنك ستخلق من هذه الفتاة

سببا لذلك!"

وهنا تقدم الأمير جابر والأميرة هند نحوه خطوتين وأخرج الأمير جابر نصله الحاد

فتغير وجه الرجل وصار يزاحم الشدة التي كانت في وجهه ارتباك وتردد، وقال بعد أن

رأى إلى أين قادته شجاعته العمياء:

- "لن يكون الأمير آرون سعيدا بهذا حينما يستعيد وعيه."

وقال له الأمير جابر في لفظ قاسٍ:

- "أخبره أنني كنت سأذبحكم جميعا لو قررتم أخذها، بإمكانك أن تتخذ هذا عذرا..."

هنا عض الرجل على شفتيه غيضا ثم تحدث إلى صاحبيه بكلام مبهم واستدار
يعود أذراجه مدمدما وهو يعيد فأسه إلى مكانها على ظهره.

بهذا إذن التقت خولة بصديقتها الأولى وانظمت معها إلى فريق أرض الشجر، في
هذا الوقت كان رجال أرض الرماد يحملون زعيمهم عائدين إلى أرضهم، فيما كانت
فرقة أرض الرياح قد غادرت منذ مدة، وعاد الأمير جابر والأميرة هند ومن معهم
يستمعون إلى حديث رشا حين راحت تحدثهم قائلة:

- "لقد قام أولئك الرجال بالهجوم علينا عندما كنا نقطع غابة قريبة من أرضهم فقتلوا
الحوذي وكل الرجال اللذين كانوا معه، فيما قاموا بأسرنا نحن الفتيات واقتادونا
معهم... بمرور الوقت عملت الأخريات بجد لأرضاء الأمير آرون فيما عزلني عنهن
وفرض عليّ أن أتدرب مع رجاله؟".

- "ولم ذلك؟".

سألها القائد ليث.

- "تعرفون جميعا أن مقدرتهم على الرؤية في الليل تبلغ ذروتها، لكن ذلك لم يكن
يكفيهم، لقد احتاجوا للمزيد من الطعام، ولذلك وبعدها علموا بمقدرتي على الرؤية...
قاموا بتدريبي على الصيد، فكنت أخرج معهم في النهار إلى الغابة لأساعدهم على
تحديد الفرائس...".

- "لكن كيف استطعتن أن تتنفس ذلك الهواء السمج الذي يتنفسونه، ألم يصبكن
أي مرض؟".

- "لا... هناك شراب خاص يصنعونه، مذاقه سيء جدا، لكنه يساعدك على أن تعتاد على ذلك الهواء دون أن يقتلك..."

- "فماذا كان يقصد الرجل بقولنه أنك تخصين الأمير آرون؟"

كان سؤال القائد ليث محرجا بالنسبة إلى رشا، غير أنها فهمت أنه لا مهرب من أن تجيبه.

- "كان يفترض أن أصير زوجة له..."

قالت ذلك وهي تضع عينيه في الأرض خجلا منهم، وتداركتها خولة حين نطقت تقول بينا تشد يدها:

- "لا يهم ما عشته، المهم أنك الآن معنا، من الآن فصاعدا، لقد نجوت منهم..."

- "أجل، لقد نجوت منهم".

على هذا نطق الأمير جابر يطلب من رشا أن تستعد للغوص في النهر بسرعة، فالأمر لم يعد يتحمل المزيد من التأخير الذي لا ترجى منه فائدة، ونزعت رشا سلاحها وكان فأسا صغيرا تعلقه على ظهرها تماما مثل الرجال الذين كانت برفقتهم، وتنحى الجميع من أمامها وراحو يتأملونها وهي تقف على حافة النهر، ولم تمضي ثانيتان حتى قفزت إلى الماء مباشرة ودون تردد.

كانت قد مرت ثلاثون ثانية منذ غابت رشا عن أعينهم، ووقف الأمير جابر عند الحافة يعقد ذراعيه بقلق، ودنت منه الأمير هند وقالت وهي تضع يديها على خصرها:

- "أراك أصبحت تثق في الغرباء بسهولة".

ورد الأمير وجابر:

- "لا، لا أفعل..."

- "فماذا تسمي هذا إذن؟"

- "أسميه، شيئاً لا بد منه..."

- "ألم تفكر في أنها قد تخفي المفتاح هنالك في الأسفل، لكي تعود لإخراجه فيما بعد؟"

- "لن تفعل هذا."

- "أنت واثق!"

- "أجل."

ولمحت الأمير هند خولة بطرف عينها وكانت لا تبعد ناظريها عن الموضوع الذي قفزت إليه رشا بينما تعصر يديها قلقاً.

- "ربما أكون قد فهمت سبب ثققتك هذه، هل لمجرد أنها صديقة ل..."

- "هذا ليس وقت كلام كهذا يا هند..."

وابتسمت الأميرة هند بوجهها الخفي في بساطة وعادت تتأمل النهر بينما تهز خصرها يمنة ويسرة.

الآن كانت قد مرت دقيقتان ثقيلتان جداً، وصار تأخر رشا عن الظهور يخنق صدورهم، كان جنود الأمير جابر يقفون جنب بعضهم بنظرات هادئة، وأيديهم على سيوفهم، فيما رفع قائدهم بصره يتأمل البرج بنظرة باردة، وكانت فتيات الأميرة هند

تقفن بتوتر خلف زعيمتهن وهن تجمعن أيديهن خلف ظهورهن في انضباط وأدب، وفي غمرة الترقب الشديدة التي ضاق الجميع بها ذرعا، إذ برأس رشا يطل من الماء فجأة، أخذة بذلك شهيقا قويا ابتهج الجميع لسماعه وأعاد هواء صدورهم.

جلست رشا على العشب تسترد أنفاسها، كان شعرها المبتل ساقطا على وجهها، وبينتا تظمتن خولة عليها، أخذ الأمير جابر في يديه المفتاح الذي أخرجته رشا من النهر وراح يتأمله رفقة الأميرة هند.

كان المفتاح عبارة عن قطعة ذهبية صغيرة تشبه لسان الملعقة، وكان معلق في طرفها خيط مفتوح، وكان ومنقوش عليها أحرف وأسهم صغيرة لا ترى إلا بصعوبة، كان واضحا من شكل النقوش وبساطتها - ومن حديث الساحر أيضا - أنما هي إلا تعاليم يفترض بها أن تقودهم إلى مدخل البرج.

قلّب الأمير جابر المفتاح في يده وقال شاردا:

- "ما قاله الساحر الأصغر صحيح إذن، لقد قام البناء بتحديد موقع المدخل على هذه القطعة، ثم قام بسرقتها بعد ذلك." ...

وقالت الأميرة هند بعده:

- "أجل، لأنه أدرك أن الساحر الأكبر كان سيمسح ذاكرته بعدما ينتهي من بناء البرج، ولذلك خطط لسرقة المفتاح منذ البداية." ...

- "لكن خطته لم تسر كما يجب." ...

- "لم يتوقع أن الساحر سيقبله." ...

- "يبقى أن الساحر الأكبر قد نجح بالفعل في حماية المدخل، بطريقة أو بأخرى..."
 - "فعلا..."

- "هنالك أمر آخر، تذكّر أن الساحر الأصغر قال في البداية أن الأوراق التي تحمل تعاويذ خطيرة، قد ضاعت منذ زمن بعيد جدا، وأنها ظهرت إلا في السنوات القليلة الماضية!"

- "يعني!!"

- "أفكر في... أي زمن قد يكون هذا الزمن الذي تحدث عنه؟"

وسريعا فرقعت في رأس الأميرة هند نفس الفكرة التي أراد الأمير جابر أن يشير إليها، ونظر كلاهما إلى النهر في نفس اللحظة، لكن قطع حبل أفكارهما أن الساحر عاد للظهور مرة أخرى، وقد تشكل أمام البرج هذه المرة، واقفا على الأرض بعبائه التي كانت أطرافها تتصل بالعشب الأخضر، وقال ورأسه المخفي تحت القلنسوة منكس للأسفل:

- "اقترب أيها الأمير، هات ما بيدك وادنو من البرج لتبحث عن الباب الذي ستكون أول من سيفتحه..."

بهدوء دنى الأميران من البرج فيما وقف الساحر على جنب وظل يراقبهما بينما يحاولان تتبع الإشارات المرسومة على قطعة الذهب، كان هنالك في أسفل القطعة مثلث صغير يشير لأعلى، ومنه تتفرع أرقام وأحرف في كل الجهات مثل أفرع شجرة.

“ع 3 ي 5 ع 2 س 10 ع 2 ي 8 ع 2 س 6 ع 2 ي 4 ع 2 س 2 ع 3

كانت الرموز من البساطة بحيث لم يحتاجا وقتا ليتمكننا من فهمها، وحمل الأمير جابر المفتاح في راحة يده وراح يتتبع الخطوط على حسب ما تمليه الأرقام والأحرف، كان يوجد في أسفل الجدار حجر منقوش عليه مثلث بارز مثل الذي في المفتاح فكان نقطة انطلاق لهما ولذلك راحت الأميرة هند تفكر بصوت مرتفع:

- "ثلاثة لأعلى، خمسة إلى اليمين... أكمل... ستة على اليسار، إثنان لأعلى...".
وهكذا حتى قادتهما الرموز في شكل شعلة نار إلى حجر غير ذي علامة في الأعلى، وهناك ضغط الأمير جابر برفق على الحجر فاندفع على الداخل قليلا وبقي ينتظر، وحينئذ جاء صوت تشقق صخر سقطت معه بعض الحجارة من الأعلى واستقرت في النهر أو على موضع قريب منهما، ثم راح باب خفي يظهر في الجدار الذي أمامهما فجأة.

كان الباب الذي فتح قد غاص عن الحجارة التي حوله ببضع سنتمترات فقط، ولذلك احتاجا لدفعه، ودار الباب الحجري حول نفسه بينما يخرج منه غبار كثيف راح يتنحى سريعا ليكشف عن ظلام دامس يقبع في الداخل. وهنا تقدم الساحر منهما وبينما رأسه لا يزال منكسا لأسفل، راح يقول بصوت فيه شخير متكدر:
- "واحد فقط... اختارا من سيدخل".

وقالت الأميرة هند بينما تتراجع إلى الخلف مبتعدة:

- "لست أنا..."

وقال الأمير جابر:

- "أنا سأدخل..."

اختفى الساحر مثل دخان قَطَعْتَه الريح، ودار الأمير جابر نحو المدخل، وبيننا تشيعة الأعين بترقب، راح يخطو بهدوء واختفى في جوف الظلام وانغلق الباب من خلفه مباشرة وعادت الحجارة إلى مكانها حتى لم يعد للباب أثر.

في الداخل كان المكان مظلمًا وعامرًا بالرطوبة يسكنه صمت رهيب مثقل، إلا من أصوات الرياح في الخارج وأصوات حشرات تتحرك على الجدران هنا وهناك، غير أنه ووسط كل تلك الظلمة كان ثمة خيوط ضوء تبرز من بين فتحات صغيرة مخفية في الجدار تنير سلما حجريا راح يرتفع من قاعدة الصرح بشكل حلزوني نحو الأعلى، كان واضحا أن الفتحات قد تم وضعها بعناية بحيث تنير كل واحدة منها درجة من درجات السلم، كان المشهد أشبه بدمية مجوفة أدغمت فيها عشرات الإبر، وراح الأمير جابر يصعد السلم بغير إبطاء يذكر.

صعد حتى آخر درجة وكانت تنتهي عند طابق يحتل منتصف البرج تماما ونظر لأعلى وكان هنالك الكثير من الفراغ الذي لا يزال يمتد نحو السقف دون أن يملأه شيء غير الظلمة، كانت الأتربة تتساقط في شكل خيوط طويلة، وكان أمام الأمير

جابر قد وقف أمام نصب حجري عليه كتاب عتيق بالغ القدم تغلفه طبقة من الغبار وعلى طرفه كانت قد امتدت شبكة عنكبوت قديمة.

تقدم الأمير جابر من الكتاب وجعل يمسح عنه الغبار برفق بالغ، كان الكتاب مغلفا بجلد متآكل، وكانت تغطيه رموز مختلفة لدخان وماء وورق شجر ورياح ونار، لم تكن تظهر بشكل واضح، لكن كان بالإمكان تمييزها، وظهر الساحر يقف خلف الأمير جابر فجأة:

- "أهنتك على هذا أيها الأمير الأشوس، لقد نجحت من بينهم جميعا..." راح يقول وهو يمشي بخطى غير مسموعة حول الأمير جابر وكأنما قد وضع قدميه على الأرض هذه المرة: "الآن استمع إليّ جيدا..." ثم إنه وقف على مقربة وجمع يديه على رأس صولجانه بعدما غرس طرفه عند قدميه وأردف: "وكما أخبرتكم، فإن نظام الأمراء سينتهي بعد رحيلي مباشرة، أنتم ستكونون آخر من يحكم الأراضي بما تمتلكون من قوى، لكن ستكون هنالك أشياء ينبغي إصلاحها رغم ذلك... إنني لا أعرف من تسبب في موت كل تلك القرى، وليس هذا ما أقصده... لكن الإصلاح سيبدأ بتخلصك من هذا الكتاب الذي يحمل شرا عظيما بداخله، وبالوصول على الأوراق الضائعة منه وحرقتها، لو أمكنك فعل هذا... فسوف تقدم خدمة عظيمة لشعبك، ولكل الشعوب الأخرى أيضا... ستنال الآن شفائك، إن الكتاب خلفك، فخذ منه حاجتك ولا تزد على ذلك... لكنني أرى في عينيك أسئلة، فقلها حتى أجيبك عنها... هذا لو أسعفني الوقت الذي بقي عندي، وهو قليل جدا..."

ونطق الأمير جابر يقول بعد أن كان أصغى لما قاله الساحر بكل فرائسه:

- "هل صحيح أن البناء سرق الأوراق أيضا؟".

- "في الأصل أراد معلمي التخلص منه لأجل هذا، ولم يعرف أبدا أن المفتاح كان أيضا بحوزته...".

- "لكن لماذا لم تظهر الأوراق حينها، أين كانت؟".

- "لم تظهر لأنه لم يُعثر عليها إلا بعد فترة طويلة... كان البناء قد خبأها في كهف خفي هنا في الأرض الوسطى لكي يعود إليها في وقت لاحق بعد أن يأخذ المفتاح ثم يستعملها احتياطاً... كانت الجاسوسة الأولى هي من عثرت عليها بينما كانت تتجول في أرجاء الغابة، لكنها كانت جاسوسة خائنة، إنها لم تعدها إلى معلمي أبدا، لقد سرقتها بدورها... ثم اختفت بعدها".

قلب الأمير جابر الأمر في رأسه للحظة، ثم لم يرى أن يخبره بأن الأوراق قد تم تداولها بين الأمير آرون والأمير شهاب، لأنه لم يجد في هذا من فائدة، كون الساحر قال أنه سيموت في أي لحظة، غير أنه راح يسأله عن شيء آخر:

- "لديّ سؤال بخصوص هذا العالم الذي يقال أنه موجود في الخارج، خارج عالمنا... هل هنالك من طريقة للذهاب إليه؟".

- "أتود مساعدة صديقتك؟".

- "لم يكن لدي شك بأنك تعرف بأمرها".

- " بالطبع أعرف، لكن هل حقا تريد مساعدتها أم أنك تريد أن تستأثر بالطريق لنفسك؟".

- " لا يبدو سؤالاً مناسباً لشخص يحتضر...".

- " معك حق... لكن، حسناً... لا يجب أن تقع في اليد الخطأ... " قال الساحر وهو يخرج من يده اللؤلؤة التي كانت معلقة على رقبة هيكل الساحر الأكبر، وحينئذ ارتبك الأمير جابر وفكر في أن يبحث في درعه عن تلك اللؤلؤة لكنه تراجع عن ذلك: " إنها تضعف كلما قمت باستخدامها، سيزيد الشق الذي فيها كل مرة، ثم لن تعود ذات فائدة... ولا تسألني أكثر من هذا، فإنني لا أعرف عن ذلك العالم إلا بمقدار ما تعرف، لم يخبرني معلمي سوى بأنه أنقذ أجدادنا من دمار هائل، وكان ذلك الدمار قادماً من العالم الآخر... لكن ربما تحتاج أن تعرف هذا، إن تلك الفتاة ورفاقها ليسوا أول أناس يأتون إلى هنا من الخارج، كان هنالك رجل جاء في وقت مضى، لقد زار أرض الرماد وفر منها بأعجوبة، وما هذا الشق في اللؤلؤة إلا دليل على ذلك... "

- " هل ساعده الساحر الأكبر؟".

- " بالفعل، هذا ما حدث... "

قال الساحر الأصغر ذلك وهو يناول الأمير جابر اللؤلؤة في يده، ةأخذ الأمير جابر القلادة من يده، تأملها للحظة ثم دسها تحت درعه مرة أخرى وقال:
- " كيف سأعرف أي تعويذة يمكنها مساعدتي؟".

وهنا رفع الساحر صولجانه نحو الكتاب فاهتز قليلا ثم تقلبت بعض صفحاته حتى استقرت في موضع محدد.

- " ستخرج نار من تحت التراب، وستحرق الأرض التي نبتت لقرون طويلة، شر حارق، أناس لا قبل لكم بهم، أوجه ليست بالأوجه، وأذرع ليست بالأذرع... لكن تذكر هذا أيها الأمير الطيب... إن الشر العظيم يمكن أن يدحضه خير قليل جدا... حينما تجد النار طريقها نحو الأعلى، حينها ينبغي على الماء أيضا أن يجد طريقه نحو الأسفل، وهناك سيحرق أحدهما الآخر... "

كان الأمير جابر يقف مشدوها لحديث الساحر، دون أن يقول شيئا، حتى عندما استدار الساحر ليختفي مثل طيف أسود، فإن كلماته الأخيرة التي خرجت مبسوطة من حلقه ظلت تدندن في أذنه مثل صفة قوية:

- " خذ حاجتك و فقط... خذ حاجتك و فقط... تصعد النار، بينما الماء ينزل... ثم قد يحل سلام عظيم على هذا العالم، تماما مثلما قد يلتهم الشر جدرانه "

في الخارج كان الجميع ينتظرون بقلق وترقب، كان الوقت الذي قضاه الأمير جابر في الداخل قد صار يبدو لهم أطول من اللازم، أطول مما يقتضيه أمر قراءة تعويذة، لكن شيئا ما بدأ يحدث أمامهم فجأة، كانت بعض الحجارة قد بدأت تتساقط، وأصاب الهلع قلب خولة وقلب القائد ليث بشكل زائد عن أي شخص آخر، ثم إن الأميرة هند نطقت تقول بتوتر:

- "لا، لا ينبغي لهذا أن يحصل... لا ينبغي لهذا أن يحصل..."

لكن الحجارة الحجارة المتساقطة كان قد زاد عددها وتسارع وراحت تهوي من كل جانبفي وتيرة كبيرة، وصاح القائد ليث بغضب:
- "سأدخل..."

وقاطعته الأمير هند:

- "لا ينبغي لأحد أن يدخل، اهدأ قليلاً أيّه القائد والبت مكانك..."

وهكذا عدل القائد ليث عما نوى فعله ووقف يشد قبضتيه بينما يتغلغل في صدره خوف على سيده.

راح الصرح يتعري من حجارته بتسارع، وفي اللحظة التي كانوا يرجون فيها أن تتحرك تلك الباب ثانية ويظهر الأمير جابر من خلفها، إذ بالبرج انفلت على نفسه ويهوي على الأرض بالكامل، لقد سقط مثلما أن سحرا كان يبقيه واقفا وزال عنه فجأة، لقد تكسر مثل قطرة ماء على صخرة، وتطاير منه غبار كثيف واندفع نحوهم، لم يكن بالإمكان رؤية أي جزء من البرج بعد هذا، إنما كومة غبار واسعة طلعت في موضع سقوطه حتى غطت النهر معها وما حوله، حاولت خولة أن تركض نحو كومة الغبار غير أن رشا تداركتها وأحاطتها بذراعيها، كان في عينيها دمع وبكاء يكاد ينفجر، ونطقت الأميرة هند تقول مرة أخرى بينما ترفع ذراعها أمام وجهها:

- "لا ينبغي لهذا أن يحصل... لا ينبغي لهذا أن يحصل..."

وصاح القائد ليث بأعلى صوته:

- "لاااااا... سيدي الأمير جابر..."

لم يدم الغبار وقتاً طويلاً، بل راح ينجس ويعود نحو مركزه بسبب الرياح الخفيفة التي كانت تهب منذ فترة، لكن وما إن انقشع الغبار حتى تفلتت خولة من ذراعي رشا واندفعت راکضة نحو الجسر الخشبي بشكل جنوني جداً.

وصلت خولة إلى الركاب وانحنت تبحث وتقلب الحجارة بيديها، وعندما وصل الآخرون بعدها، فإنهم وجدوها وقد جثت على ركبتيها واستلمت رأس الأمير جابر فوق ذراعها، كانت ثيابه مغطاة بالتراب وكان قد حدث شق في قناعه، وقال وهو يفتح عينيه بصعوبة:

- "هل تبكين عليّ حقاً؟"

ومررت خولة إبهامها تحت عينها، فيما أضاف الأمير جابر:

- "سمراء!"

وهنا اهتز قلب خولة وتلبد وجهها للحظة وانجس الدمع في عينينها، غير أن الأمير

جابر استتلى كلامه قائلاً:

- "أنت سمراء!!... سمراء يا خولة!!... لم أكن أعرف هذا..."

قال هذا وراح يرفع يده إلى وجهها، مرر إصبعه ببطء على خدها، ثم جاء ظلام دامس على بصره، كان آخر ما رآه هو دمعتها لما راحت تتلألاً بينا تنفلت من عينها، سقطت ذراعاه فوق الركاب وغاب عن وعيه من شدة الألم الذي كان يسري في أنحاء جسده.

فراق

عندما انزوت الشمس خلف الجبال الرمادية البعيدة، راح الليل يهطل سريعا بعدها، كان بارداً ويبعث على السكينة، ولذلك كانت وجوه العائدين وهو يعبرون مدخل مدينة أرض الشجر متعبة ومكفهرة، وهم على ظهور الأحصنة، كانوا لا يرجون شيئاً أكثر من فراش مريح ونوم هادئ، كان القائد ليث يتقدمهم، وكانت حوافر الخيول تططق من تحتهم دون توقف، ظهر بعض الناس على عتبات بيوتهم وظلوا يراقبون الخيول وهي تمر من أمامهم، كان منهم من رأى حال الأمير فلم يبدي رد فعل يذكر، لكن كان منهم أيضاً من ارتد مسرعاً يخبره أهله، في النهاية، لم يبدأ بزوغ شمس اليوم التالي إلا وكان الخبر قد حط على كل الألسن، يبقى أنه في الصباح جاء بعض من التجار ورجالات المدينة من ذوي الشأن إلى بوابة القصر ليستقصوا الخبر ويطمئنوا على حال أميرهم.

مر يومان، وفي مساء اليوم الثالث استيقظ الأمير جابر، استيقظ بشكل جميل حتى لكانه لم يصبه شيء البتة، وذهبت خولة تفرع باب غرفته، لم يجبها، لكنها دفعتها ودلفت بنفسها إلى الداخل، وكان يقف على الشرفة كعادته يطالع المدينة، كان يرتدي بدلة سوداء نظيفة مثل التي مزقتها حجارة البرج، كان يبدو شاداً، ومشيت خولة بصمت حتى وقفت بجانبه، ومرت دقائق، ثم نطقت تقول بصوت لطيف حذر:

- "هل أنت بخير؟"

وأدار الأمير جابر وجهه الخشبي نحوها، نظرا في عيني بعضهما للحظات قليلة، حتى هربت خولة بوجهها نحو المدينة، ورد الأمير جابر:

- "قد استطعت النوم أخيرا، أنت كيف حالك؟".

وجعلت خولة تعبت بأصابع يديها في توتر، ولم تجب إلى بعد برهة:

- "قالت الأميرة هند أنه لم يكن يفترض بالصرح أن يسقط...".

- "صحيح...".

ودارت نحوه:

- "فما الذي حدث هناك إذن؟".

انحنى الأمير بذراعيه على سور الشرفة:

- "فعلت شيئا لم يكن يفترض بي أن أفعله".

- "لم؟".

- "ظننت أنني قد أتمكن من معرفة ما تحويه الأوراق المفقودة، كان الساحر قد حذرنى من أن أقلب صفحات الكتاب، لكنني فعلت... ليس بالأمر الكبير على أي حال، فالكتاب قد دُمر، ولم يعد لبقاء الصرح أي معنى...".

- "والساحر؟".

- "لا أدري أين اختفى، لكن حتى الآن، سيكون قد لفظ أنفاسه... أخبرني أنكم لستم أول من دخل إلى هنا، كان هناك رجل جاء إلى عالمنا منذ زمن بعيد جدا...".

والآن رانت على وجه خولة دهشة عظيمة وهي تسمع هذا، واستدارت بكامل جسدها نحوه، وشدت يديها إلى صدرها وجعلت تطالعه بتوسل، فيما أردف الأمير جابر قائلاً: "ألستم تعرفون القنطور في عالمكم؟ قال أن ذلك الرجل حط في أرض الرماد أول ما دخل، لكنه وجد سبيله للهرب منها، حتى أنه عاد من حيث جاء، لقد عاد إلى عالمه".

وتحولت الدهشة على وجه خولة إلى بهجة سرت مثل النسيم في ملامحها، ولذلك هتفت قائلة:
 - "أتعني؟".

غير أن الأمير جابر قاطعها:
 - "لا أعرف تحديداً كيف فعل ذلك، لكن من المؤكد أن الساحر الأكبر قام بمساعدته..."

استمر الأمير جابر في حديثه المتقطع بينما تتغير ملامح خولة ومشاعرها تبعاً لكلامه، وفي موضع سألته إن كان استفسر عن والدها، وردّ الأمير جابر هاذا رأسه، لا، هو لا يعرف مكانه، قال هذا وجعل يضع رأسه بين يديه بعدما عاد ألم فضيع يهاجمه، وقالت خولة لما هالها وأحزنها أن ترى عليه ذلك، قالت وهي ترفع يدها نحوه، لكن دون أن تجرأ على لمسها:
 - "هل أنت بخير؟".
 - "ليس تماماً".

- " لكن أليس من المفروض أن يزول عنك هذا أيضا؟".

وجثى الأمير جابر على ركبتيه وقال بصوت متألم:

- " حسنا، لا أعرف، يبدو أنه لم يذهب. ..."

- " لن يدوم طويلا، أليس كذلك؟".

- " أجل، سينتهي... الآن، أرجوك غادري. ..."

وهكذا غادرت خولة الشرفة في كمد، وحتى عندما راحت تغلق باب الغرفة وهي تنظر خلفها، فإن الأمير جابر كان لا يزال جاثيا يمسك وجهه الخشبي بينما يئن من الألم، ثم إنه نزع القناع ورفع وجهه إلى السماء وصاح بصوت عالٍ، لكن بعد مرور لحظات وخلف الباب المغلق، كانت خولة لا تزال هناك واقفة تنصت في عطف وغضب، كانت تسند ظهرها إلى الباب، بينما الأفكار تهيج في رأسها، تنمو وتتدفق، وقررت أخيرا ما الذي ينبغي عليها فعله.

عندما خفت الألم عن الأمير جابر، فإنذه سحب يديه عن الأرض وأعاد وضع قناعه، ونادته خولة من خلفه وهي تفتح باب غرفته بصوت فيه دفء وترجي.

- " جابر. ..."

هكذا نادته باسمه لأول مرة، وبقيت واقفة في مكانها، وراح الأمير جابر يقف بهدوء بينما لا يزال يثبت القناع على وجهه بيده، استدار نحوها ولبث يطالعها لدقيقة كاملة، ورأى أن نظرتها كانت مُلحّة، ولذلك فإنه أنزل يده ببطء نحو الأسفل، وكان لخولة ما أرادت.

ما حدث بعدها أنه رمى القناع على الأرض ثم نزع درعه وقميصه واستلقى على السرير وفرش ذراعيه يمنة ويسرة وظل يطالع السقف وهو يفكر في رد فعل خولة، وإن كنا لنعرف ما استرجعه فسوف نرى أنها قد وضعت يدها على فمها بعد شهقة عظيمة أطلقتها لحظة أن رأت وجهه، ثم استدارت مباشرة ومضت تهوول نحو الخارج، جرت تماما إلى غرفتها وفي عينها دمع حار يتطاير.

كلاهما أمضيا الليل في سهاد وأرق، لكن عندما حل الصباح وأشرقت الشمس، ذهبت خولة إلى العجوز المداوية، ووجدتها تضع الماء عند نعجتها، دنت منها بحياء وسألتهما عما رأته من الأمير جابر، وردت العجوز بعد أن تيبست في مكانها للحظة:

- "بلى، أعرف هذا منذ زمن... أولست طيبية! فلمن كان سيلجأ إذن؟".

- "أليس هنالك..."

- "لا..." قالت العجوز وقامت واقفة، وأردفت وهي تمشي نحو باب الكوخ بينما تتبعها خولة من خلفها: "ذلك شيء لم يسبق لي أن رأيته، لم يكن بمقدوري مساعدته..."

- "أنت فقط من رأيت ذلك؟".

- "كنت كذلك..."

بقيت خولة صامتة بعدها، لدقائق بينما تراقب العجوز وهي تدور حول نفسها تمسح أرض الكوخ بمكنسة من نبات الذرة، وتنحت بعدها عن طريقها وقالت:

- "عادت الألوان إلى بصره، وصار يقدر أن ينام أيضا..."

ولم تكذ تنهي كلامها حتى أتبعتها العجوز قائلة:

- "أخبرته مرارا أنه ليس بفعل الساحر".

وقالت خولة:

- "وكيف عرفت؟".

وتوقفت العجوز عن الكنس ورفعت المكنسة في وجه خولة:

- "أعرف كل أنواع العقوبات التي يتعرض لها الأمراء جزاء مخالفتهم أوامر الساحر،

وهذا لم يكن واحدا منها... حتى لا يجوز أن يكون واحدا منها".

الآن سُمع طرق على الباب فارتد بصرهما نحوه، وكانت رشا تقف عند الباب

المفتوح ترتدي رداءً حريريا مبهرجا، مثل فتيات القصر تماما.

في الطريق نحو القصر أخبرت رشا خولة بأن الأمير جابر طلب منها أن تبقى في

القصر أيضا، على أن تنظم إلى الجيش إن دعت إلى ذلك حاجة، وفرحت خولة لها

جدا وهنأتها، لكن فكرة أنه أرسل في طلبها لم تدع الإبتسامة تدوم طويلا على

وجهها، حتى حينما انتبهت رشا لشرودها في الطريق قالت تطمئننها:

- "لقد دعى قائد الجيش والسيدة نجلاء أيضا..."

وردت خولة تخفي قلقها:

- "حقا؟".

- "أجل..."

كان القصر هادئًا مثل رأس فارغ، حتى الفتيات كن يتنقلن بين أركانه لتأدية الأشغال بحركات آلية صرفة، عندما وصلت خولة ورشا عند باب قاعة الديوان فإنهما لبثتا هنالك للحظات بسبب من أن خولة كانت مترددة، ذلك حتى استجمعت نفسها بعد هنيهة .

كان القائد ليث والسيدة نجلاء يجلسان في جهة واحدة، ولذلك جلست الفتاتان معا في الجهة المقابلة، وران صمت في أرجاء القاعة، كان الأمير جابر يسند وجهه على أصابع يده ويبدو ساهما جدا، وعندما رفع رأسه قال بعدها:

- " طلبتكم حتى يعلم الجميع أن تدمير كتاب السحر لم يكن آخرهم لنا، بل هنالك أمر أعظم منه وأخطر منه شرا..."

وضاقت العيون لحديثه وتنبهت، فيما أردف وهو ينظر في أرض القاعة:
- " قبل أن يغيب الساحر، أخبرني أمرا، ولا ينبغي أن يخرج عن دائرتنا في الوقت الراهن... وما أخبركم به إلا لنجد له جوابا معا، فقد استعصى عليّ فهمه".

ونطق القائد ليث متحمسا:

- " كلنا أذان صاغية يا سيدي..."

وراح الأمير يقول في غم بدا واضحا في صوته.

- " بانتهاء عهد السحرة، يكون قد انتهى عهد الأمراء أيضا... بانتهاء عهد الأمراء يكون عهد السلام بين الأراضي قد انتهى، ولهذا ينبغي علينا أن نعزز الجيش قدر استطاعتنا، الوحوش لن تكون كافية، فالهجمات على القرى والمناطق التي تبعد عن

المدن الكبيرة ستزداد وتيرتها، ستعم الفوضى في الخارج، سنحاول دفعها بجنودنا، لكن... هنالك خطر أكبر سيظهر، لا أدري ما هو، لكنه شيء سيفوق مقدرة أي جيش لوحده، أو أي وحش أيضا، لأنها لا تخرج خارج حدود أراضيها... هو أمر لا أعرف كنهه ولا موضعه ولا وقته... نار ستخرج من تحت التربة، تحرق الحشائش، وينبغي أن يطفئها الماء الذي سينزل من أعلى... هذا ما قاله الساحر، ولم يزد..."

بهذا دارت عيون الجالسين نحو بعضهم، وحينما لم يكن هنالك من يريد أن يقول شيئا فإن الحديث عاد إلى الأمير جابر مرة أخرى:

"هو لغز ينبغي علينا فكّه، قد لا يكون سهلا، وقد لا يكون صعبا أيضا... ولهذا فلتفكروا فيه جيدا، وأنا مستعد لأسمع آرائكم في هذا..."

ونطق السيدة نجلاء قائلة:

"هل يعرف الأمراء الآخرون هذا أيضا؟".

ورد الأمير جابر وهو يعدل جلسته:

"لا أظن أن آرون يعرف، لكن شهاب ربما يعرف..."

وقال القائد ليث:

"ألا يمكننا تحديد إن كان هذا الخطر يهدد أرضا معينة، أم سيشملها جميعا؟".

"ليس لدي فكرة..."

ونطقت رشا أيضا:

- "يمكن أن تضرم النار في أي أرض بعد أن تُشن فيها الحروب كما قلت يا سيدي، لكن الماء الذي ينزل من أعلى، لا يأتي من غير المطر، والسحب تتجمع كثيرا فوق الأرض الوسطى، فهل يكون لهذا معنى؟".

ورد عليها الأمير جابر:

- "يبقى أن الأمطار تنزل في كل موضع، ولو بفترات متفاوتة، لكن رأيك جيد، فهل يوجد في الأرض الوسطى ما يستحق أن تشن فيها حرب لأجله؟ لا أعرف أنه يوجد شيء كهذا..."

وظفق الجميع يفكرون بعدها، كل ساهم في أمره، كان كل واحد منهم قد قال رأيه، غير خولة، فلم تكن قد رفعت بصرها عن موضع قدميها حتى اللحظة، وظلت كذلك حتى جائها صوت الأمير جابر مفاجئاً هدد سكوتها:

- "أفليس لديك ما تقولينه يا خولة؟".

ورفعت رأسه نحوه بخجل:

- "لا يا سيدي، اعذرني..."

ونطق القائد ليث من عنده:

- "أرجو ألا تفكر في إرسالني إلى أرض الرياح بمثل تلك الطريقة السابقة مرة أخرى

يا سيدي؟".

وتبسمت السيدة نجلاء لحديث القائد، بينما رد الأمير جابر وفي صوته تبسم أيضا:

- "لا يا ليث، مثل ذلك، يحدث لمرة واحدة..." قال وقام واقفا وأردف: "لتفكروا في الأمر بهدوء إذن..." وأشار بيده نحو المخرج: "يمكنكم المغادرة..."

وهكذا قاموا عن مقاعدهم وراحوا نحو الباب إلا خولة، فإنه طلب بقائها، وعندما فرغت القاعة، مشى إليها حتى وقف عندها، وحينما لم تعد قدماها تقدران على حملها فإنه أخرج من بين ثنايا درعه لؤلؤة سوداء اللون تلمع مثل شهاب ساطع، دسها في يدها وقال بعدها:

- "هذه ستساعدك على الخروج من هنا، بإمكانك الآن أن تعودى إلى عالمك..."

بعد هذا، جلست خولة واضعة وجهها بين يديها، ولم تقدر على فتح عينيها إلى بعد مرور دقائق عدة، وحينما فتحتهما فإنها وجدت الأمير جابر قد اختفى، وحينما نظرت في يدها، كانت اللؤلؤة لا تزال موجودة، لكن رغم أنها بكت طويلا فيما سبق لأجل هذا، فإنها تمنت في لحظة لو أنها اختفت أيضا، لم يكن من السهل عليها أن تصدق أنه يمكنها أخيرا أن تعود إلى عالمها، الآن بعد أن... غير أنها لم تقدر حتى أن تحدث نفسها بالأمر لشدة قسوته.

في المساء، وكانت زرقعة السماء تنطفئ ببلادة، وحيث كان الجو رشيقا محملا بنسيم بارد طيب الملمس، وحيث جلست خولة ورشا على درجات الرخام فإنهما راحتا تتبادلان أطراف حديث اتسم بالمرح من فرط حزنهما، وراحت خولة تدندن وهي تضع يدها على خدها:

”- والدي الذي لا أعرف أين هو الآن، ربما يكون هنا وسأغادر من دونه، ثم هذا...“

وقالت رشا بعد أن لاحظت شحوبا في صوتها:

”- ماذا؟“.

وأملت رأسها تطل عليها:

”- تقصدين الأمير جابر... أم أنك؟“.

وهزت خولة رأسها بينما تعصر عينيها، وأما رشا فلم تدري بأي كلام تنطق بعد هذا،

لكنها عادت تقول بعد بعض الوقت:

”- هل هو أيضا يهتم لأمرك بنس الطريقة؟“.

وقاطعتها خولة:

”- لا أعرف، ليس لدي فكرة... ولا أريد أن أعرف حتى، سأترككم، سأذهب.“.

ثم إن دموعها غلبتها، فأملت رأسها على كتف رشا وظلتا على تلك الحال لساعة

كاملة، قامتا بعدها وذهبت كل إلى فراشها، وغفت خولة سريعا ونامت بعمق مثلما لم

يسبق لها أن نامت في هذا العالم.

في الصباح تجمع أهل القصر لوداع خولة، كان وداعا مريرا فاضت له العيون

وذاقت به الصدور وأينع فيه حب متبادل بينها وبينهم، وحدثتها السيدة نجلاء وهي

تعانقها:

”- آه يا ابنتي، بكيت حينما جئت، وتبكين الآن أيضا حين ذهابك... لثري السعادة

أيضا كنت.“...

وتلاه قول رشا بينا تضمان بعضهما:

- "أشعر كثيرا أنبي سأراك مرة أخرى، لكن إن لم يحدث، فلن أنساك أبدا."...

هذا وبعض أحاديث أخرى مثل تلك التي تتبادلها النساء حينما تصبح مسافة الفراق بينهما ليس أكثر من متر واحد.

انطلقت خولة على ظهر فرسها رفقة القائد ليث واثنين من جنود الحراسة، راحت تغادر القصر من بوابته الكبيرة، لم يكن الأمير جابر قد ظهر لوداعها، لكنها لم تكن ترجو منه أمرا آخر، في النهاية، انغلقت بوابة القصر خلفهم، ومضت الخيول تعدو نحو الغابة في كتابة.

هناك بين الأشجار الصماء الباردة، كانت خيوط الشمس الذهبية تتسلل من الفجوات الصغيرة بين الأغصان تثقب الأرض بنورها، كانت قد تجمعت عصفير على الأذرع الخضراء الممتدة، وهدأت الخشخشات التي ظلت تقترب من كل الجهات قبل لحظات قليلة، وحينما توقف الرجال الثلاثة على مبعده وجعلوا يراقبون من على ظهور أحصنتهم بعيون مهتمة، فإن خولة وقفت في ذات الموضع الذي فطنت فيه أول مرة، على قدميها وهي تحكم قبضتيها على الكرة السوداء الصغيرة، كان موقفا صعبا يمكن وصفه بأنه حيث يوشك المرء أن يقوم بشيء لم يعد متأكدا من أنه يريد، يمثل ذلك الخوف والتردد، أغمضت خولة عينيها وشدت قبضتيها حول اللؤلؤة، كانت عينا القائد ليث الدامعتين هما آخر ما رآه خولة في هذا العالم. ثم إنه رأى رفقة صاحبيه شيئا غريبا يحصل، إن الأوراق المتساقطة هناك وهنالك على أرض الغابة راحت تهتز

وترتفع عن الأرض في مسار لولبي وفي تسارع، ولم تمضي غير ثوانٍ حتى غلفت خولة كرة من الأوراق والأتربة المتطايرة حتى لم يعد بالمقدور رؤيتها، في لحظة، انفجر الهواء وتحطمت كرة الأوراق تماما، وحينما حط الفتاة على الأرض في كل ناحية، فإنه لم يكن لخولة وجود بعدها، لكنما تلك الأوراق هي أشلاؤها.

في السماء كان هنالك غمامة سوداء من الغربان تطوف فوق الغابة، كانت قد ظلت هنالك طوال وقوع ذلك المشهد دون أن ينتبه لوجودها أي أحد، حتى القائد ليث، لكن مع انفجار كرة الأوراق تراجعت الغربان نحو القصر مجددا، تلاحمت مع بعضها وعادت غرابا واحدا ورفرف الغراب الكبير بجناحيه عاليا وهو ينعق بذلك الصوت الذي ينذر بقدوم أمر سيء.

عندما فتحت خولة عينيها بعد ذلك، كانت قد وجدت نفسها ترقد على مقاعد خلفية لسيارة دفع رباعية راحت تخرج مسرعة من الرمال نحو درب صلب يخترق بحار الرمال شمالا.

انتبه لها الرجل الذي كان يجلس بجانب مقعد السائق فالتفت يسألها:

- "هل أنت بخير؟"

ولم ترد خولة، إنما اعتدلت على المقعد ونظرت فيما حولها، وأخذ الرجل قارورة ماء

وناولها إياها:

- "لابد من أنك ضمانة... ما الذي حل بك يا ابنتي، هل تهتي عن رفاقك؟"

ولم ترد خولة أيضا، فنطق السائق هذه المرة، بينما يراها في المرأة فوق رأسه:

- "دعها يا أحمد، لا بد أنها متعبة..."

- "بالطبع هي متعبة، لكن ينبغي أن نسألها عمّ حلّ بها، لربما يوجد المزيد من أصحابها ممن هم في حاجة إلى المساعدة..."

هكذا استمر الرجلان في تبادل أطراف الحديث طوال الرحلة، فتارة يسأل الرجل ذو الشارب الأبيض خولة عن أمرها فيجيبه السائق وهو يثبت قبعته على رأسه الأصلع بأنه ينبغي عليه أن يتركها وشأنها ما دامت لا ترغب في الحديث إليهما، ثم يأخذ صاحب الشارب يتسائل بينه وبين نفسه عن سر وجود فتاة في منطقة سقوط نيزك وهي فاقدة الوعي لوحدها، ليأخذ السائق يذكره مجدداً بأن ذلك ليس من شأنه، ويصمت صاحب الشارب لبعض الوقت، لكنه يعود ليسأل عن غرابة ملابسها، فيسكته السائق، ليعود صاحب السؤال فيجيب نفسه بنفسه قائلاً أنه لا بد من أنها تعمل ممثلة، أجل... ممثلة جاءت مع فرقته ليصورها مشهداً خاصاً هناك حيث موضع سقوط النيزك، لكن عاصفة رملية هبت عليهم فجأة وفرقتهم، ثم يبتسم لأنه وجد الإجابة، وينظر السائق في المرأة ليرى خولة تنظر عبر النافذة وفي عينيها ذبول وتعب، كانت كأنها تعود من غرق، أو كأن روحها سلبت منها لفترة، دارت العجلات على الطريق الإزفليتي المليئ بالحفر، وبعد عشر كيلومترات كانت تدخل محطة بنزين كان يقف بجانبها مقهى صغير ومطعم يبدوا وكأنه هونفسه كان بحاجة إلى وجبة طعام سريعة.

كان السائق رجلا يفهم حال شخص وُجد طريحا في وسط الصحراء ولا يريد التحدث، ولذلك تركها تجلس هنالك على كرسي خفيض ووضع أمامها قنينة ماء بارد ودس بعض النقود في يدها وأخبرها بأنه لم يمضي وقت طويل قبل أن تمر حافلة نقل المسافرين من هنا، ثم إنه اعتذر إليها لأنه كان ينبغي عليه أن يعود أدراجه إلى عمق الصحراء مرة أخرى.

بعد نصف ساعة مرة أول حافلة كانت قد انطلقت من المحطة وحينئذٍ صعدت خولة على متنها وغطت في نوم عميق إلى أن أيقظتها امرأة كانت تجلس بجانبها، وحينما رفعت رأسها فإنه كان هنالك مباني كبيرة ترتفع عاليا ويبرز الزجاج منها، لم يكن هنالك رمال أو جبال أو أشجار ممتدة، عندما خرجت من محطة خروبة بحثت عن سيارة أجرة فصادف أن أحداها كانت تمر في تلك اللحظة، كانت تتفاعل مع الأشياء بحركات تلقائية، كآلة جافة، كانت توقف السائق وتركب، ثم تدفع له نقوده دون أن تسأله عما تبقى، ثما حينما نزلت أمام البناء الذي تقيم فيه فإنها راحت تنتظر المصعد بوج جاف يخلو من أي تعابير مهما كان نوعها،

عندما رنّ جرس الوصول وتحرك باب المصعد، مشت خولة إلى باب شقتها بشق الأنف بسبب من التعب الذي كانت تحس به، وحينما وضعت يدها على القفل تذكرت أن المفتاح ليس بحوزتها، فاتكأت على الباب وانزلت على الأرض وأغمضت عينيها وبكت.

تم بحمد الله.